قصص الأنبياء

قصص الصفوة الممتازة

أنبياء الله ورسله

تأليف

فضيلة الشيخ حسن أيوب


بسم الله الرحمن الرحيم


قصص الأنبياء
قصص الصفوة الممتازة
أنبياء الله ورسله

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

رقم الإيداع : ٨٧٦٩ / ١٩٩٧ م

الترقيم الدولي
I . S . B . N . 977 - 265 - 171 - 8

دار التوزيع والنشر الإسلامية

٨ ميدان السيدة زينب ت : ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢ ص.ب : ١٦٣٦

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تحدث المكرمات، وبالتقرب إليه تزكو النفوس، وتنشرح الصدور، وتطهر القلوب من جميع الآفات. وأشهد أن لا إله إلا هو منزل الكتب رحمة بالمسلمين، وهدى وبشرى للمؤمنين، ومنهجا لابد منه لمن أراد النجاة فى الدنيا ويوم الدين.

وأشهد أن محمدا نبى الله ورسوله إلى جميع العالمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد

فإنى أقدم إلى إخوانى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها هذا الكتاب الذى هو عبارة عن تاريخ الإنسانية من عهد آدم إلى عهد النبى محمد ﷺ، وهو أصدق مصدر لهذا التاريخ؛ لأنه اعتمد على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأقوال الصحابة والتابعين، وقليل جدا من أقوال أهل الكتاب بشرط ملاءمتها لما فى الإسلام، ولما يهضمه العقل السليم ويقبله، وهو ليس تاريخ الملوك والسلاطين، ولكنه تاريخ الصفوة الممتازة من الأنبياء والمرسلين مع من أرسلوا إليهم من الشعوب. حاكمين ومحكومين.

وفى هذا الكتاب ترى الإنسان فى قمة سموه، وذروة شموخه، وعظمة أخلاقه، وانصهار روحه فى بوتقة الحب الإلهى، وتفانيه فى العبودية لربه، وصبره على جميع أنواع البلاء فى سبيل إرضاء خالقه ومدبر أمره، كما ترى هذا الإنسان فى انحدار إنسانيته، وانسلاخه من عزته وسيادته

وكـرامتـه، وتقلبه فـى دنس الشهـوات، ورتعه فى مـسـتنقعـات الرذائل والأنجاس والحسرات.

يمثل النوع الأول تلك الصـفوة الممـتازة من رسل الله وأنبـيائه وأوليـائه ويمثل النوع الثـانى أولئك المتمـردون على الحق السـاقطون فى آبار الظلام والظلم، المتهـافتـون على نصرة الشيـاطين والجرى وراءهم واتبـاعهم لهم بصورة جعلتـهم آفة المجتمع، وأعداء الحـياة الكريمة، ولا أطيل عليك فى وصف أولئك وهؤلاء، فـإن فى سطور هذا الكتـاب مـا يكـفى ويغنى، ويعطينا أعظم الحِكم وأسمى العبر لمن كان ذا قلب مـتفتح، وبصيرة نيرة. أسأل الله أن ينفع به كل من قرأه واتعظ بما فيه آمين.

حسـن أيـوب

القصص فى كتاب الله تعالى

إن كتاب الله الكريم، وذكره الحكيم، وقرآنه العظيم ملىء بالمواعظ والعبر، وبالأحكام والحِكم، وبالأمثال والقصص، وبالإرشاد والتوجيه، وبالتربية والتأديب، والتبصير والتهذيب، والهداية إلى أسباب السعادة، والكشف عن أوجه الخير والإفادة.

فكل ما فيه نور تراه بصائر المهتدين، وكمال تترقّى فيه أفئدة المتقين، وجمال يشعر به خواص المؤمنين.

كتاب أُحْكِمَتْ آياته، وفُصِّلَت أحكامه، وبُيِّنت مقاصده، وزادت عن الحصر فوائده، ويكفى أنه كتاب الله جل جلاله.

وهذا الكتاب الكريم فيه الكثير من قِصص السابقين وحكاياتهم مع من يحيط بهم، والكثير من قصص المرسلين مع قومهم، والأنبياء مع أممهم.

وهذه القصص تَحْكِى بأصدق قول، وأبلغ أسلوب، وأفصح بيان تاريخ البشرية من عهد آدم أول المرسلين إلى عهد محمد ﷺ رسول الله وخاتم النبيين.

هذه القصص تهتم بأهم مايشغل الإنسان، وبأعظم ما يقلقه، ويستولى على فكره ومشاعره، وهو السعادة،

تلك الكلمة الغالية التى شغل بها كل مخلوق على الإطلاق والتى بحث عنها الإنسان وجرى وراءها أشواطاً طويلة، وضَحَّى فى سبيلها بكل عزيز لديه، وأفنى من أجلها عمره، وقتل فى سبيلها أخاه، وأقرب الناس إليه، وفتك بأحب الناس عنده.

إن تلك القِصص أوضحت أن تلك السعادة لها معنيان: معنى مادى

شهوانى حيوانى ساقط.

ومعنى آخر إنسانى ربانى رفيع عزيز كريم.

المعنى الأول عبارة عن انتصارالباطل على الحق والشر على الخير، والشهوة الحيوانية على اللذة الروحية، إنها باختصار انتصار الحيوان على الإنسان.

وأما المعنى الثانى فهو السمو الإنسانى إلى الآفاق الربانية، والنشوة العقلية بسبب الانتصار على الأحابيل الشيطانية، والانغماس فى النور الذى يغمر الإنسان من قِبَل العلى الأعلى.

السعادة الأولى يقود جحافلها الشيطان حتى يسلمهم إلى نيران الفتنة فى الدنيا وجحيم العذاب الأبدى فى الآخرة.

أما السعادة الثانية فإن قادتها هم رسل الله، وصفوة خلق الله، يأخذون بأيدى تابعيهم حسب منهج الله حتى يسلموهم إلى سعادة روحية لامثيل لها فى الدنيا، وإلى نعيم أبدى فى الآخرة فى جنة عرضها السموات والأرض أُعِدَّت للمتقين.

السعادة الأولى يرقص حولها الشيطان، ومعه جنوده يطبلون ويزمرون.

والسعادة الأخرى تحتف بها الملائكة وتصحب أهلها فى الدنيا والآخرة تكريماً لهم، وإظهاراً لفضلهم ومكانتهم عند الله.

وإنك لتجد فى قصص الأنبياء والمرسلين آيات ومعجزات، وعبراً سامية، وحكماً عالية، وآداباً رفيعة، وأحكاماً إلهية عظيمة ومفيدة، وإرشادات لايستغنى عنها أحد من عباد الله.

كما تجد فيها جدلاً ومحاورات، ونقاشاً ومخاصمات، وتكذيباً للرسل وافتراءات، وتجد الإنسان فى هذا القصص أنواعاً:

فهناك الإنسان الذى تبلدً فكره، وغطّت العادات والتقاليد والمواريث عقله، فيتخذ من العادة عبادة، ومن المجتمع ومايحيط به آلهة، ومن المواريث مقدسات ولو كانت سبب هلاكه وشقائه، يتكبر على رسول الله، ويخشى أن ينزعوا منه الرياسة والتحكم فى عباد الله، ويحذر أن يحرموه المكاسب والمغانم التى يستولى عليها ظلماً وتجبراً وطغياناً. إنهم أعظم آفة الإنسان.

وهنالك الإنسان المتبصر بعقله، والمتفتح بمشاعره، والمستقل بفكره، إذ رأى الحق طاله، وإذا اقتنع بدين الله اعتنقه، وإذا أيقن بأن الله أرسل إليه رسولاً ورسالة لاذ بهما وشدً يديه عليهما ولو كان فى ذلك تضحيته بكل عزيز لديه.

وبين هؤلاء وهؤلاء منافقون مذبذبون، لاهَمَّ لهم إلا البحث عن الغنيمة، ولو ضاعت فى سبيلها كل كرامة، فهم مرة مع المؤمنين بالله، وأخرى مع الكافرين المحاربين لرسل الله، يَقِلُّون عند الفزع الداهم، ويكثرون عند توزيع الأسلاب والغنائم.

كما توجد أكثرية ألغت عقولها، وأسلمتها إلى غيرها من الكبراء والرؤساء والزعماء فلا رأى لهم فى مهمة، ولايستطيعون حكماً فى قضية، وهؤلاء يستغلهم الكبار المتكبرون، وأعداء الرسل المتزعمون، ويزعمون أنهم بهم أغلبية، وأنهم بكثرتهم على صواب فى كل قضية، بهم يحاربون المرسلين، ويقفون حجر عثرة أمام المصلحين المسالمين.

والخلاصة: أن البشرية انقسمت إلى قسمين:

(١) قسم أسلم لله وجهه، وعرف لله عظمته وكماله وفضله، وخضع لكتاب الله تعالى ولتعليمات رسله، وهؤلاء هم حزب الله الذين قال الله فيهم: ﴿**أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [المجادلة: ٢٢].

(٢) وقسم استسلم للشيطان وأتباعه وجنوده، فكفر وضل، وفسد وأفسد، وملأ الأرض بالشر والفتن، والظلم والظلام، والكفر والنفاق، وهؤلاء هم حزب الشيطان، الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

وقد ذكر الله تعالى فى كتابه الحِكَم التى تؤخذ من هذا القصص فقال: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٠٢].

وقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

[يوسف: ١١١].

قصة آدم عليه السلام

قصة أبينا آدم عليه السلام هى أول قصة ذكرت فى سورة البقرة التى هى أول سورة فى ترتيب المصحف بتوقيف من رسول الله ﷺ على الراجح حسبما بيَّن له جبريل عليه السلام.

وقصة آدم هى قصة الإنسانية التى نحن جزء منها والتى مهما امتد تاريخها على وجه الأرض فإنه لن يزيد بحال من الأحوال عن خمسين ألف سنة حسبما جاء فى الكتب المنزلة من عند الله تعالى قبل القرآن الكريم.

وقد ذكرت الإسرائيليات تواريخ الرسل عليهم السلام كما ذكرت آباءهم حتى وصلت فى بعضها إلى آدم عليه السلام.

ونحن لانثق فى هذا التاريخ لأن أكثر الإسرائيليات ظن وتخمين.

ولكننا نجد فى سرد القرآن للرسل وسِيَرِهِم مع قومهم ما يشهد لذلك فإن الخمسة والعشرين رسولاً المذكورين فى القرآن الكريم الذى هو أصدق مرجع يبدأ أولهم بآدم عليه السلام وينتهى بمحمد ﷺ ونجد سلسلة هؤلاء المرسلين متصلة ابتداء من إبراهيم الخليل عليه السلام حتى لتكاد تحصى تواريخ هؤلاء الرسل بسهولة ابتداء من الخليل إبراهيم عليه السلام. وإن الإسرائيليات لتكاد تلح على أن المدة من عهد آدم إلى عهد موسى لاتزيد عن عشرة آلاف سنة.

وقد تجاوزنا ذلك بكثير إشباعاً لرغبة المؤرخين العلمانيين، ولكى نقطع الطريق على المتشككين والمترددين.

والذى جعلنى أقول ذلك وأتمسك به هو الرد على القائلين بأن الإنسان

أصله قرد وأن مـا اكتشف من الجـماجم التى عثـر عليهـا العلماء ويرجع تاريخها إلى أكثر من مليون سنة يدل على ذلك.

وتوجـد كتـب فى المكتبـات الآن فـيـها صـور لآدم وحـواء فى شكل غـوريلا، وذلك مما وصل إلينا من علمـاء الغرب المـاديين، ومن أتباعـهم الذين قلدوهم بغير نظر ولا روية ولا فهم للدين ولا غيرة عليه.

وسوف تجـد أيها القارئ الكريم أن آدم عليـه السلام كان رسولاً نبـيًّا، وكـان خليفـة لله فى الأرض، وأسكنه الله الجنة،وكـرمه غـاية التكريم، وتاب عليه بعد أن أكل من الـشجرة المحرمة ناسيـاً. أفيكون ذلك كله مع غـوريلا، أو مع مخلوق من نسلهـا!!! إن خطأ الماديين أنهم لايعـترفـون بكتب الله كـمصـادر علمـية وتاريخـية أصـدق من جـميع المصـادر التى يعـتمدون عـليهـا، وكلها قـائمة على التـخمين البـحت إلا القليل الذى لايغنى.

بداية القصة

إن الله تعالى لما أراد أن يخلق آدم عليه السلام جمع الملائكة، ولا ندرى أهُم ملائكة السماء أم ملائكة الأرض، أم الجـميع؟ وقال تعالى لهم: إنى قـدرت أن أخلق فى الأرض إنسـاناً يكون خليـفة يخـلفنى فى حكم أهل الأرض وإقامة العدل بينهم، وإعطاء كل ذى حق حقه.

أو المراد بكلمة «خليفة» أن هذا الجنس يخلف بعضهم بعضاً.

أما المعنى الأول فمثل قوله تعالى: ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [ص: ٢٦].

وأما المعنى الثانى فمثل قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ** ﴾ [فاطر: ٣٩].

لكن الملائكة كان عندهم علم سابق بأن هذا الجنس لن يكون كله مخلصاً لله ولا قائما بحق العبودية والتسبيح والتقديس له سبحانه.

علموا ذلك من اللوح المحفوظ، أو بإخبار الله لهم، أو بما رأوا من الساكنين فى الأرض قبل آدم. سواء أكانوا جناً أم مخلوقين آخرين.

لذلك قالوا متعجبين ومستفهمين ليعلموا حكمة الله فى خلق هذا النوع: ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟** ﴾ [البقرة: ٣٠] أى: ونحن ننزهك عن النقص، ونخضع لك؟

قال تعالى: ﴿ **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ فقد قدر أن هذا الجنس سيكون فيه رسل الله وأنبياؤه والصديقون والشهداء والصالحون، والكل يتفانى فى عبادة الله تعالى والخضوع له، مع إحاطة الفتن بهم، وفساد أكثر الناس من حولهم، وإعلان الحرب عليهم، وليس من يعبد بطبعه ولا فِتَنَ من حوله كالملائكة كمن يعبد وهو يجاهد نفسه الأمَّارة وجيوش الشياطين الفتانة، وجحافل الكافرين المدمرة.

ومؤمن واحد ينجو من هذه الفتن المتلاطمة، والجيوش الكافرة المعاندة هو أفضل عند الله من ملء الأرض من الكافرين والمضللين.

فهو نور يسطع إلى السماء ليشهد له جميع الملائكة المعنيين.

وهو شهادة بتوحيد الله فى الأرض تعلو جميع أفواج الكافرين والمنافقين وصدق الله القائل: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

كان هذا هو الرد القولى على قول الملائكة وهو: ﴿إِنِّى أَعْلَمُ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾.

وأما الرد العملى على قولهم فجاء عندما نفُخت فى آدم الروح.

فقد أمر الملائكة بالسجود له.

وعوقب من لم يسجد له عقاباً لامثيل له.

وعلَّم الله آدم الأسماء كلها: أسماء جميع الكائنات.

ثم أظهر الله هذه الكائنات أمام الملائكة وقال لهم: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِين﴾[البقرة: ٣١]، وعجز الملائكة عن ذكر هذه الأسماء وقالوا فى أدب جم: ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢] وقال الله تعالى: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣] ففعل.

فلما أنبأهم بأسمائهم قال الله تعالى لهم: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٣] وسيأتى قريباً التعريف بما أبدوه وبما كانوا يكتمونه. وهنا ملاحظات.

الأولى: أن السجود كان لآدم والطاعة كانت لله تعالى.

الثانية: أن السجود كان جائزاً للمخلوقين إلى عصر رسول الله ﷺ حيث مُنِع وحُرِّم، وهذا قول الأكثر كما قال الإمام القرطبى فى تفسيره، وقال: وهذا السجود المنهى عنه قد اتخذه جُهَّال المتصوفة عادة فى سماعهم (أى للأغانى) وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم، فترى الواحد منهم إذا أخذه الحال بزعمه يسجد لأقدام الجهلة سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالة منه. وضل سعيهم وخاب عملهم. اهـ صـ٢٥١.

الثالثة: القول الراجح أن إبليس كان من الجن ولم يكن من الملائكة، والخلاف فى ذلك معروف، ولا جدوى من وراء الانزلاق فيه فإنه قد لعنه

الله وغـضب عليه وطـرده من جنته إلى الأبد، وجـعله عَـدُوًّا لدوداً لبنى آدم، وحذَّرنا منه فى آيات كـثيرة فـيستـوى فى ذلك كونه من الجن أم من الملائكة، أم من نوع منهم كان يسـمى الجِنّ، كما يستوى كونه كـان رئيساً فى الملائكة، أم كان أكثـرهم علماً وعبادة واجتـهاداً، أم لم يكن كذلك، فقد سبق فيه القضاء، وليس بعد القضاء إلا الاعتبار وطلب النجاة من رب الأرض والسماء.

خَـلْق آدم

قال القرطبى: الصـحيح أن آدم مشتق من أديم الأرض؛ قال سـعيد بن جبـير: إنما سُـمِّى آدم لأنه خُلِق من أديم الأرض، وإنما سمى إنسـاناً لأنه نسى، ذكره ابن سعد فى الطبقات.

وروى السُّدِّى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس، وعن مرة الهمدانى عن ابن مـسعود فى قصة خلق آدم عليه السـلام قال: فبعث الله جبريل عليـه السلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها، فـقالت الأرض: أعوذ بالله منك أن تَنْقُصَ مـنى أو تَشِينَنى، فـرجع ولم يأخـذ وقال يارب إنهـا عاذت بك فأعذتها، فبعث ميكائيل فـعاذت منه فأعاذها؛ فرجع فقال كما قال جبـريل، فبعث الله ملك الموت فعاذت منه فـقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمـره، فأخذ من وجـه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحـد، وأخذ من تربـة حمـراء وبيـضاء وسـوداء فلذلك خـرج بنو آدم مختلفين - ولذلك سُمِّى آدم لأنه أُخِذ من أديم الأرض - فـصعد به فقال الله تعـالى له: «أما رحـمت الأرض حين تضـرَّعَتْ إليك» فقـال: رأيت أمـرَك أوجب من قولهـا، فـقال: أنت تصلـح لقبض أرواح ولده، فَـبَلَّ التراب حتى عاد طيناً لازباً، (واللازب: هو الذى يلتصق بعضه ببعض) ثم ترك حتى أنتن، فذلك حيث يقول: ﴿مِّنْ حَمَأٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:٢٨] قال: منتن، ثم قال للملائكة: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ

مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١: ٧٢] فخلقه الله بيده لكيلا يتكبر إبليس عنه يقول: أتتكبر عما عملت بيدى ولم أتكبر أنا عنه! فخلقه بشراً فكان جسداً من طين أربعين سنة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدهم منه فزعاً إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوِّت الجسد كما يصوت الفَخَّار تكون له صلصلة فذلك حين يقول: ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]. ويقول: لأمْرٍ ما خُلقْت! ودخل من فمه وخرج من دبره، فقال إبليس للملائكة: لاترهبوا من هذا فإنه أجوف ولئن سُلِّطت عليه لأُهلكنَّه؛ ويقال: إنه كان إذا مَرَّ عليه مع الملائكة يقول: أرأيتم هذا الذى لم تروا شيئاً من الخلائق يشبهه إن فُضِّل عليكم وأُمرتم بطاعته ما أنتم فاعلون؟ قالوا: نطيع أمر ربنا، فأسرَّ إبليس فى نفسه لئن فُضِّل علىَّ فلن أطيعه، ولئن فُضِّلْتُ عليه لأُهلكنه؛ فلما بلغ الحين الذى أريد أن ينفخ فيه الروح قال الله للملائكة: إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له؛ فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عطَس؛ فقالت له الملائكة: قل الحمد لله، فقال: الحمد لله، فقال الله له: رحمك ربك، فلما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن يبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة ذلك حين يقول: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٠-٣١]. وذكرالقصة.

وروى الترمذى عن أبى موسى الأشعرى قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحَزَن، والخبيث والطيب». قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح».

والظاهر من القصة السابقة لهذا الحديث أن الصحابة المذكورين فيها أخذوا ذلك من كتب بنى إسرائيل أو من علمائهم الذين أسلموا، وذلك لايمنع من التسليم بها. وقد اتفق حديث الترمذي معها فى أصلها. اهـ من القرطبى وابن كثير فى قصص الأنبياء له.

وقال الترمذى: حدثنا عبد بن حميد حدثنا أبو نعيم حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسَمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عينى كل إنسان منهم أيضاً وبيصًا (بريقـاً) من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أى رب. مَن هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً فأعجبه وبيصُ ما بين عينيه، فقال: أى رب. من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود، قال: رب وكم جعلت عمره؟ قال ستين سنة، قال: أى رب. زده من عمرى أربعين سنة. فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال: أو لم يبق من عمرى أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد فجحدت ذريته، ونسى آدم فنسيت ذريته، وخطىء آدم فخطئت ذريته» ثم قال الترمذى: حسن صحيح. وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ. ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث أبى نعيم الفضل بن دكين، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. اهـ من ابن كثير. هذا. ويقال إن الله تعالى أكمل لآدم ألف سنة ولم ينقص من داود شيئاً.

زوجة آدم

قال القرطبى: وزوج آدم عليه السلام هى حواء، وهو أول من سماها بذلك حين خُلقت من ضِلَعه من غير أن يحس آدم عليه السلام بذلك ولو أَلِمَ بذلك لم يَعطف رجل على امرأته؛ فلما انتبه قيل له: من هذه؟ قال: امرأة، قيل: وما اسمها؟ قال: حواء، قيل: ولم سميت امرأة؟ قال: لأنها

من المرء أُخذَت، قيل: ولم سميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من حى. رُوى أن الملائكة سألته عن ذلك لتجرب علمه وأنهم قالوا له: أتحبها يا آدم؟ قال: نعم، قالوا لحواء: أتحبينه يا حواء؟ قالت: لا، وفى قلبها أضعاف ما فى قلبه من حبه، قالوا: فلو صدقت امرأة فى حبها لزوجها لصدقت حواء. وقال ابن مسعود، وابن عباس: لما أُسكن آدم الجنة مشى فيها مستوحشاً فلما نام خُلقَتْ حواء من ضلَعه القُصرى من شقه الأيسر ليسكن إليها ويأنس بها، فلما انتبه رآها فقال: من أنت؟ قالت: امرأة خُلقتُ من ضلَعك لتسكن إلىَّ وهو معنى قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾ [الأعراف: ١٨٩].

قال العلماء: ولهذا كانت المرأة عوجاء لأنها خُلقت من أعوج وهو الضلع.

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المرأة خلقت من ضلع - فى رواية - وإن أعوج شىء فى الضِّلَع أعلاه لن تستقيم لك على طريقة واحدة فإن استمتعت بها استمتعت (بها) وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها.

وقال الشاعر:

هى الضِّلَع العوجاءُ لست تقيمها ... ألا أن تقويم الضلوع انكسارها

أتجمع ضعفاً واقتداراً على الفتى ... أليس عجيباً ضعفها واقتدارُها

ولما أسكن الله آدم وزوجه الجنة، أباح لهما أن يأكلا من كل ما فيها من ثمر ما عدا شجرة واحدة قال لهما عنها: ﴿**وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الأعراف: ١٩].

الشجرة المحرمة على آدم وزوجه

واختلف أهل التأويل فى تعيين هذه الشجرة التى نُهيا عنها فأكلا منها، فقال ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وجعدة بن هبيرة: هى

الكَرْم «العنب» ولذلك حرمت علينا الخمر.

وقال ابن عباس، وأبو مالك، وقتادة، هى السنبلة، والحبة منها (فى حجم كلية) البقرة. أحلى من العسل وألين من الزبد، قال وهب بن منبه؛ ولما تاب الله على آدم جعلها غذاء لبنيه.

وقال ابن جريج عن بعض الصحابة: هى شجرة التين. كذا رَوى سعيد عن قتادة.

قال ابن عطية: وليس فى شىء من هذا التعيين ما يَعْضُده (يقويه) من الأخبار وإنما الصواب أن يعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة فخالف هو إليها وعصى فى الأكل منها.

وقال القشيرى أبو نصر: وكان الإمام والدى رحمه الله يقول: يعلم على الجملة أنها كانت شجرة المحنة.

كيف أكلا من الشجرة؟

واختلفوا كيف أكلا منها مع الوعيد المقترن بالقرب وهو قوله تعالى: ﴿ **فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٩] فقال قوم: أكلا من غير التى أشير إليها فلم يتأولا (يفهما) النهى واقعاً على جميع جنسها، فإن إبليس غره بالظاهر؛ قال ابن العربى وهى أول معصية عصى الله بها على هذا القول. أى وقع العصيان بها من آدم عليه السلام.

وقال آخرون: تأولا النهى على الندب، قال ابن العربى: وهذا وإن كان مسألة من أصول الفقه فقد سقط ذلك ههنا لقوله تعالى: ﴿**فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الأعراف: ١٩] فقرن النهى بالوعيد، وكذلك قوله سبحانه: ﴿ **فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ** ﴾ [طه : ١١٧].

وقيل: أكلها ناسيا ومن الممكن أنهما نسيا الوعيد؛ وهو الصحيح لإخبار الله تعالى فى كتابه بذلك حتماً وجزماً فقال: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥]. لكن لما كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقظ لكثرة معارفهم وعُلُوِّ منازلهم ما لا يلزم غيرهم كان تشاغله عن تذكر النهى تضييعاً صار به عاصياً أى مخالفاً.

يقال: إن أول من أكل من الشجرة حواء بإغواء إبليس إياها، على ما يأتى بيانه وإن أول كلامه كان معها لأنها وسواس المِخَدَّة، وهى أول فتنة دخلت على الرجال من النساء؛ فقال لها: ما مُنِعْتُما هذه الشجرة إلا لأنها شجرة الخُلْدْ؛ لأنه علم منهما أنهما كانا يحبان الخلد، فأتاهما من حيث أحبا «وحُبُّك الشيءَ يُعمى ويُصِمّ». فلما قالت حواء لآدم أنكر عليها وذكرالعهد؛ فألح على حواء وألحت حواء على آدم إلى أن قالت: أنا آكل قبلك حتى إن أصابنى شىء سَلِمْتَ أنت؛ فأكلتْ فلم يضرها، فأتت آدم فقالت: كُلْ فإنى قد أكلت فلم يضرَّنى، فأكل فبدت لهما سوآتهما وحصلا فى حكم الذنب لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥] فجمعهما فى النهى، فلذلك لم تنزل بها العقوبة حتى وُجد المنهى عنه منهما جميعاً، وخفيت على آدم هذه المسألة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه: ١١٥]. وقيل: نسى قوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١١٧]. هذا. وإلصاق التهمة بحواء من الإسرائيليات التى لا دليل عليها، وكون أول فتنة فى بنى إسرائيل كانت بسبب النساء لايلزم منه أن تكون أول فتنة لآدم كانت بسبب حواء فلا دليل على اتهامها بذلك.

كيف أغواهما الشيطان؟

ولا خلاف بين أهل التأويل وغيرهم أن إبليس كان متولى إغواء آدم، واختلف فى الكيفية، فقال ابن مسعود، وابن عباس، وجمهور العلماء: أغواهما مشافهة، ودليل ذلك قوله سبحانه: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] والمقاسمة ظاهرها المشافهة.

وقال بعضهم، وذكره عبد الرزاق عن وهب بن منبه، دخل الجنة فى فم الحية وكانت ذات أربع كاليُخْتِيَّةَ (الناقة) من أحسن دابة خلقها الله تعالى بعد أن عرض نفسه علَى كثير من الحيوان، فلم يُدخله إلا الحية.

وقالت طائفة: إن إبليس لم يدخل الجنة إلى آدم بعدما أخرج منها وإنما أَغْوى بشيطانيته (أى بالقوة الشيطانية التى صارت فيه)، وسلطان وسواسه الذى أعطاه الله تعالى إياه كما قال ﷺ «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم». والله أعلم.

وجاء أنه لما أكل آدم بقى عرياناً وطلب ما يستتر به فتباعدت عنه الأشجار وبكَّتوه بالمعصية، فرحمته شجرة التين فأخذ من ورقه فاستتر به.

لِمَ أُخْرِج من الجنة؟

لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له؛ لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقَبِل توبته، ولا عقاب بعد قبول التوبة.

والصحيح فى إهباطه وسُكْناه فى الأرض ما قد ظهر من الحكمة الأزلية فى ذلك وهى نشر نسله فيها ليكلفهم الله ويمتحنهم، ويرتِّب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخروى. إذ الجنة والنار ليستا بدارى تكليف، فكانت تلك الأَكْلَة سبب إهباطه من الجنة، ولله أن يفعل ما يشاء. وقد قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وهذه منقبة عظيمة

وفضيلة كريمة شريفة، وقد تقدمت الإشارة إليها مع أنه خُلق من الأرض. وإنما قلنا إنما أهبطه بعد أن تاب عليه لقوله ثانية: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا﴾ اهـ من القرطبى وابن كثير.

تـوبـة آدم

قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

[البقرة: ٣٧].

قوله تعالى: ﴿تلقَّى﴾ قيل معناه: فَهِم وفَطِن، وقيل: قَبِلَ وأخذ، وكان عليه السلام يتلقى الوحى أى يستقبله، ويأخذه ويتلقفه. تقول: خرجنا نتلقى الحجيج: أى نستقبلهم.

واختلف أهل التأويل فى الكلمات. فقال ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، والضحاك، ومجاهد: هى قوله تعالى: ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وعن مجاهد أيضاً: سبحانك اللهم لا إله إلا أنت ربى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم». قال ابن عطية: هذا يقتضى أن آدم عليه السلام لم يقل شيئاً إلا الاستغفار المعهود.

وسئل بعض السلف عما ينبغى أن يقوله المذنب؛ فقال: يقول ما قال أبواه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]؛ وقال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [القصص: ١٦].

وقال يونس عليه السلام: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] اهـ من القرطبى.

كم مكث آدم فى الجنة؟

ذكر ابن كثير عن ابن عطية أن آدم مكث فى الجنة مائة عام، وقيل غير ذلك. ولم يرد دليل يعتمد عليه فى ذلك، وليس فى التحديد فائدة تعود على القارئ. والحديث الصحيح الذى رواه مسلم يدل على أن آدم خُلِق يوم الجمعة، وفيه أدخل الجنة. وفيه أخرج منها، وفيه تقوم الساعة.

وهذا الدليل الصحيح يبين لنا أن آدم عليه السلام خلقه الله تعالى خارج الجنة ثم أدخله الله فيها، وقيل: خلقه الله فى الجنة.

والخلاف فى خلق حواء كالخلاف فى خلق آدم عليه السلام.

وهل أُهْبِط آدم فى الهند وحواء فى جُدَّة وإبليس بدستميان وهل كان مع آدم الحجر الأسود أم لم يكن؟ أم أُنْزِل آدم بالصفا وحواء بالمروة؟ كلام فى ذلك كثير ليس له دليل يعتمد عليه، ولا أثر نفيد منه.

الخلاف فى جنة آدم

الخلاف الذى ذكروه فى أن هذه الجنة التى أُدخلها آدم: هل هى فى السماء أم فى الأرض، هو الخلاف الذى ينبغى فصله والخروج منه.

والجمهور على أنها هى التى فى السماء، وهى جنة المأوى لظاهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى: ﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة: ٣٥]، والألف واللام ليست للعموم ولا لمعهود لفظى، وإنما تعود على معهود ذهنى، وهو المستقر شرعاً من جنة المأوى وكقول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام: «علام أخرجتنا ونفسك من الجنة....؟» الحديث.

وروى مسلم فى صحيحه من حديث أبى مالك الأشجعى - واسمه سعد بن طارق - عن أبى حازم سلمة بن دينار، عن أبى هريرة، وأبى

مالك عن ربعى، عن حذيفة قالا: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تَزْلُفَ لهم الجنة. فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم؟» وذكر الحديث بطوله.

وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة فى الدلالة على أنها جنة المأوى، وليست تخلو عن نظر.

وقال آخرون: بل الجنة التى أُسكنها آدم لم تكن جنة الخلد لأنه كُلِّف فيها ألايأكل من تلك الشجرة، ولأنه أقام فيها وأُخرج منها، ودخل عليه إبليس فيها، وهذا مما ينافى أن تكون جنة المأوى.

وهذا القول محكى عن أُبَيِّ بن كعب، وعبد الله بن عباس، ووهب بن منبه، وسفيان بن عيينة، واختاره ابن قتيبة فى «المعارف»، والقاضى منذر ابن سعيد البلوطى فى تفسيره وأفرد له مصنَّفاً على حدة. وحكاه عن أبى حنيفة الإمام وأصحابه رحمهم الله.

ونقله أبو عبد الله محمد بن عمر الرازى بن خطيب الرى فى تفسيره عن أبى القاسم البلخى، وأبى مسلم الأصبهانى ونقله القرطبى فى تفسيره عن المعتزلة والقدرية.

وهذا القول هو نص التوراة التى بأيدى أهل الكتاب، وممن حكى الخلاف فى هذه المسألة أبو محمد بن حزم فى «الملل والنحل»، وأبو محمد ابن عطية فى تفسيره، وأبو عيسى الرمانى فى تفسيره، وحكى عن الجمهور الأول، وأبو القاسم الراغب، والقاضى الماوردى فى تفسيره فقال: واختلف فى الجنة التى أُسْكِنَاها - يعنى آدم وحواء - على قولين: أحدهما: أنها جنة الخلد. والثانى: أنها جنة أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء، وليست جنة الخلد التى جعلها دار جزاء.

ومن قال بهذا اختلفوا على قولين:

أحدهما: أنها فى السماء لأنه أهبطهما منها، وهذا قول الحسن.

والثانى: أنهـا فى الأرض لأنه امتحنهمـا فيها بالنهى عن الشـجرة التى نهى عنها دون غيرها من الثمار. وهذا قول ابن يحيى. وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم؛ والله أعلم بالصواب من ذلك.

هذا كلامــه فقد تضــمن كلامه حكاية أقــوال ثلاثة، وأشعر كــلامه أنه متوقف فى المسـألة. ولهذا حكى أبو عبد الله الرازى فى تفـسيره فى هذه المسـألة أربعة أقــوال: هذه الثلاثــة التى أوردها الماوردى ورابعهــا الوقف. وحكى القول بأنها فى السمــاء وليست جنة المأوى عن أبى يعلى الجبائى. والله أعلم. اهـ من ابن كثير باختصار.

استكبار إبليس وجزاؤه

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤].

هذا إكرام عظيم من الله تعالى لآدم عليه السلام حين خلقه بيده ونفخ فيه من روحه كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]، فهذه أربع تشريفات: خلْقه بيده الكريمة، ونفخُه من روحه، وأمْره الملائكة بالسجود له، وتعليمه أسماء الأشياء.

ولهذا قال موسى الكليم عليه السلام حين اجتمع هو وإياه فى الملأ الأعلى وتناظرا: «أنت أبو البشر الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء». وهكذا يقول أهل المحشر يوم القيامة.

وقال فى الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾

[الأعراف: ١١، ١٢].

قال الحسن البصرى: قاس إبليس وهو أول من قاس، وقال محمد بن سيرين: أول من قاس إبليس، وما عُبِدتَ الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس، رواهما ابن جرير.

ومعنى هذا أنه نظر إلى نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم، فرأى نفسه أشرف من آدم عليه السلام فامتنع من السجود له، مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود. والقياس إذا كان مقابَلاً بالنص كان فاسد

الاعتبار. ثم هو فاسد فى نفسه، فإن الطين أنفع وخير من النار، لأن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو، والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق.

ثم آدم شرفه الله تعالى بخلقه له بيده ونفخه فيه من روحه، ولهذا أمر الملائكة بالسجود له، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الحجر: ٢٨-٣٥]

استحق هذا من الله تعالى لأنه استلزم تنقُّصه لآدم وازدراؤه به وترفُّعه عليه مخالفة الأمر الإلهى، ومعاندة الحق فى النص على آدم عليه السلام على التعيين.

وشرع فى الاعتذار بما لايجدى عنه شيئاً. وكان اعتذاره أشد من ذنبه.

أولاد آدم عليه السلام

ذكر الإمام أبو جعفر ابن جرير فى تاريخه عن بعضهم: أن حواء ولدت لآدم عليه السلام أربعين ولداً فى عشرين بطناً. قاله ابن إسحاق وسماهم.

وقيل: مائة وعشرين بطنا فى كل واحد ذكر وأنثى، أولهم قابيل وأخته قليما، وآخرهم عبد المغيث وأخته أم المغيث (ولا دليل على العدد وما ذكر معه) ثم انتشر الناس بعد ذلك وكثروا، وامتدوا فى الأرض ونَمَوْا، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء: ١].

وقد ذكر أهل التاريخ أن آدم عليه السلام لم يَمُتْ حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعمائة ألف نسمة. . . والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٨٩ - ١٩٠]. الآيات.

فهذا تنبيه أولاً بذكر آدم ثم استطرد إلى الجنس. وليس المراد بهذا ذكر آدم وحواء. بل لمَّا جرى ذكر الشخص استطرد إلى الجنس كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ** ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٣].

وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ** ﴾ [الملك: ٥]. ومعلوم أن رجوم الشياطين ليست هى أعيان مصابيح السماء، وإنما استطرد من شخصها إلى جنسها.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن إبراهيم، حدثنا قتادة عن الحسن، عن سمرة، عن النبى ﷺ قال: لما وَلَدَتْ حواء طاف بها إبليس وكان لايعيش لها ولد، فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش. فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره».

وهكذا رواه الترمذى، وابن جرير، وابن أبى حاتم، وابن مردويه فى تفاسيرهم عند هذه الآية، وأخرجه الحاكم فى مستدركه، كلهم من حديث عبد الصمد بن عبد الوارث به، فقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الترمذى: حسن غريب لانعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه.

فهذه علة قادحة فى الحديث أنه روى موقوفاً على الصحابى وهذا

أشبه. والظاهر أنـه تلقاه من الإسرائيليات، وهكذا روى مـوقوفاً عن ابن عباس. والظاهر أن هذا متلقى عن كعب الأحبار وذويه: والله أعلم.

وقد فسَّـر الحسن البصرى هذه الآيات بخـلاف هذا، فلو كان عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه إلى غيره. والله أعلم.

وأيضا فالله تعالى إنما خلق آدم وحواء ليكونا أصل البشر، وليبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساء، فكيف كانت حـواء لايعيش لها ولد ذكر كما فى هذا الحديث إن كان محفوظاً؟!.

والمظنون بل المقطوع به أن رفعه إلى النبى ﷺ خـطأ، والصواب وقفه. والله أعلم.

ثم قـد كان آدم وحـواء أتقى لله مما ذُكر عنهـما فى هذا، فـإن آدم أبو البشـر الذى خلقه الله بيـده ونفخ فيه من روحـه، وأسجد له مـلائكته، وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه جنته.

وقال بعض العلماء فى قوله ﷺ: «فمررت بيوسف عليه السلام إذا هو قد أُعْطِىَ شطر الحُسْن».

قـالوا: معنـاه أنه كان على النـصف من حسن آدم علـيه السـلام وهذا مناسب، فإن الله خلق آدم وصوره بيده الكريمة، ونفخ فيه من روحه، فما كان ليخلق إلا أحسن الأشياء.

وقد روينا عن عبد الله بن عمرو، وابن عمر أيضاً موقوفاً ومرفوعاً: أن الله تعـالى لما خلق الجنة، قالت المـلائكة: ياربنا: اجعل لنا هذه، فـإنك خلقت لبنى آدم الدنيـا يأكلون منها ويشربون، فـقال الله تعـالى: وعزتى وجلالى لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان».

وقد ورد الحديث المروى فى الصـحيحين وغيـرهما من طرق أن رسول الله ﷺ قـال: «إن الله تعالى خلق آدم عليـه السلام على صـورته». أى على الصورة الجميلة التى كان عليـها، وقد تكلم العلماء على هذا الحديث فذكروا فيه مسالك كثيرة ليس هذا موضع بسطها. اهـ ملخصاً.

ذكر قصة ابني آدم قابيل وهابيل

قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧-٣١].

هذه الآيات ذكرت قصة ابنى آدم وما ترتب عليها من آثار وإليك ما ذكره أئمة السلف فى هذه القصة.

ذكر السدى عن أبى مالك وأبى صالح، عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة، أن آدم كان يُزوِّج ذكر كل بطن بأنثى البطن الآخر، وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل وأخت قابيل أحسن، فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى، فأمرهما أن يقربا قرباناً، وذهب آدم ليحج إلى مكة، واستحفظ السموات على بنيه فأبين، والأرضين فأبين، فتقبل قابيل بحفظ ذلك.

فلما ذهب قربا قربانهما، فقرب هابيل جذعة سمينة، وكان صاحب غنم، وقرب قابيل حزمة من زرع من ردىء زرعه، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فغضب وقال لأقتلنك حتى لاتنكح أختى، فقال: إنما يتقبل الله من المتقين.

وروى عن ابن عباس من وجوه أُخر، وعن عبد الله بن عمرو. وقال عبد الله بن عمرو: وايمُ الله إن كان المقتول لأشد الرجلين. ولكن منعه التحرج (أى الخوف من الله) أن يبسط إليه يده.

وذكر أبو جعفر الباقر أن آدم عليه السلام كان مباشراً لتقريبهما القربان والتقبل من هابيل دون قابيل، فقال قابيل لآدم: إنما تُقُبِّل منه لأنك دَعَوْتَ له ولم تَدْعُ لى، وتوعد أخاه فيما بينه وبينه.

وقوله لما توعده بالقتل: ﴿**لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾ [المائدة: ٢٨].

دل على خُلُق حسن، وخوف من الله تعالى وخشية منه، وتورُّع أن يقابل أخاه بالسوء الذى أراد منه أخوه مثله.

ولهذا ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار» قالوا: يارسول الله، هذا القاتل. فمابال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه».

وقوله: ﴿**إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ**﴾ [المائدة: ٢٩] أى إنى أريد من ترك مقاتلتك وإن كنتُ أشد منك وأقوى. أن تبوء بإثمى وإثمك (أى تتحمل إثم قتلى مع مالك من الآثام المتقدمة قبل ذلك) قاله مجاهد، والسدى، وابن جرير، وغير واحد.

وقوله تعالى: ﴿**فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ**﴾ [المائدة: ٣١] ذكر بعضهم أنه لما قتله حمله على ظهره سنة، ولم يزل كذلك حتى بعث الله غرابين. قال السدى بإسناده عن الصحابة: بعث الله غرابين أخوين، فتقاتلا فقتل أحدهما الآخر، فلما قتله عمد إلى

الأرض يحفر له فيـها ثم ألقاه ودفنه وواراه. فلما رآه يصنع ذلك ﴿**قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي**﴾ [المائدة: ٣١] ففعل مثل ما فعل الغراب فواراه ودفنه.

وقد جاء فى الحديث عن رسـول الله ﷺ أنه قال: «ما من ذنب أجدرُ أن يعجِّل الله عقوبته فى الدنيا مع مـا يُدَّخر لصاحبه فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم». والقتل أفظع قطيعة.

والذى فى التوراة أن آدم طاف على امـرأته فولدت غلاماً ودعت اسـمه «شـيث» وقالت: من أجل أنـه قد وُهِب لى خلَفًـا من هابيل الذى قـتله قابيل. ووُلِد لشيث «أنوش».

ومعنى «شيث» هبة الله. وسماه بذلك لأنهما رزقاه بعد أن قُتِل هابيل.

قال أبو ذر فى حـديثه عن رسـول الله ﷺ: «إن الله تعالى أنـزل مائة صحيفة وأربع صفحات، على شيـث خمسين صحيفة» رواه ابن حبان فى صحيحه.

قال محمـد بن إسحاق: ولما حضرت آدم عليه السـلام الوفاة عهد إلى ابنه شيث وعلـمه ساعـات الليل والنهار، وعلمـه عبادات تلك السـاعات وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك.

قال: ويقال: إن أنسـاب بنى آدم اليوم كلها تنتهـى إلى «شيث» وسائر أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا. . . والله أعلم.

وفـاة آدم عليه السلام

لما توفى آدم عليـه السلام - وكـان ذلك يوم الجمـعة - جـاءته الملائكة بحنوط وكفن، من عند الله عز وجل - من الجنة، وعَـزَّوْا فيه ابنه ووصيه شيثاً عليه السلام.

وقد قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا هُدبة بن خالد، حدثنا حماد ابن سلمة عن حميد، عن الحسن، عن يحيى - هو ابن ضمرة السعدى - قال: رأيت شيـخاً بالمدينة يتكلم فسألت عنه فـقالوا: هذا أبىّ بن كعب، فقال: إن آدم لما حـضره الموت قال لبنيه: أى بَنى.. إنى أشـتهى من ثمار الجنة. قـال: فذهبـوا يطلبون له. فـاستـقبلتـهم الملائكة ومعـهم أكفـانه وحنوطه، ومعـهم الفؤوس والمساحى والمكاتل، فقـالوا لهم: يابنى آدم ما تريدون وما تطلبون؟ - أو ما تريدون؟ وأين تطلبون؟- قالوا: أبونا مريض واشتهى مـن ثمار الجنة. فقالوا لهم: ارجـعوا فقد قُضِى أبـوكم. فجاءوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فـلاذت بآدم عليه السلام: فقال: إليكِ عنى فإنى إنما أوتيت من قِبلَك، فـخلِّى بينى وبين ملائكة ربى عـز وجل، فقبـضوه وَغَسَّلوه وكـفَّنوه وحَنَّطوه، وحفروا له ولحـدوه، وصَلَّوا عليه، ثم أدخلوه قبـره فوضـعوه فى قـبره، ثم حثـوا عليه، ثم قـالوا: يابنى آدم... هذه سنتكم (إسناد صحيـح إليه) واختلفوا فى موضع دفنه؛ فـالمشهور أنه دفن عند الجبل الذى أهبط فيه فى الهند، وقيل: بجبل أبى قبيس بمكة. ويقال: إن نوحـاً عليه السـلام لما كان زمن الطوفـان حمله هو وحـواء فى تابوت فدفنهما ببيت المقدس. حكى ذلك ابن جرير.

فلما مات آدم قام بأعباء الأمر بعـده ولدُه شيثٌ عليه السلام، وكان نبيًا بنص الحديث الذى رواه ابن حبان فى صحـيحه، عن أبى ذر مرفوعاً: أنه أُنزل عليه خمسون صحيفة.

فلما حانت وفاته أوصى إلى ابنه أنوش فقام بالأمر بعده، ثم بعده ولده

«قينان» ثم من بعده ابنه «مهلاييل». فلما مات قام بالأمر بعده ولده «يَرْد» فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ولده «خنوخ» وهو إدريس عليه السلام على المشهور.

إدريس عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٦-٥٧].

إدريس عليه السلام قد أثنى الله عليه ووصفه بالنبوة والصديقية، وهو «أخنوخ» هذا. وهو فى عمود نسب رسول الله ﷺ على ما ذكره غير واحد من علماء النسب.

وكان أول بنى آدم أُعطى النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام.

وذكر ابن إسحاق أنه أول من خط بالقلم. ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام أنه أول من تكلم فى ذلك.

وقوله تعالى: ﴿**ورفعناه مكانا عليا**﴾ كما ثبت فى الصحيحين فى حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مَرَّ به وهو فى السماء الرابعة.

وقد روى ابن جرير بسنده عن هلال بن يَساف قال: سأل ابن عباس كعباً وأنا حاضر فقال له: ما قول الله تعالى لإدريس: ﴿**ورفعناه مكانا عليا**﴾؟ فقال كعب: أما إدريس فإن الله أوحى إليه: إنى أرفع لك كل يوم مثل جميع عمل بنى آدم - أى من أهل زمانه - فأحب أن يزداد عملاً، فأتاه خليل له من الملائكة فقال: إن الله أوحى إلىَّ كذا وكذا فكلِّم ملك الموت حتى أزداد عملا، فحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء، فلما كان فى السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدراً، فكلم ملك الموت فى الذى كلمه فيه إدريس، فقال: وأين إدريس؟ قال: هو ذا على ظهرى، فقال ملك الموت: يا للعجب. بُعِثْتُ وقيل لى: اقبض روح إدريس فى

السماء الرابعة، فجعلت أقول: كيف أقبض روحه فى السماء الرابعة وهو فى الأرض؟! فقبض روحه هناك فذلك قول الله عز وجل: **﴿ورفعناه مكاناً عليا﴾**. ورواه ابن أبى حاتم عند تفسيرها. وعنده فقال لذلك الملك: سل ملك الموت كم بقى من عمرى؟ فسأله وهو معه. كم بقى من عمره، فقال: لم يبق إلا طرفة عين، فنظر الملك تحت جناحه إلى إدريس فإذا هو قد قبض وهو لايشعر. وهذا من الإسرائيليات، وفى بعضه نكارة. وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله: **﴿ورفعناه مكانا عليا﴾**. قال: إدريس رُفِعَ حياً إلى السماء ثم قُبض هناك. فلا ينافى ما تقدم عن كعب الأحبار. والله أعلم.

وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله: **﴿ورفعناه مكاناً عليا﴾** رفع إلى السماء السادسة، فمات بها، وهكذا قال الضحاك. والحديث المتفق عليه من أنه فى السماء الرابعة أصح، وهو قول مجاهد وغير واحد.

وقال الحسن البصرى: **﴿ورفعناه مكاناً عليا﴾** قال: إلى الجنة، وقال قائلون: رفع فى حياة أبيه «يرد بن مهلاييل». والله أعلم.

قصة نوح عليه السلام

نسبه: هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ - وهو إدريس - بن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم أبى البشر عليه السلام.

وكان بينه وبين آدم عليه السلام عشرة قرون كما قال الحافظ ابن حبان فى صحيحه بسنده عن أبى أمامة أن رجلاً قال: يارسول الله: أنبى كان آدم؟ قال: «نعم مكلم» قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال عشرة قرون.

قال ابن كثير: وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه.

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. فإن كان المراد بالقرن مائة سنة كما هو معروف عند كثير من الناس فإن المدة بينهما ألف سنة كان الناس فيها على الإسلام، ويحتاجون إلى زمن طويل ليتحولوا إلى عبادة الأصنام، وهذا الزمن قد يكون قرناً أو قروناً.

وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس فإن بين آدم ونوح آلاف السنين لأن أعمارهم كانت طويلة.

والمفهوم من قصة نوح عليه السلام أن الله تعالى لم يرسله إلى قومه إلا بعد أن عبدت الأصنام والطواغيت، وانحرف الناس إلى الضلال والكفر، فهو أول رسول أرسل إلى قومه، وكان قومه هم سكان الأرض فى وقته.

وقد اختلف المؤرخون فى مقدار سنه يوم بعث.

فقيل: كان ابن خمسين، وقيل: كان ابن ثلاثمائة وخمسين سنة، وقيل: كان ابن أربعمائة وثمانين سنة: ذكرها ابن جرير الطبرى.

والذى لاشك فيه هو أن نوحاً عليه السلام مكث يدعو قومه إلى توحيد الله تعالى وعبادته والخضوع لأمره ونهيه والتطهر من العقائد الفاسدة والأفكار الباطلة، والعادات المرذولة مدة حددها الله تعالى فى القرآن الكريم بألف سنة إلا خمسين عاما.

دعا نوح قومه بما أوتى من قوة حجة، وفصاحة لسان، وبلاغة بيان، وعقل راجح، وعمل صالح، وتواضع جليل، وخُلُق نبيل. ومع ذلك ما آمن معه إلا أقل القليل.

حاورهم بشتى الأساليب، وطالبهم بتحكيم عقولهم، والتخلص من أهوائهم وشهواتهم، والرجوع إلى الفطرة التى خلقهم الله عليها، والتحرر من العادات المرذولة، والتقاليد المشئومة، والتفكر فيما كان عليه آباؤهم وأجدادهم من عهد آدم إلى ما قبل زمانهم، وكان يتحين الفرص، وينوع فى الدعوة، ويتفنن فى طريقة العرض، ويراعى تغير الظروف، واختلاف المناسبات والأوقات.

فإن احتاجت الدعوة إلى الجهر بها جهر، وإن استدعت الإسرار أسر، وإن كان الليل مناسباً دعا ليلاً، وإن كان النهار أَوْلَى بالدعوة دعا نهاراً.

يتنزل بأسلوبه مع الصغير والجاهل والمغمور، ويسمو بفصاحته وبلاغته وقوة حجته مع ذوى العقول الكبيرة والثقافة العالية والمكانة المرموقة.

كل ذلك لم يفتح للحق قلوبهم، ولم يخلص من الرواسب الفاسدة عقولهم، ولم يكن ذا أثر طيب فى نفوسهم، بل كانوا من كثرة الدعايات ضد نوح ودعوته يصمون آذانهم حتى لاتسمع، ويغطون عيونهم حتى لاترى.

إن الشياطين لم تصرفهم عن الحق والنور والهدى فقط، ولكنها حرصت مع طول الزمن أن ترسب فى عقولهم أن ماهم عليه من الكفر والضلال والانحراف جاء نتيجة التطور والتقدم والبعد من عهد آدم

البدائى، وكل من يقول بغير ذلك كاذب أو جامد أو متأخر، فهو دون المستوى، وأقل من أن يأتى بما هو أهدى سبيلاً ولو كانت أقواله تساندها المعجزة ويشع منها النور، وينسبها الرسول إلى العلى العظيم، فقد رفضوا الرسالة والرسول، واحتقروا كل من اتبعه وأوصوا بذلك أبناءهم وكل مولود يفهم، وكل جيل ينشأ، وكان كبراؤهم عندهم أولى بالاتباع من رسولهم، ومن رسالة ربهم. فياللعار!!!.

اقرأ كل ما سبق فى قول نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ٥-١٢].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً﴾ [نوح: ٢١-٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾

[نوح: ٢٦-٢٧].

سبب عبادتهم الأصنام

إن عبادة الأصنام كانت بدعة ابتدعها قوم نوح فكفروا بسببها وصاروا من الأشقياء.

أما بداية هذه الأصنام فيذكرها ابن عباس كما روى البخارى عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]. حيث قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبَد حتى إذا هلك أولئك وَانْتُسِخَ العلم عُبِدَت.

وقال ابن جرير فى تفسيره: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن موسى، عن محمد بن قيس قال: كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يُعْبَدُون وبهم يُسْقَون المطر فعبدوهم.

وهكذا ينحط الفكر الإنسانى فى صلته بالله وعبادته له فيتخذ أحجاراً تنوب عن الله فيركع لها ويسجد، ويتضرع إليها ويبكى أمامها، فيلغى بذلك عقله، ويُسَخِّر إنسانيته تسخيراً ذليلاً للصور والأصنام، ويجعل هذه الأحجار شركاء لله فى عبادته فإذا جاءهم الرسول بنور الله وهدايته سخروا منه وبمن معه وقالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ واضح.

﴿وَمَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا﴾ لاتفضل عنا بشىء فلماذا نتبعك ونترك كبراءنا ورؤساءنا؟.

﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا (ضعفاؤنا) بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

وعلي مدى ألف سنة إلا خمسين أراهم نوح من الآيات ما لايحصى، وأروه من العناد والكفر والطغيان ما لايوصف، حتى قالوا له يوماً ساخرين

منه: ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

[هود: ٣٢-٣٤].

وأخيراً أوحى الله إلى نوح أن قومه لن يؤمن منهم أحد بعد القلة التى آمنت ﴿فَلا تَبْتَئِسْ (تحزن) بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ (السفينة الكبيرة) بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا (فالله يراك ويعلمك كيف تصنعها) وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٦ - ٣٧].

وكان هذا ردًّا على نوح واستجابة لدعوته على قومه بعد أن يئس منهم ومن إيمانهم وعبادتهم الله وحده دون شريك ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ (احكم) بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧-١١٨].

صنع السفينة وصفتها

عند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك، وهى السفينة العظيمة التى لم يكن لها نظير قبلها، وفى ذلك قال بعض علماء السلف: لما استجاب الله له أمره أن يغرس شجراً ليعمل منه السفينة فغرسه وانتظره مائة سنة، ثم نَجَره (نشره وأعده) فى مائة أخرى، وقيل: فى أربعين سنة.

وكانت من خشب الساج أو الصنوبر.

وكان طولها ثمانين ذراعاً، وقيل ثلثمائة ذراع فى عرض خمسين، كما فى التوراة.

وقال الحسن البصرى: كان طولها ستمائة ذراع فى عرض ثلثمائة.

وعن ابن عباس: طولها ألف ذراع وعرضها مائة ذراع.

وكلهم قالوا: كان ارتفاعها ثلاثين ذراعاً.

وكانت ثلاث طبقات: الطبقة السفلى للدواب والوحوش، والوسطى للناس، والعليا للطيور، وكان بابها فى عرضها، وكان لها غطاء من فوقها مطبق عليها، وكان قومه يسخرون منه بكل أنواع السخرية حين رأوه مشغولاً بصنع هذه السفينة العجيبة فى حجمها وطبقاتها، ويسألونه لمن تصنع هذه السفينة؟ ومن الذى علمك صنعتها؟ ولماذا تصنعها فى البر وهى لاتسير إلا فى البحر؟ فيرد عليهم قائلاً: إن تسخروا منا لعدم فهمكم المراد فإننا نسخر منكم كما تسخرون لعلمنا بما سيكون.

وقد أجاد نوح عليه السلام صنع السفينة كما علمه الله، وكما أوحى إليه حتى صارت فى زمنها آية ناطقة ومعجزة باهرة يُعجب بها كل من يراها، وتملك الدهشة كل من يسمع عنها، إذ كيف يقوم رجل واحد بنشر عشرات الأطنان من الخشب، وإقامة هذا الصرح العظيم بكل ما يحتاجه من مسامير وحشو وزفت، وفن، ودقة صنع؟ وصدق الله القائل: ﴿**عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ [العلق: ٥].

أوامر إلهية خاصة بنجاة الفئة الربانية

أوحى الله تعالى إلى نوح أنه إذا جاء أمره وحلَّت عليهم نقمته بإغراقهم، وتطهير الأرض من شركهم وكفرهم فعليه حينئذ أن يحمل من كل ما فيه الحياة زوجين اثنين ويشمل ذلك الحيوانات والوحوش والطيور وغيرها، كما يحمل معه المؤمنين وإن كانوا قليلين لتبدأ بهم الحياة الإيمانية الصالحة من جديد.

وبيَّن الله له أن علامة نزول أمره ونقمته أن يفور التَّنُّور بالماء، والمراد به وجه الأرض، أى إذا نبع الماء من جميع أرجائها، ونزل من السماء من

جميع آفاقها، فاركب السفينة واحمل فيها من ذُكر، كما قال تعالى: **﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴿١١﴾ وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴿١٢﴾ وحملناه على ذات ألواح ودسر ﴿١٣﴾ تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر﴾** [القمر: ١١-١٤].

وكان عدد المؤمنين حينئذ كما ذكر ابن عباس ثمانين نفساً معهم نساؤهم، وقيل: كانوا أقل من ذلك. فالله أعلم.

وأما امرأة نوح وهى أم أولاده كلهم وهم: حام، وسام، ويافث، وعابر، ويام، ويسميه أهل الكتاب (كنعان) وهو الذى غرق، فقد ماتت قبل الطوفان، وقيل: إنها غرقت مع من غرق، وكانت ممن سبق عليه القول لكفرها.

وعند أهل الكتاب أنها كانت فى السفينة، فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك، أو أنها أنظرت ليوم القيامة. والظاهر الأول لقوله تعالى: **﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا﴾** [نوح: ٢٦].

قال الله تعالى: **﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين ﴿٢٨﴾ وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين﴾** [المؤمنون: ٢٨-٢٩].

أمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة، فنجاه بها وفتح بينه وبين قومه، وأقر عينه ممن خالفه وكذبه.

وقد امتثل نوح عليه السلام لهذه الوصية: **﴿وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها** (سيرها) **ومرساها** (وقوفها) **إن ربي لغفور رحيم﴾**[هود: ٤١].

وقال تعالى: **﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾**[هود: ٤٢]. وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطراً لم تعهده الأرض قبله ولاتمطره بعده،

كان كأفواه القرب، وأمر الأرض فتفجّرت المياه من جميع فجاجها وسائر أرجائها كما قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٠-١٤].

قال جماعة من المفسرين: ارتفع الماء على أعلى جبل فى الأرض خمسة عشر ذراعاً، وهو الذى عند أهل الكتاب. وقيل: ثمانين ذراعاً، وعم جميع الأرض طولها والعرض، سهلها وحزنها، جبالها وقفارها ورمالها، ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف ولاصغير ولا كبير.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢ -٤٣].

وهذا الابن هو «يام» أخو «سام»، و«حام»، و«يافث» وقيل: اسمه «كنعان» وكان كافراً عمل عملاً غير صالح، فخالف أباه فى دينه فهلك مع من هلك. هذا؛ وقد نجا مع أبيه الأجانب فى النسب. لمّا كانوا موافقين فى الدين والمذهب.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

أى لما فرغ من أهل الأرض ولم يبق بها أحد ممن عبد غير الله عز وجل، أمر الله الأرض أن تبتلع ماءها، وأمر السماء أن تقلع أى تمسك عن المطر، «**وغيض الماء**» أى نقص عما كان «**وقضى الأمر**» أى وقع بهم الذى كان قد سبق فى علمه وقدره، من إحلاله بهم ما حل بهم.

﴿وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤] أى نودى عليهم بلسان القدرة: بعداً لهم من الرحمة والمغفرة.

ثم ذكر الله تعالى مناشدة نوح ربه فى ولده، وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف.

ووجه السؤال: أنك وعدتنى بنجاة أهلى معى وهو منهم وقد غرق؟.

فأجيب بأنه «ليس من أهلك» الذين وعدت بنجاتهم. أى إنا قلنا لك ﴿وأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بأنه سيغرق بكفره، ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حصن أهل الإيمان، فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان.

ثم قال تعالى: ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

هذا أمر لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض، وأمكن السعى فيها والاستقرار عليها، أن يهبط من السفينة التى كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل «الجودى» وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور «بسلام منا وبركات» أى اهبط سالماً مباركاً عليك. وعلى أمم ممن سيولد بعد من أولادك، فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلا ولا عقباً سوى نوح عليه السلام. ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾[الصافات: ٧٧] فكل مَن على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بنى آدم ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم: سام، وحام، ويافث.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد بن قتادة، عن الحسن، عن سمُرة أن النبى ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم».

ورواه عن الحسن، عن سمرة مرفوعاً نحوه.

وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: وقد رُوى عن عمران بن حصين عن النبى ﷺ مثله قال: والمراد بالروم هنا: الروم الأُوَل وهم اليونان المنتسبون إلى رومى بن لبطى بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام.

وقد قيل: إن نوحاً عليه السلام لم يولد له من هؤلاء الثلاثة الأولاد إلا بعد الطوفان، وإنما ولد له قبل السفينة «كنعان» الذى غرق، و«عابر» مات قبل الطوفان.

والصحيح أن الأولاد الثلاثة كانوا معه فى السفينة هم ونساؤهم وأمهم وهو نص التوراة.

وقال قتادة وغيره: ركبوا فى السفينة مائة وخمسين يوماً، واستقرت بهم على الجودى شهراً، وكان خروجهم من السفينة فى يوم عاشوراء من المحرم.

وقد روى ابن جرير خبراً مرفوعاً يوافق هذا، وأنهم صاموا يومهم ذلك.

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «مرَّ النبى ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء، فقال: ما هذا الصوم؟ فقالوا: هذا اليوم الذى نَجَّى الله فيه موسى وبنى إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون، وهذا اليوم الذى استوت فيه السفينة على الْجُودِيِّ، فصامه نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله عز وجل، فقال النبى ﷺ: «أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم» وقال لأصحابه: «من كان منكم أصبح صائما فليتم صومه، ومن كان منكم قد أصاب من غداء أهله فليتم بقية يومه».

وهذا الحديث له شاهد فى الصحيح من وجه آخر، والمستغرب ذكر نوح أيضاً فيه.

وقـد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسـل الرحمن مع مـا تواتر عند الناس فى سائر الأزمان، على وقوع الطوفان، وأنه عم جميع البلاد، ولم يبق الله تعالى أحداً من كفـرة العباد، استجابة لدعوة نبـيه المؤيد المعصوم وتنفيذاً لما سبق فى القدر المحتوم.

وقد استجـاب لأمر الله تعالى ووحيه، وجمع المؤمنـين من حوله، كما جمع الوحوش وجميع الحيوانات والطيـور التى قرر أن يحملها معه انتظاراً لساعة الخلاص والفراق، وهلاك الكافرين.

عمر نوح عليه السلام وموته وقبره

إن نوحاً عليه السلام مكث فى قومه بعد البعثة وقبل الطوفان ألف سنة إلا خمـسين عاماً فـأخذهم الطوفان وهم ظالمون. ثـم الله أعلم كم عاش بعد ذلك.

وأما قبره عليه السلام: فروى ابن جرير، والأرزقى عن عبد الرحمن بن سابط أو غيره من التابعين مرسلاً أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام.

وهذا أقـوى وأثبت من الذى يذكـره كثـير من المتـأخـرين من أنه ببلدة بالبقـاع تعرف اليـوم «بكرك نوح» وهناك جامع قد بنـى بسبب ذلك فيـما ذكر. والله أعلم.

قصة هود عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٢٧].

سيدنا هود هو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام.

ويقال: هود بن عبد الله بن رباح بن الجارود بن عاد بن عوص بن إرم ابن سام بن نوح عليه السلام. ذكره ابن جرير.

وقبيلته هي قبيلة عاد بن عوص بن سام بن نوح، وكانوا عرباً يسكنون الأحقاف [وهي جبال الرمل وكانت باليمن بين عُمان وحَضرَمَوْت بأرض مطلة على البحر يقال لها: الشحر]، واسم واديهم مغيث، وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٦، ٧]. أى عاد إرم، وهم عاد الأولى، وأما عاد الثانية فمتأخرة كما سيأتى بيان ذلك فى موضعه، وأما عاد الأولى فهم عاد ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾ [الفجر: ٧، ٨]. أى مثل القبيلة، وقيل: مثل: العمد. والصحيح الأول.

وفى صحيح ابن حبان عن أبى ذر فى حديثه الطويل فى ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه: منهم أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر.

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام العرب العاربة وهم قبائل كثيرة منهم عاد، وثمود، وجرهم، وطسم، وجديس، وأميم،

ومدين، وعملاق وغيرهم.

وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام وكان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة، وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم ولكن أنطقه الله بها فى غاية الفصاحة والبيان، وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله ﷺ.

والمقصود: أن عاداً، وهم عاد الأولى كانوا طوالاً أشداء أقوياء، وكانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان. ويحتاج الأمر إلى شرح فنقول: إن الذين نجوا مع نوح عليه السلام، ورأوا من آيات الله تعالى وقدرته وعظمته مايزيدهم إيماناً مع إيمانهم، ويعمق الشعور بفضل الله عليهم، لاشك أنهم عبدوا الله تعالى وحده فيما بقى من أعمارهم، وأوصوا بذلك أولادهم وأحفادهم، وقصوا عليهم نبأ الذين أغرقوا فأدخلوا نارا، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً، وطالبوهم بالحرص على التوحيد فى العقيدة والعبادة وحذروهم من التبعية للشيطان أو الركون إلى الشهوة والهوى والنفس الأمارة، لاشك أن ذلك كله قد كان لأنه من ثمرات ومقتضيات الإيمان.

ولكن ياحسرة على الإنسان، ويا أسفاه على أولاد آدم عليه السلام!!! إنهم أكثرهم لهم قلوب لاتفقه، وعقول لاتتحرر، وشهوات غالبة، وأهواء مسيطرة، لذلك وجد فيهم الشيطان طلبته، ونفذ فيهم رغبته، فقادهم إلى السقوط من درجة الإنسانية الرفيعة المؤمنة بالله، والموحدة له، والمخلصة فى عبادته والخضوع لأمره ونهيه، وأوقفهم أذلة راكعين أمام حجر منصوب، وصنم مصنوع، وقال لهم: هذه آلهتكم فاعبدوها، واتركوا عبادة الله، أو اجعلوها شريكة له فى العبادة، واسمعوا لسدنتها وأطيعوا، ولا تبرموا أمراً دونها، وحاربوا كل من يصدكم عنها، ولاتسمعوا

للناصحين، ولو قالوا إنهم رسل الله.

درج على ذلك الآباء، وقلدهم من بعدهم الأبناء، وصار ذلك عندهم ديناً يدافعون عنه بأموالهم وأولادهم وأرواحهم،

ولو كانوا يؤمنون بدين الله الحق ما دافعوا عنه كما دافعوا دفاعاً مستميتاً عن أصنامهم وكفرهم وضلالهم.

وإنها الطبيعة البشرية الصالحة للشيء وضده.

فمن البشر رسل وأنبياء هم قمة السمو الإنسانى، ومنهم مردة حمقى أغبياء هم سبة فى جبين البشرية، وصورة للانحطاط الشيطانى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩] وكما ضل أولاد آدم الأول بمرور الزمن وتقادم العهد، فإن أولاد آدم الثانى «نوح» فعلوا كما فعل السابقون، فضلوا وكفروا وعاندوا، وسدوا جميع منافذ التبصر والتفكر حين جاءهم رسول منهم يأخذ بأيديهم إلى سعادة الأبد لينقذهم من شقاء الأبد. تعال معى واقرأ قصتهم من أولها إلى آخرها.

فقد بعث الله فيهم أخاهم هوداً عليه السلام فدعاهم إلى الله كما قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥-٦٩].

أى جعلهم أشد أهل زمانهم فى الخِلقة والشدة والبطش.

والمقصود: أن عاداً كانوا عرباً جفاة كافرين عتاة متمردين بسبب عبادة الأصنام، فأرسل الله فيهم رجلا منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له، فكذبوه وخالفوه وتنقصوه واتهموه بالسفاهة والكذب والافتراء على الله، وهو مع هذا فى غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم، لايبتغى منهم أجراً، ولايطلب منهم جُعْلاً بل هو مخلص لله عز وجل فى الدعوة إليه والنصح لخلقه لايطلب أجره إلا من الذى أرسله فإن خير الدنيا والآخرة كله فى يديه، وأمره إليه، ولهذا قال: ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١] فكان ردهم أن قالوا: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٣-٥٤] والمعنى: ما جئتنا بخارق يشهد لك بصدق ما جئت به وما نحن بالذين نترك عبادة أصنامنا لمجرد قولك بلا دليل أقمته ولا برهان نصبته، وما نظن إلا أنك مجنون فيما تزعمه ونرى أن ما أصابك سببه أن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك فى عقلك فاعتراك جنون بسبب ذلك. ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤-٥٥]. وهذا تَحدٍّ منه لهم وتبرؤ من آلهتهم وتنقص منه لها وبيان أنها لاتنفع شيئاً ولاتضر وأنها جماد حكمها حكمُه وفعلها فعلُه. فإن كانت كما تزعمون من أنها تنصر وتنفع وتضر فأنا برئ منها لاَعِنٌ لها ﴿فكيدُونى جَميعاً ثم لاتُنْظِرون﴾ بل افعلوا جميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه، وتقدروا عليه، ولا تؤخرونى ساعة واحدة، ولاطرفة عين، فإنى لا أبالى بكم، ولا أفكر فيكم ولا أنظر إليكم ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦]. فأنا واثق بجناب الله الذى لايضيع من لاذ به

واستند إليه، فلست أبالى بأحد سـواه، ولست أتوكل إلا عليه، ولا أعبد إلا إياه.

وهذا وحده برهان قـاطع على أن هوداً عبدُ اللـه ورسوله، وأنهم على جهل وضلال فى عبادتهم غـير الله؛ لأنهم لم يصلوا إليه بسوء، ولا نالوا منه مكروها، فـدل على صدقه فـيمـا جاءهم به، وبطلان ما هـم عليه، وفساد ما ذهبوا إليه.

وكانوا مع عبادتهم غيـر الله ينكرون البعث والجزاء فى الآخرة بالجنة أو النار.

قال تعـالى: **﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾**

[المؤمنون: ٣٣ - ٣٧]

استبعـدوا أن يبعث الله رسولاً بشرياً. وهذه الشبهة أدلى بهـا كثير من جهلة الكفرة قـديماً وحديثاً كمـا قال تعالى: **﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾** [الإسراء: ٩٤-٩٥] واسـتبعدوا المعاد، وأنـكروا قيام الأجسـاد بعد صيـرورتها تراباً وعظاماً، وقالوا: «**هيهات هيهات**» أى بعيد بعـيد هذا الوعد **﴿إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾**. أى يموت قوم ويحيا آخرون، ولا بعث ولا حساب ولا جزاء، وهذا هو اعتـقاد الدَّهرية كما يقول بعض الجهلة من الزنادقـة: أرحام تدفع وأرض تبلع، ولا بعث ولا حـساب ولا جزاء.

وكان فيما وعظهم به هود عليه السلام قوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٢٩].

أى أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عظيماً هائلاً كالقصور ونحوها تعبثون ببنائها لأنه لاحاجة لكم فيه، وماذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾ [الفجر: ٦-٨]. فعاد إرم هم عاد الأولى الذين يسكنون الأعمدة التى تحمل الخيام.

وقوله: ﴿وتتخذون مصانع﴾ قيل: هى القصور، وقيل: بروج الحمام، وقيل: مآخذ الماء ﴿لعلكم تَخْلُدُونَ﴾ أى رجاء منكم أن تُعَمِّروا فى هذه الدار أعماراً طويلة ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (فنحن تابعون لهم) (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠-١٣٨]. أما علي قراءة فتح الخاء فالمراد به اختلاق الأولين أى ليس هذا الذى جئت به إلا اختلاقاً منك، أخذته من كتب الأولين.

هكذا فسره غير واحد من الصحابة والتابعين. وأما قراءة ضم الخاء واللام فالمراد به الدين. أى ليس هذا الدين الذى نحن عليه إلا دين الآباء والأجداد من أسلافنا ولن نتحول عنه ولن نتغير ولا نزال متمسكين به.

فقال لهم: قد حق عليكم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله، أتعارضون عبادة الله وحده لاشريك له بعبادة أصنام أنتم نحتموها، وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم، واصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم، لم ينزل الله على ما ذهبتم إليه دليلاً ولابرهاناً؟ فإذا أبيتم قبول الحق وتماديتم فى الباطل فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم وبأسه الذى لايرد ونكاله الذى لايصد.

قال تعالى: ﴿ **قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾

[المؤمنون: ٣٩-٤١].

وقال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ** ﴾

[الأحقاف: ٢٤ - ٢٥].

وأما تفصيل إهلاكهم فهو كما قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ وكان هذا أول ما ابتدأهم العذاب أنهم كانوا ممحلين محرومين من المطر الذى يحيى الله به الأرض بعد موتها، فطلبوا السُّقيا، فرأوا سحاباً عارضاً فى السماء، وظنوه سقيا رحمة فإذا هو سقيا عذاب، ولهذا قال تعالى: ﴿ **بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ** ﴾ أى من وقوع العذاب.

وقد ذكر المفسرون وغيرهم هاهنا الخبر الذى ذكره الإمام محمد بن إسحاق بن بشار. قال: فلما أبَوْا إلا الكفر بالله عز وجل أمسك عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك قال: وكان الناس إذا جهدهم أمر فى ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه إنما يطلبونه بِحَرَمِه ومكان بيته الحرام وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان، وبه العماليق مقيمون، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح. وكان سيدُهم إذ ذاك رجلا يقال له معاوية بن بكر، وكانت أمه من قوم عاد، واسمها جلهدة ابنة الخيبرى قال: فبعثت عاد وفداً قريباً من سبعين رجلاً ليستَقُوا لهم عند الحرم، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة، فنزلوا عليه، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر يغنيهم الجرادتان - وهما قينتان لمعاوية - وكانوا قد وصلوا إليه فى

شهر، فلما طال مُقامهم عنده، وأخذته شفقة على قومه، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف، عمل شِعراً يُعرِّض لهم بالانصراف، وأمر القينتين أن تغنياهم به.

فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له، فنهضوا إلى الحرم، ودعوا لقومهم، فدعا داعيهم وهو «قيل بن عنز» فأنشأ الله ثلاث سحابات بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء: اختر لنفسك ولقومك من هذا السحاب فقال: اخترت السحابة السوداء، فإنها أكثر السحاب ماء، فناداه: اخترت رَماداً رمدداً لاتبقى من عاد أحداً، ولا والداً يترك ولا ولدًا إلا جعلته همداً، إلا بنى اللودية الهمدا. قال: وهو بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة فلم يصبهم ما أصاب قومهم. قال: ومن بقى من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة. قال: وساق الله السحابة السوداء التى اختارها «قيل بن عنز» بما فيها من النقمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من واد يقال له: «المغيث» فلما رأوها استبشروا وقالوا: هذا عارض ممطرنا. فيقول تعالى: ﴿ **بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا** ﴾. أى كل شىء أمرت به، فكان أول من أبصر ما فيها وَعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها «فهد» فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صُعِقَتْ، فلما أفاقت قالوا: ما رأيت يافهد؟ قالت: رأيت ريحاً فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها، فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً. والحسوم: الدائمة - فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك. واعتزل هود عليه السلام فيما ذكر لى فى حظيرة هو ومَن معه من المؤمنين ما يصيبهم إلا ما يُلِين عليهم الجلود، وتلتذ الأنفس، وإنها لتمر على عاد بالطعن فيما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة، وذكر تمام القصة.

وقد يكون هذا السياق لإهلاك عاد الآخرة التى جاءت بعد ذلك فإن فيما ذكره ابن إسحاق وغيره ذِكرٌ لِمكة ولم تُبْنَ إلا بعد إبراهيم الخليل حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل فنزلت جرهم عندهم كما سيأتى،

وعاد الأولى قبل الخليل وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره، وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى ولايشبه كلام المتقدمين. وفيه أن فى تلك السحابة شرر نار، وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر. وقد قال ابن مسعود، وابن عباس، وغير واحد من أئمة التابعين هى الباردة، والعاتية: الشديدة الهبوب ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ أى كوامل متتابعات.

قيل: كان أولها الجمعة. وقيل: الأربعاء ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧]. شبههم بأعجاز النخل التى لارؤوس لها وذلك لأن الريح كانت تجىء إلى أحدهم فتحمله فترفعه فى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس كما قال تعالى: ﴿ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر: ٢٠]. ومن قال: إن اليوم النحس المستمر هو يوم الأربعاء وتشاءم به لهذا الفهم فقد أخطأ وخالف القرآن فإنه قال فى الآية الأخرى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت: ١٧]. ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات، فلو كانت نحسات فى أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشئومة، وهذا لايقوله أحد، وإنما المراد: فى أيام نحسات عليهم. قال تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ [الذاريات: ٤١]. أى التى لاتنتج خيراً فإن الريح المفردة لاتنثر سحاباً ولاتلقح شجراً بل هى عقيم لانتيجة خير لها، ولهذا قال: ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات: ٤٢]. أى كالشىء البالى الفانى الذى لاينتفع به بالكلية.

وأما قوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ فإن عاداً لما رأوا هذا العارض وهو الناشىء فى الجو كالسحاب ظنوه سحاباً ممطراً إذا هو سحاب عذاب، اعتقدوه رحمة فإذا هو نقمة، رجوا فيه الخير فنالوا منه غاية الشر. قال الله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ﴾ أى من

العذاب ثم فسره بقوله: ﴿ريح فيها عذاب أليم﴾ يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوب التى استمرت عليهم سبع ليال بأيامها الثمانية، فلم تبق منهم أحداً، بل تَتَبَّعتْهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال. والغيران فتلفهم وتخرجهم وتهلكهم وتدمر عليهم البيوت المحكمة. والقصور المشيدة، فكما مَنُّوا بقوتهم وشدتهم قالوا: من أشد منا قوة. سلط الله عليهم ما هو أشد منهم قوة وأقدر عليهم وهو الريح العقيم. ويحتمل أن هذه الريح أثارت فى آخر الأمر سحابة ظن من بقى منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم وغياث لمن بقى منهم فأرسلها الله عليهم شرراً وناراً كما ذكره غير واحد. ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظُّلة من أهل مدين وجمع لهم بين الريح الباردة وعذاب النار، وهو أشد ما يكون من العذاب؛ لأنه بالأشياء المختلفة المتضادة، مع الصيحة التى ذكرها فى سورة ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ والله أعلم. اهـ من ابن كثير مختصراً.

قصة صالح عليه السلام

مع قومه «ثمود»

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣].

ثمود قبيلة مشهورة سموا باسم جدهم ثمود أخى جديس، وثمود وجديس ابنا عاثر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام.

وكانوا عرباً من العاربة يسكنون الحِجر الذى بين الحجاز وتبوك شمال الجزيرة العربية. وقد مرَّ بمساكنهم رسولُ الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين فى السنةالتاسعة من الهجرة.

وكانوا بعد قوم هود، وكانوا يعبدون الأصنام مثلهم فبعث الله فيهم رجلا منهم، وهو عبد الله ورسوله «صالح» بن عبيد بن ماسح بن عبيد ابن حادر بن ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح فدعاهم إلى عبادة الله وحده لاشريك له، وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ولا يشركوا به شيئاً. فآمنت به طائفة منهم، وكفر جمهورهم، ونالوا منه بالمقال والفِعال، وهموا بقتله، وقتلوا الناقة التى جعلها الله حجة عليهم، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وقد كانوا بعد عاد، ولم يعتبروا بما كان من أمرهم. ولهذا قال لهم نبيهم عليه السلام: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]. أى إنما جعلكم الله خلفاء من بعدهم لتعتبروا بما كان من أمرهم، وتعملوا بخلاف عملهم. وأباح لكم هذه الأرض تبنون فى سهولها القصور ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً

فارهين﴾ (حاذقين فى صنعتها وإتقانها وإحكامها) فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح والعبادة له وحده لاشريك له، وإياكم ومخالفته والعدولَ عن طاعته، فإن عاقبة ذلك وخيمة. ووعظهم بقوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٤٨] أى متراكم كثير حسن بهى ناضج ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٩-١٥٢]. وقال لهم أيضاً: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. أى هو الذى خلقكم فأنشأكم من الأرض وجعلكم عمارها، أى أعطاكموها بما فيها من الزروع، والثمار، فهو الخالق الرزاق، وهوالذى يستحق العبادة وحده لا ماسواه ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[هود: ٦١].

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا﴾[هود: ٦٢] أى قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملاً قبل هذه المقالة، وهى دعاؤك إيانا إلى إفراد الله بالعبادة، وترك ما نعبده من الشركاء والأنداد، والعدول عن دين الآباء والأجداد، ولهذا قالوا: ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ (أخبرونى) إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ (حجة قوية) مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً (رسالة) فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣] أى إن تبعتكم وتركت نصحكم وإخراجكم مما أنتم فيه. وهذا تلطف منه لهم فى العبارة ولين فى الجانب، وحسن تصرف فى الدعوة لهم إلى الخير. ثم ازدادوا فى الإفك والطغيان والزور والبهتان، فاتهموه بأنه مسحور اختلطت عليه الأمور فلا يدرى ما يقول، ولايدعو

إلى شيء معقول، ثم ازدادوا استهزاء به وسخرية منه وتحدياً له فقالوا: ﴿**مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ [الشعراء: ١٥٤].

وقد ذكر المفسرون أن ثموداً اجتمعوا يوماً فى ناديهم فجاءهم رسول الله صالح عليه السلام فدعـاهم إلى الله، وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم فقـالوا له: إن كنت صـادقًا فـأخرج لنا من هذه الصـخرة -وأشـاروا إلى صخـرة هناك - ناقة من صفـتهـا كيت وكيت، وذكـروا أوصافاً سـموها وتعنتوا فـيها وأن تكون هذه الناقة عـشراء طويلة. فقـال لهم النبى صالح عليه السـلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى مـا سألتم على الوجـه الذى طلبتم، أتؤمنون بما جـئتكم به وتصـدقـونى فيـما أُرسلت به؟ قـالوا: نعم فأخـذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك. ثم قـام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل ما قُدَّر له، ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا. فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنـفطر (تنشق) عن ناقة عظيمة عـشراء على الوجه الذى طلبوا، وعلى الصفة التى ذكروا.

فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيـما ومنظراً هائلاً وقدرة باهرة، ودليلاً قاطعـاً وبرهاناً ساطعـاً فآمن كثـير منهم، واستـمر أكـثرهم على كـفرهم وضلالهم وعنادهم. ولهذا قال: ﴿**فظلموا بها**﴾ أى جحدوا بها ولـم يتبعوا الحق بسببها، أى أكثرهم. وكان رئيس الذين آمنوا يسمى: جندع بن عمرو ابن محـلاة بن لبيـد بن جواس وكان من رؤسـائهم، وهَمَّ بقيـة الأشراف بالإسلام، فصـدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد، والحـباب صاحب أوثانهم، ورباب بن صِعر بن جلمس، ودعا جندعٌ ابنَ عمـه شهابَ بن خليفة وكان من أشرافـهم. فَهَمَّ بـالإسلام فنهاه أولـئك فمال إليـهم وظل على كـفره وضلاله.

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام: ﴿**هَذِه نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً**﴾ أضافها لله سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتعظيم، كقوله بيت الله، وعبد الله ﴿**لَكُمْ آيَةً**﴾ أى دليلاً على صـدق ما جـئتكم به ﴿**وَيَا قَـوْمِ هَذِهِ نَاقَـةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً**

فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾

[هود: ٦٤].

فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم، ترعى حيث شاءت من أرضهم، وترِد الماء يوماً بعد يوم، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء فى يومهم لغدهم، ويقال: إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم، ولهذا قال ﴿**لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ**﴾ [الشعراء: ١٥٥].

قال تعالى: ﴿**إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ**﴾ [القمر: ٢٧]. أى اختباراً لهم أيؤمنون بها أم يكفرون؟ والله أعلم بما يفعلون ﴿**فَارْتَقِبْهُمْ**﴾ أى انتظر ما يكون من أمرهم ﴿**وَاصْطَبِرْ**﴾ على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية.

﴿**وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ**﴾ [القمر: ٢٨].

فلما طال عليهم هذا الحال اجتمع علماؤهم، واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة، ليستريحوا منها ويتوفر لهم ماؤهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم.

قال تعالى: ﴿**فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [الأعراف: ٧٧].

وكان الذى تولى قتلها منهم رئيسهم: قِدار بن سالف بن جندع، وكان أحمر أزرق أصهب. وكان يقال: إنه ولَد زانية وُلد على فراش سالف، وهو ابن رجل يقال له «صيبان» وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم ورضاهم فلهذا نُسب الفعل إليهم كلهم.

ذكر ابن جرير وغيره من علماء المفسرين: أن امرأتين من ثمود اسم إحداهما «صدوق» ابنة المحيا بن زهير بن المختار. وكانت ذات حسب ومال وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته، فدعت ابن عم لها يقال له «مصرع» ابن مهرج بن محيا، وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة. واسم الأخرى «عنيزة» بنت غنيم بن مجلز، وتكنى أم غنمة وكانت عجوزاً كافرة، لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمرو أحد الرؤساء، فعرضت بناتها الأربع على قدار بن سالف، إن هو عقر الناقة فله أى بناتها شاء، فاستعد هذان الشابان لعقرها وسعيا فى قومهما بذلك فاستجاب لهم سبعة آخرون، فصاروا تسعة.

وهم المذكورون فى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل:٤٨]، وسعَوا فى بقية القبيلة وحسَّنوا لهم عقرها، فأجابوهم إلى ذلك وطاوعوهم فى طغيانهم، فانطلقوا يرصدون الناقة، فلما رجعت من وِرْدها كَمَن لها «مصرع» فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها، وجاء النساء يُذَمِّرْن «أى يحضضن ويشجعن» القبيلة فى قتلها وحَسَرْن عن وجوههن ترغيباً لهم فى ذلك، فكان أسرعهم «قدار بن سالف» فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الأرض. ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذِّر ولدها. ثم طعن فى لبتها فنحرها، وانطلق فصيلها فصعد جبلاً منيعاً ورغا ثلاثاً، ثم اختفى.

وروى عبد الرزاق عن معمر، عمن سمع الحسن أن الفصيل قال: يارب. أين أمى؟ ثم دخل فى صخرة فغاب فيها، ويقال: بل اتبعوه فعقروه أيضاً.

قال الله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي

وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٢٩-٣٠].

وقال أيضا: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٢- ١٥].

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا هشام - أبو عروة - عن أبيه عن عبد الله بن زمعة قال: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذى عقرها فقال: ﴿إذ انبعث أشقاها﴾ انبعث لها رجل عارم عزيز منيع فى رهطه مثل أبى زمعة» أخرجه من حديث هشام به.

«عارم» أى شهم.

عزيز: أى رئيس.

منيع: أى مطاع فى قومه.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى يزيد بن محمد بن خثيم، عن محمد ابن كعب، عن محمد بن خثيم بن يزيد، عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ لعَلىٍّ: «ألا أحدثك بأشقى الناس؟» قال: بلى، قال: «رجلان أحدهما أُحَيْمِرُ ثمود الذى عقر الناقة والذى يضربك يَاعَلِىّ على هذا - يعنى قرنه - حتى تبتل منه هذه - يعنى لحيته». رواه ابن أبى حاتم.

وذكروا أنهم لما عقروا الناقة، كان أول من سطا «قدار بن سالف» لعنه الله فعرقبها فسقطت إلى الأرض، ثم ابتدروها بأسيافهم يقطّعونها فلما عاين سَقبها - وهو ولدها - شرد عنهم فَعَلاَ أعلى الجبل هناك ورغا ثلاث مرات.

فلهذا قال لهم صالح عليه السلام: ﴿تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام﴾ أى غير

يومهم ذلك، فلم يصدقوه أيضاً فى هذا الوعد الأكيد، بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا - فيما يزعمون - أن يلحقوه بالناقة ﴿**قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ**﴾ أى لَنَكْبِسَنَّهُ فى داره مع أهله فلنقتلنه ثم لَنجحدن قتله ولننكرن ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه. ولهذا قالوا: ﴿**قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**﴾ [النمل: ٤٩]

قال تعالى: ﴿**وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ [النمل: ٥٠-٥٣].

وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم فأهلكهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم، وأصبحت ثمود يوم الخميس - وهو اليوم الأول من أيام النظرة - ووجوههم مصفرة، كما أنظرهم صالح عليه السلام، فلما أمسوا نادوا بأجمعهم: ألا قد مضى يوم من الأجل، ثم أصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة - ووجوههم محمرة، فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى يومان من الأجل، ثم أصبحوا فى اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت - ووجوههم مسودة، فما أمسوا نادوا: ألا قد مضى الأجل. فلما كان صبيحة يوم الأحد تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة، لايدرون كيف يُفعل بهم، ولا من أى جهة يأتيهم العذاب. فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم، ورجفة من أسفل منهم - ففاضت الأرواح وزهقت النفوس، وسكنت الحركات، وخشعت الأصوات، وحقت الحقائق، فأصبحوا فى دارهم جاثمين، جثثاً لا أرواح فيها ولا حراك بها، قالوا: ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة واسمها «كلبة» بنت السلق - ويقال لها الذريعة - وكانت شديدة الكفر

والعداوة لصالح عليه السلام، فلما رأت العذاب أُطلقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع شيء، فأتت حيا من العرب فأخبرتهم بما رأت وما حلّ بقومها واستسقتهم ماء، فلما شربت ماتت.

قال الله تعالى: ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ أى لم يقيموا فيها فى سَعة ورزق وغناء، ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود:٦٨]. أى نادى عليهم لسان القدر بهذا.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبى الزبير، عن جابر قال: لما مرَّ رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لاتسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت - يعنى الناقة - تَرِد من هذا الفج (الطريق) وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً، فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله بها مَن تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان فى حرم الله» فقالوا: من هو يارسول الله؟ قال: «هو أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه» وهذا الحديث على شرط مسلم وليس هو فى شيء من الكتب الستة. والله أعلم.

وقال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرنى إسماعيل بن أمية أن النبى ﷺ مرَّ بقبر أبى رغال، فقال: «أتدرون من هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا قبر أبى رغال، رجل من ثمود، كان فى حرم الله فمنعه حرم الله عذاب الله، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فَدُفِنَ هاهنا، ودفن معه غصن من ذهب فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم، فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن.

قال عبد الرزاق قال معمر: قال الزهرى: أبو رغال أبو ثقيف.

هذا مرسل من هذا الوجه.

وقد جاء من وجه آخر متصلاً كما ذكره محمد بن إسحاق فى السيرة عن إسماعيل بن أمية عن بجير بن أبى بجير، قال: سمعت عبد الله بن عمر يقول: «سمعت رسول الله ﷺ حين خرجنا معه إلى الطائف، فمررنا بقبر، فقال: «إن هذا قبر أبى رُغال»، وهو أبو ثقيف وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج منه أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه، وآية ذلك: أنه دُفِن معه غصن من ذهب، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه». فابتدره الناس (أسرعوا إليه) فاستخرجوا منه الغصن. وهكذا رواه أبو داود من طريق محمد بن إسحاق به.

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى رحمه الله: هذا حديث حسن عزيز.

وقوله تعالى: ﴿**فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ**﴾ [الأعراف: ٧٩].

إخبار عن صالح عليه السلام أنه خاطب قومه بعد هلاكهم، وقد أخذ فى الذهاب عن محلتهم إلى غيرها قائلاً لهم: ﴿**يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ**﴾أى جهدت فى هدايتكم بكل ما أمكننى وحرصت على ذلك بقولى وفعلى ونيتى. ﴿**وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ** (٧٩)﴾ أى لم تكن سجاياكم تقبل الحق أو تريده، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم المستمر بكم المتصل إلى الأبد، وليس لى فيكم حيلة، ولا لِىَ بالدفع عنكم يدان، والذى وجب علىَّ من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم ولكن الله يفعل ما يريد.

ويقال: إن صالحاً عليه السلام انتقل إلى حرم الله فأقام به حتى مات.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا زمعة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما مر النبى ﷺ بوادى عُسفان

حين حج قال: «يا أبا بكر: أى واد هذا؟» قال: وادى عسفان. قال: لقد مَرَّ به هو وصالح عليهما السلام على بكرات خَطْمها الليف. أزرهم العباء، وأرديتهم النمار، يُلَبُّون يحجون البيت العتيق، إسناد حسن وقد تقدم فى قصة نوح عليه السلام من رواية الطبرانى، وفيه نوح، وهود، وإبراهيم.

مرور النبى ﷺ بوادى الحجر

من أرض ثمود عام تبوك

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا صخر بن جويرية، عن نافع عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم الحِجْر «اسم موضع» عند بيوت ثمود، فاستقى الناس «جلبوا الماء» من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا القدور، فأمرهم رسول الله ﷺ فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذِّبوا فقال: «إنى أخشى أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم».

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «لاتدخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم».

وأخرجاه فى الصحيحين من غير وجه. اهـ ابن كثير وغيره.

وهكذا يورد الكفر أهله موارد الهلاك والدمار، ويحل عليهم غضب المنتقم الجبار، ويشقيهم شقاء لانجاة منه بالخلود الأبدى فى النار. أعاذنا الله من سوء التدبير، وشقاء المصير.

وهدانا الله تعالى سواء السبيل، ونجانا من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

اهـ.

إبراهيم الخليل عليه السلام

إن إبراهيم عليه السلام كان إنساناً جامعاً خصال الخير والكمال كأن كل ذرة فى جسده نور ربانى، وكل خطرة فى نفسه شعاع إلهى، سما بروحه سموا كريماً حتى كأنما يعيش فى الملأ الأعلى فوق السماء، وارتفع بإنسانيته ارتفاعاً عظيماً جعله قمة وإماماً فى حضرة الأنبياء، وباع نفسه لله بيع السماح والرضى فكانت جميع مواقفه ربانية شامخة مستعلية على كل فتن الحياة الدنيا.

لذلك نال من المناصب الإلهية أعلاها، ومن تكريم الله له ما لم ينله أحد من المرسلين قبله ولابعده غير النبى محمد ﷺ.

فقال الله تعالى فيه: ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا** ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿ **وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** ﴾[البقرة: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾

[البقرة: ١٣٠].

وقال تعالى: ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾

[البقرة: ١٣١].

وقال تعالى: ﴿ **وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً** ﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾

[النحل: ١٢٠].

امتُحن فى نفسه بتكالب الكافرين عليه تكالباً وحشيًا تنفر الوحوش من قسوته فجمعوا له من الأحطاب والأخشاب مايكفى جيشاً بأكمله، وأشعلوا فيها نيرانا استطار شررها فى الجو حتى أحرق الطير البعيد فى الهواء، وقيدوه وكتفوه بدون رأفة أو رحمة أو شعور بأنه أخ لهم فى الإنسانية والوطن وله فيهم أقرباء وأنسباء، ورموه فى تلك النار وهم حولها مبتهجون ومسرورون، كأنهم فى حفل انتصار على جيش من أشد الأعداء، فما وهن الخليل وما ضعف، وما لان فى الحق ولا استكان، بل ظل شامخاً صابراً محتسباً ينظر إليهم كأنهم هباء، ويثق فى عظمة ربه وحبيبه وخليله جبار الأرض والسماء، ويثق فى رحمته ونصره ثقة أولى العزم من الأنبياء، وما إن رموه فى تلك النار وذلك الجحيم، حتى قال خليله: ﴿ **يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ فصارت نارهم عنده روضة، فيها الراحة والسعادة والرحمة. وهكذا يخزى الله أعداء المؤمنين المخلصين وينصر أحبابه وأولياءه فى الدنيا ويوم الدين.

وتلك فتنة أخرى تزلزل قلوباً كالجبال، حين أُمر الخليل بذبح ابنه الوحيد إسماعيل فاستجاب لربه وأسرع بالسكين ينفذ أمر الله، وألقى ابنه على وجهه ولم يفكر فى غير الخضوع لربه ومولاه، وصار يذبح وحيده بقوة وسرعة ولكن السكين لايؤثر فى رقبة إسماعيل المستسلم مع أبيه لرب العالمين، وهنا نادى جبريل عليه السلام الخليل إبراهيم: يكفيك ما فعلت فقد صدقت مع ربك وصدَّقت الرؤيا ونِلْت جزاء المحسنين، وهذا كبش من الجنة فاذبحه فداء لإسماعيل، وهدية من رب العالمين.

قال العلامة الفخرالرازى فى تفسيره: قيل: لما أطلع الله إبراهيم عليه السلام على الملكوت الأعلى والأسفل. ودعا القوم مرة بعد أخرى إلى توحيد الله، ومنعهم عن عبادة النجم والقمر والشمس، ومنعهم عن عبادة الأوثان، ثم سلَّم نفسه للنيران، وولده للقربان، وماله للضيفان، جعله الله إماماً للخلق، ورسولاً إليهم، وبشرَّه بأن الملك والنبوة فى ذريته، فلهذه الاختصاصات سماه خليلا.

وقال شهر بن حَوْشَب: هبط ملك فى صورة رجل وذكر اسم الله بصوت رخيم شجى فقال إبراهيم عليه السلام: اذكره مرة أخرى، فقال: لا أذكره مجاناً، فقال: لك مالى كله، فذكره الملك بصوت أشجى من الأول، فقال: اذكره مرة ثالثة ولك أولادى، فقال الملك: أبشر فإنى ملك لا أحتاج إلى مالِك وولدك، وإنما كان المقصود امتحانك، فلما بذل المال والأولاد على سماع ذكر الله لاجرم اتخذه الله خليلاً.

وروى طاوس عن ابن عباس أن جبريل والملائكة لما دخلوا على إبراهيم فى صورة غلمان حسان الوجوه. وظن الخليل أنهم أضيافه وذبح لهم عجلاً سميناً وقَرَّبه إليهم وقال: كلوا على شرط أن تسموا الله فى أوله وتحمدوه فى آخره، فقال جبريل: أنت خليل الله، فنزل هذا الوصف.

ولا مانع من أن يكون كل ذلك وغيره من أسباب تشريفه بهذا الوصف الجليل ﷺ.

نسب إبراهيم الخليل عليه السلام

هو إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ إلى أن يصل إلى سام بن نوح عليه السلام.

وذكر صاحب كتاب «المبتدأ» أن اسم أم إبراهيم «أميلة».

ولما كان عمر أبيه تارخ خمساً وسبعين سنة وُلِدَ له إبراهيم عليه السلام وناحور، وهاران، ووُلِدَ لهاران لوط. وقيل: إن إبراهيم عليه السلام هو الأوسط وإن هاران مات فى حياة أبيه فى أرضه التى وُلِدَ فيها وهى أرض بابل وليس غوطة دمشق، وهذا هو الصحيح المشهور عن أهل السِّيَر والتواريخ والأخبار: أن ولادة إبراهيم كانت فى أرض الكلدانيين. وهى أرض بابل بين دجلة والفرات بالعراق، وتسمى أرض السواد، وكان ملكها يسمى «النمرود» وستأتى قصته وهلاكه. وكان قومه يعبدون الأصنام،

ويعبدون هذا الملك على أنه إله.

وقد تزوج إبراهيم سارة ابنة عمه، وكانت سارة عاقراً لاتلد، وانطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة، وابن أخيه لوط بن هاران فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين وهى بلاد بيت المقدس فأقاموا بحاران وكان أهلها يعبدون الكواكب السبعة. وحاران يكتبها بعض المؤرخين «حران». والمراد واحد.

والذين عمَّروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين يستقبلون القطب الشمالى ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال. ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها ويعملون لها أعياداً وقرابين. وهكذا كان أهل حاران يعبدون الكواكب والأصنام.

وكل مَن كان على وجه الأرض كانوا كفاراً سوى الخليل إبراهيم وامرأته وابن أخيه لوط عليهم السلام، وكان الخليل عليه السلام هو الذى أزال الله به تلك الشرور وأبطل به ذلك الضلال، فإن الله تعالى آتاه رشده فى صغره وابتعثه رسولاً واتخذه خليلاً فى كبره. قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ**﴾ [الأنبياء: ٥١] أى كان أهلاً لذلك.

دعـوتـه لأبيـه

وكان أول دعوة إبراهيم دعوته لأبيه واسمه تارخ كما سبق وقيل «آزر» وقيل: سمى بهما وقيل: أحدهما علم والثانى لقب، وكان أبوه ممن يعبد الأصنام قال تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا**﴾ [مريم: ٤١-٤٤]. الخ.

فذكر تعالى ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة، وبيَّن له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التى لاتسمع دعاء عابدها ولاتبصر مكانه فكيف تغنى عنه شيئاً أو تفعل به خيراً من رزق أو نصر، فلما أهدى هذه النصيحة إليه لم يقبلها منه، ولا أخذها عنه، بل تهدده وتوعده، قال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أى زمنا طويلاً، فعندها قال له إبراهيم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ أى لايصلك منى مكروه، ولاينالك منى أذى، وزاده خيراً فقال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (لطيفاً ومحسناً) ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٧-٤٨].

وقد استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه كما وعده فى أدعيته، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «يَلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لاتعصنى، فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يارب: إنك وعدتنى ألا تخزينى يوم يبعثون، وأى خزى أخزى من أبى الأبعد، فيقول الله: إنى حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال يا إبراهيم: ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذبح متلطخ. فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار». هكذا رواه فى قصة إبراهيم منفرداً.

موقف إبراهيم مع قومه

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام: ٧٥-٧٩].

وهذا المقام مقام مناظرته قومه بأسلوب استدراجى حكيم، يدل على عظمة الخليل وسعة أفقه كما قال الله تعالى فيه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]، فبيَّن لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لاتصلح للألوهية ولا أن تُعبد مع الله عز وجل؛ لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مُدَبَّرة مسخرة تطلع تارة، وتأفل أخرى فتغيب عن هذا العالم فلا تديره ولا تعلم ما فيه، والرب تعالى لايغيب عن العالم، ولايغيب عنه شيء، ولا تخفى عليه خافية؛ بل هو الدائم الباقى بلا زوال لا إله إلا هو، ولا رب سواه. فبيَّن لهم أولاً عدم صلاحية الكوكب (قيل: هو الزهرة) لأن يكون إلهاً. ثم ترقى إلى القمر الذى هو أضوأ من الزهرة وأبهى من حسنها. ثم ترقى إلى الشمس التى هى أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء، فبيَّن أنها مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة.

وظاهر أن موعظته هذه فى الكواكب كانت لأهل حاران فإنهم كانوا يعبدونها.

وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام، وهم الذين ناظرهم فى عبادتها وكسرها عليهم وأهانها وبيَّن بطلانها كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ

رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾

[الأنبياء: ٥١-٦١].

فلما اجتمعوا وجاءوا به ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ، قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾أي إن الذى كسر هذه الأصنام وجعلها فتاتاً هو كبير الأصنام وهذا أيضاً من قوة حجته، حيث جعلهم فى حيرة تدل على سخافة عقولهم، ولهذا قال لهم: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾، وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لاتنطق فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات قال تعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾. أى فعادوا على أنفسهم بالملامة فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أى فى عبادتها، ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أى ثم رجعوا إلى الفتنة والدفاع عن الأصنام فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥-٦٧].

وهكذا استدرجهم الخليل حتى جعلهم يقرون بجهلهم وضلالهم وفى نهاية الحوار قال الكلمة التى لابد أن يسمعوها ليعلموا حقيقة ماهم فيه فقال: ﴿أفلا تعقلون﴾ فسجل عليهم سخف عقولهم وسخافة عقيدتهم فعدلوا إلى استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم

وطغيانهم فكادهم الرب جل جلاله وأعلى كلمته ودينه كما قال تعالى:

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠]. وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن فمكثوا مدة يجمعون له حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم، ثم عمدوا إلى حفرة عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب، وأطلقوا فيه النار، فاضطرمت وتأججت والتهبت وعلا لها شرر لم يُرَ مثله قط، ثم وضعوه عليه السلام فى كفة منجنيق صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له «هزن» وكان أول من صنع المجانيق فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول: لا إله إلا أنت سبحانك، لك الحمد، ولك الملك، لاشريك لك، فلما وضع الخليل عليه السلام فى كفة المنجنيق مقيداً مكتوفاً ثم ألقوه به إلى النار قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ كما روى البخارى عن ابن عباس أنه قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم حين أُلْقِيَ فى النار، وقالها محمد ﷺ حين قيل له: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤]

وذكر بعض السلف أن جبريل عليه السلام عرض له فى الهواء فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فقال له: فاسأل ربك، فقال إبراهيم: حسبى علمه بحالى، فقال تعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (أى على إبراهيم وحده ولو قرب منها غيره لاحترق).

قال ابن عباس وأبو العالية: لوأن الله لم يقل: وسلاماً على إبراهيم لآذى إبراهيم بردُها.

وقال كعب الأحبار: لم تحرق النار منه سوى وَثاقه وما ربط به.

وقال الضحاك: يروى أن جبريل عليه السلام كان معه يمسح العرق عن وجهه لم يصبه منها شيء غيره.

وقال السدى: كان معه أيضاً ملك الظل، وصار إبراهيم عليه السلام فى وسط البؤرة، وحوله النار، وهو فى روضة خضراء، والناس ينظرون إليه لايقدرون على الوصول إليه ولا هو يخرج إليهم.

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال: نعم الرب ربك يا إبراهيم.

وروى ابن عساكر عن عكرمة أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها عليه السلام فنادته يابنى إنى أريد أن أجيء إليك فادع الله أن ينجينى من حر النار حولك. فقال: نعم. فأقبلت إليه لايمسها شيء من حر النار، فلما وصلت إليه اعتنقته وقبلته ثم عادت.

وعن المنهال بن عمرو أنه قال: أُخبرت أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يوماً، وأنه قال: ما كنت أياماً وليالى أطْيَبَ عيشاً منى إذ كنت فيها، وودت أن عيشى حياتى كلَّها مثلَ ما كنت فيها، صلوات الله وسلامه عليه.

أرادوا أن ينتصروا فخذلوا، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا، وأرادوا أن يَغلِبوا فغُلبوا. قال الله تعالى: ﴿ **وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ** ﴾ وفى الآية الأخرى ﴿**الأَسْفَلِينَ**﴾.

روى البخارى بسنده عن أم شريك أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الْوَزَغ وقال: كان ينفخ على إبراهيم.

وقال أحمد: حدثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن نافع أن امرأة دخلت على عائشة فإذا رمح منصوب فقالت: ما هذا الرمح؟ فقالت: نقتل به

الأوزاغ. ثم حدثت عن رسول الله ﷺ أن إبراهيم لما أُلقِىَ فى النار جعلت الدواب كلها تطفىء عنه إلا الوزغ فإنه جعل ينفخها عليه. تفرد به أحمد من هذين الوجهين.

مناظرة إبراهيم الخليل مع عتاة الكافرين

قال الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: ٢٥٨].

يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد الذى ادعى لنفسه الربوبية، فأبطل الخليل عليه دليله، وبيَّن كثرة جهله وقلة عقله، وألجمه الحجة.

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار: هذا الملك هو ملك بابل، واسمه «النمرود» بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح عليه السلام، قاله مجاهد.

وقال غيره: نمرود بن فالج بن عابر بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح.

قال مجاهد وغيره: وكان أحد ملوك الدنيا، فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: ذو القرنين وسليمان، والكافران: النمرود وبختنصر. وهذا القول فيه تجوز كبير والله أعلم.

وذكروا أن نمرود هذا استمر فى ملكه أربعمائة سنة، وكان طغى وبغى، وتجبر وعتا، وآثر الحياة الدنيا.

ولما دعاه الخليل إبراهيم عليه السلام إلى عبادة الله وحده لاشريك له، حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع، فحاج إبراهيم الخليل فى ذلك، وادعى لنفسه الربوبية. فلما قال الخليل: ﴿**رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾.

قال قتادة والسدى ومحمد بن إسحاق: يعنى أنه إذا أُتىَ بالرجلين قد تحتم قتلهما، فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر.

وهذا ليس بمعارضة للخليل، بل هو كلام خارج عن مقام المناظرة، ليس بمنع ولا بمعارضة، بل هو تشغيب محض، وهو انقطاع فى الحقيقة، فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها، على وجود فاعل ذلك الذى لابد من استنادها إلى وجوده، ضرورة عدم قيامها بنفسها، ولابد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة من خلقها وتسخيرها، وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر، وخلق هذه الحيوانات التى توجد مشاهدة ثم إماتتها. ولهذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿**ربى الذى يحيى ويميت**﴾. فقول هذا الملك الجاهل: ﴿**أنا أحى وأميت**﴾ إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند، وإن عنى ما ذكره قتادة والسدى ومحمد بن إسحاق فلم يقل شيئاً يتعلق بكلام الخليل عليه السلام، إذ لم يمنع مقدمة، ولا عارض الدليل.

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضر وغيرهم، ذكر دليلاً آخر بيَّن وجود الصانع، وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة ﴿ **قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ** ﴾ أى فإن كنت كما تزعم فافعل هذا، فإن لم تفعله فلست كما زعمت، وأنت تعلم وكل أحد أنك لاتقدر على شىء من هذا، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر لها.

فبيَّن ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه، وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جَهَلَة قومه، ولم يبق له كلام يجيب الخليل به، بل انقطع وسكت، ولهذا قال: ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾.

وقد ذكر السدى أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خرج من النار، ولم يكن اجتمع به إلا يومئذ، فكانت بينهما هذه المناظرة.

وقد روى عبد الرزاق عن معمر، عن زيد بن أسلم، أن النمرود كان عنده طعام، وكان الناس يفدون إليه ليأخذوا لأهليهم منه فوفد إبراهيم فى جملة من وفد، ولم يكن اجتمع به إلا يومئذ فكانت بينهما هذه المناظرة ولم يعط إبراهيم من هذا الطعام كما أعطى الناس بل خرج وليس معه شىء منه.

فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عِدْلَيْه (وِعاءَيه)، وقال: أشغل أهلى إذا قدمت عليهم، فلما قدم وضع رحله وجاء فاتكأ فنام، فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاماً طيباً، فعملت منه طعاماً، فلما استيقظ إبراهيم وجد الذى قد أصلحوه فقال: أنَّى لكم هذا؟ قالت: من الذى جئت به، فعرف أنه رزق رزقهموه الله عز وجل.

قال زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار، مَلَكاً يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه، ثم دعاه الثانية فأبى عليه، ثم دعاه الثالثة فأبى عليه، فقال: اجمع جموعك وأجمع جموعى. فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس فأرسل الله عليهم ذباباً من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظاماً بادية ودخلت واحدة منها فى منخر الملك فمكثت فى منخرة أربعمائة سنة. عذبه الله تعالى بها فكان يُضرب رأسه بالمرازب فى هذه المدة كلها، حتى أهلكه الله عز وجل بها. وقصة إبراهيم هذه مع النمرود كانت قبل قصته مع أهل الشام عباد الكواكب.

هجرة الخليل عليه السلام
إلى بلاد الشام

قال الله تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[العنكبوت: ٢٦-٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١ - ٧٣]. وذلك أنه لما هجر قومه فى الله وهاجر من بين أظهرهم، وكانت امرأته عاقراً لايولد لها، ولم يكن له من الولد أحد، بل معه ابن أخيه لوط، وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين، وجعل فى ذريته النبوة والكتاب، فكل نبى بُعث بعده فهو من ذريته، وكل كتاب نزل من السماء على نبى من الأنبياء من بعده فعلى واحد من ذريته، خلعةً من الله وكرامة له.

والأرض التى قصدها بالهجرة أرض الشام، وهى التى قال الله عز وجل فيها ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١] قاله أُبَىّ بن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم، وكانت هجرته من أرض بابل بعد نجاته من نار أهلها، وبعد مجادلته الملك النمرود وإفحامه بالحجة كما سبق.

هجرته عليه السلام إلى مصر

ذكر أهل الكتاب أنه لما قدم الشام أوحى الله إليه: «إنى جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك» فابتنى إبراهيم مذبحاً لله شكراً على هذه النعمة، وضرب قبته شرقى بيت المقدس وأنه كان جوع (أى قحط وشدة وغلاء)، فارتحلوا إلى مصر، وذكروا قصة سارة مع ملكها، وأن إبراهيم قال لها: قولى أنا أخته، وذكروا إخدام الملك إياها هاجر. ثم أخرجهم منها فرجعوا إلى بلاد التيمن، يعنى أرض بيت المقدس وما والاها، ومعه دواب وعبيد وأموال.

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن حفص، عن ورقاء - هو أبو عمرو اليشكرى - عن أبى الزناد: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات: قوله حين دُعِىَ إلى آلهتهم فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وقوله لسارة: «إنها أختى». قال: ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة «هو ملك مصر» فقيل له: دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس، قال: فأرسل إليه الملك أو الجبار من هذه معك؟ قال: أختى، قال: فَأَرسِل بها، قال: فأرسَل بها إليه، وقال: لاتكذِّبى قولى، فإنى قد أخبرته أنك أختى (أى فى الدين)، إنه ما على الأرض مؤمن غيرى وغيرك، فلما دخلت عليه قام إليها، فأقبلت تتوضأ وتصلى وتقول: اللهم إن كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسولك وأحصنتُ فرجى إلا على زوجى فلا تسلط علىَّ الكافر. قال: فغُط (ضغط بشدة) حتى ركض (ضرب) برجله. قال أبو الزناد: قال أبو سلمة ابن عبد الرحمن عن أبى هريرة إنها قالت: اللهم إن يمت يُقَلْ: هى قتلته، قال: فأُرْسِل. قال: ثم قام إليها، قال: فقامت تتوضأ وتصلى وتقول: اللهم إن كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى فلا تسلط علىَّ الكافر. قال: فغُط حتى ركض برجله قال أبو

الزِّناد: وقال أبو سلمة عن أبى هريرة أنها قالت: اللهم إن يمت يُقَل هى قتلته. قال: فأُرسِل. قال: فقال فى الثالثة أو الرابعة: ماأرسلتم إلىَّ إلا شيطاناً، أرجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر. قال: فرجعت، فقالت لإبراهيم: أشعرت أن الله رد كيد الكافرين وأخدم وليدة؟» تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط الصحيح.

وقد رواه البخارى عن أبى اليمان، عن شعيب بن أبى حمزة، عن أبى الزِّناد عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ به مختصراً.

وكان إبراهيم عليه السلام من وقت ذُهِب بها إلى الملك قام يصلى لله عز وجل، ويسأله أن يدفع عن أهله، وأن يرد بأس هذا الذى أراد أهله بسوء، وهكذا فعلت هى أيضاً. فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمراً قامت إلى وضوئها وصلاتها، ودَعتْ الله عز وجل بما تقدم من الدعاء العظيم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم عليه السلام.

وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة: سارة، وأم موسى، ومريم عليهن السلام.

والذى عليه الجمهور: أنهن صديقات رضى الله عنهن وأرضاهن.

ورأيت فى بعض الآثار أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها، فلم تُحجب عنه منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه وكان مشاهداً لها وهى عند الملك، وكيف عصمها الله تعالى منه، ليكون ذلك أطيبَ لقلبه، وأقر لعينه وأشد لطمأنينته، فإنه كان يحبها حباً شديداً؛ لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر، فإنه قد قيل: إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها، أحسن منها رضى الله عنها.

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن وهى الأرض المقدسة التى كان فيها، ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية.

ثم إن لوطاً عليه السلام نزح بمالَهُ من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له فى ذلك، إلى أرض الغور، المعروف «بغور زغر» فنزل بمدينة سدوم: وهى مدينة قديمة فى فلسطين على شاطىء البحر الميت، وهى قرية قوم لوط، وجاء عن أهل الكتاب أن الله أمطرها مع مدينة عامورة ناراً قصاصاً على خطايا أهلها. وهى أم تلك البلاد فى ذلك الزمان. وكان أهلها أشراراً كفاراً فجاراً.

ثم إن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط عليه السلام فأسروه وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه، فلما بلغ الخبر إبراهيم عليه السلام سار إليهم فى ثلثمائة وثمانية عشر رجلاً فاستنقذ لوطاً عليه السلام واسترجع أمواله وقتل من أعداء الله ورسوله خلقاً كثيراً وهزمهم وسار فى آثارهم حتى وصل إلى شمالى دمشق، وعسكر بظاهرها عند برزة ثم رجع مؤيداً منصوراً إلى بلاده، وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظِّمين له مكرمين خاضعين، واستقر ببلاده صلوات الله وسلامه عليه.

ذكر مولد إسماعيل عليه السلام

قال أهل الكتاب: إن إبراهيم عليه السلام سأل الله ذرية طيبة، وإن الله بشَّره بذلك وإنه لما كان لإبراهيم ببيت المقدس عشرون سنة قالت سارة لإبراهيم عليه السلام: إن الرب قد حرمنى الولد فادخل على أَمَتى هذه لعل الله يرزقنى منها ولداً، فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام، فحين دخل بها حملت منه. قالوا: فلما حملت ارتفعت نفسها وتعاظمت على سيدتها، فغارت منها سارة، فشكت ذلك إلى إبراهيم عليه السلام

فقال لها: افعلى بها ماشئت، فخافت هاجر فهربت فنزلت عند عين هناك، فقال لها ملك من الملائكة: لاتخافى فإن الله جاعل من هذا الغلام الذى حملت خيراً، وأمرها بالرجوع وبشرها بأنها ستلد ابنا وتسميه إسماعيل، فلما رجعت هاجر وضعت إسماعيل عليه السلام ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة، ولما ولد إسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم يبشره بإسحاق من سارة فخر لله ساجداً.

ذكر هجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى جبال فاران (مكة)

لما ولد إسماعيل من هاجر غارت منها سارة، ولم تحتمل رؤيتها معها فقالت لإبراهيم: غيِّب وجهها عنى، فذهب بها وبولدها حتى وضعهما حيث مكة اليوم بإلهام من الله تعالى.

روى البخارى بسنده عن ابن عباس قال: أول ما اتخذ الناس المنطق من قِبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة (شجرة كبيرة) فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء.

ثم قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به أنيس ولا شىء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لايلتفت إليها، فقالت له: آللـه أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لايضيعنا ثم رجعت. فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثنية حيث لايرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ**

يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما فى السِّقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً؟ فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادى رفعت طرف درعها، ثم سعت سَعْى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى، ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً، فعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبى ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما».

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه (اسكت) تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت، إن كان عندك غواث، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تحوطه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبى ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معينا» قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لاتخافى الضَّيعة فإن هاهنا بيتا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لايضيِّع أهله.

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رُفقة من جُرْهُم، أو أهل بيت من جُرهم، مقبلين من طريق كُداء، فنزلوا فى أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لَعَهْدنا بهذا الوادى وما فيه ماء. فأرسلوا جَريا (رسولاً) أو جَرِيَّيْن فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا. قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم. ولكن لاَحَقَّ لكم فى الماء عندنا. قالوا: نعم قال عبد

الله بن عباس: قال النبى ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم، فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشبَّ الغلام وتعلم العربية منهم وأنفَسَهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم.

إسماعيل وقصة ذبحه

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾[الصافات: ٩٩ - ١١٣].

يذكر تعالى عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً، فبشره الله بغلام حليم، وهو إسماعيل عليه السلام؛ لأنه أول من وُلِدَ على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل. وهذا ما لاخلاف فيه بين أهل الملل، لأنه أول ولده وبكره.

وقوله: ﴿فلما بلغ معه السعى﴾ أى شب وصار يسعى فى مصالحه كأبيه. قال مجاهد: فلما بلغ معه السعى: أى شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعى والعمل. فلما كان هذا رأى إبراهيم عليه السلام فى المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا، وفى الحديث عن ابن عباس مرفوعاً: «رُؤْيَا الأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ».

وهذا اختبار من الله عز وجل لخليله فى أن يذبح هذا الولد العزيز الذى جاءه على كبر، وقد طعن فى السن، بعدما أُمر بأن يسكن هو وأمه فى بلاد قفر، ووادٍ ليس به حسيس ولا أنيس، ولازرع ولا ضرع، فامتثل أمر الله فى ذلك، وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلاً عليه، فجعل الله لهما فرجاً ومخرجاً، ورزقهما من حيث لايحتسبان.

ثم لما أُمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا وهو بكره ووحيده الذى ليس له غيره، أجاب ربه وامتثل أمره وسارع إلى طاعته.

ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسراً ويذبحه قهراً: ﴿ **قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ** ﴾.

فبادر الغلام الحليم فقال: ﴿ **يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** ﴾. وهذا الجواب فى غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد.

قال الله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ** ﴾ قيل: ﴿ **أَسْلَمَا** ﴾: أى استسلما لأمر الله وعزما على ذلك. ومَعنَى ﴿ **وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ** ﴾: أى ألقاه على وجهه. قيل: أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده فى حال ذبحه، قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، والضحاك.

وقيل: بل أضجعه كما تضجع الذبائح وبقى طرف جبينه لاصقاً بالأرض «وأسلما» أى سمَّى إبراهيم وكبَّر، وتشهَّد الولد للموت.

قال السدى وغيره: أَمَرَّ السكين على حلقه فلم تقطع شيئاً. ويقال: جُعِلَ بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس. والله أعلم.

فعند ذلك نودى من الله عز وجل: ﴿ **أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا** ﴾ أى قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر ربك، وبذلت ولدك للقربان، كما سمحت ببدنك للنيران. وكما مالُك مبذول

للضيفان! ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِينُ﴾ أى الاختبار الظاهر البيِّن.

وقوله: ﴿وَفَدَيْنَاه بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أى وجعلنا فداء ذبح ولده مايسَّره الله تعالى من العَوض عنه.

والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن، رآه مربوطاً بسَمُرة (شجرة ذات شوك) فى ثبير (اسم جبل).

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان حدثنا منصور، عن خاله نافع، عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتنى امرأة من بنى سليم ولَّدَتْ عامة أهل دارنا قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة، وقالت مرة: إنها سألت عثمان: لم دعاك رسول الله ﷺ؟ قال: قال لى رسول الله ﷺ: «إنى كنت رأيت قرْنَىْ الكبش حين دخلت البيت، فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فَخَمِّرْهُمَا (استرهما) فإنه لاينبغى أن يكون فى البيت شىء يشغل المصلى».

قال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقين فى البيت حتى احترق البيت فاحترقا، وكذا روى عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقاً عند ميزاب الكعبة قد يبس.

وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل، لأنه كان هو المقيم بمكة، وإسحاق لانعلم أنه قَدِمَهَا فى حال صغره... والله أعلم.

زيارات الخليل لابنه إسماعيل عليهما السلام

قلنا: إن إسماعيل لما أدرك زوجوه امرأة منهم.

وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغى (يطلب رزقا) لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بِشَرٍّ، نحن بضيق

وشدة، وشكَتْ إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغيرُ عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: نعم. جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنى عنك فأخبرته، وسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنَّا فى جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشىء؟ قالت: نعم. أمرنى أن أقرأ عليك السلام ويقول لك: غيِّر عتبة بابك. قال: ذاك أبى، وقد أمرنى أن أفارقك، فالحقى بأهلك، وطلقها وتزوج منهم بأخرى، ولبث عنهم إبراهيم ماشاء الله، ثم أتاهم بَعْدُ فلم يجده. فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغى لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله عز وجل. فقال: ماطعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: «اللهم بارك لهم فى اللحم والماء».

قال النبى ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حَب ولو كان لهم حَبٌّ لدعا لهم فيه» قال: فهما لايخلو (يقتصر) عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه.

قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام، ومُريه يُثَبِّت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم. أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألنى عنك فأخبرته، فسألنى كيف عيشنا؟ فأخبرته أنَّا بخير. قال: فأوصاك بشىء؟ قالت: نعم: يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذَاكِ أبى وأنت العتبة أمرنى أن أمسكك.

بناء البيت العتيق

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٦-٢٧].

يذكر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء ووالد الأنبياء عليه أفضل صلاة وتسليم أنه بنى البيت العتيق الذى هو أول مسجد وُضع لعموم الناس يعبدون الله فيه وبوأه الله مكانه (أى أرشده إليه ودل عليه).

وقد روينا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب وغيره أنه أُرشد إليه بوحى من الله عز وجل، فأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له المعيَّن لذلك منذ خلق السموات والأرض كما ثبت فى الصحيحين: أن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، ولم يجئ فى خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنيا قبل الخليل عليه السلام، ومن تمسك فى هذا بقوله ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ فليس بناهض ولا ظاهر؛ لأن المراد مكانه المقدر فى علم الله المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]. أى أول بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى البيت الذى ببكة. قيل: مكة، وقيل: محل الكعبة ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أى (علامات واضحات) على أنه بناء الخليل عليه السلام والد الأنبياء من بعده وإمام الحنفاء من ولده الذين يقتدون به ويتمسكون بسنته، ولهذا قال: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى الْحَجَر الذى كان يقف عليه قائماً لما ارتفع البناء عن قامته، فوضع له ولده هذا الحجر المشهور ليرتفع عليه لَمَّا تعالى البناء وعظم الفناء. وقد كان هذا الحجر ملصقاً بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأخَّره عن البيت قليلاً لئلا يشغل المصلون عنده الطائفين بالبيت وقد كانت آثار قدمى الخليل باقية فى الصخرة إلى أول الإسلام.

والمقصود: أن الخليل بنى أشرف المساجد فى أشرف البقاع فى واد غير ذى زرع ودعا لأهلها بالبركة وأن يُرزقوا من الثمرات مع قلة المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار، وأن يجعله حرماً محرماً وآمناً فاستجاب الله له

ولبى دعوته، ولهذا استحق إبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان بانى الكعبة لأهل الأرض أن يكون منصبه وموضعه فى منازل السموات ورفيع الدرجات عند البيت المعمور الذى هو كعبة أهل السماء السابعة والذى يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ثم لايعودون إليه إلى يوم البعث والنشور.

ذكر مولد إسحاق عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿ **وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ** ﴾

[الصافات: ١١٢ - ١١٣].

وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة لما مروا بهما مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط، ليدمروها عليهم لكفرهم وفجورهم.

قال الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ** ﴾[هود: ٦٩-٧٣].

يذكر تعالى أن الملائكة - وكانوا ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل - لما وردوا على الخليل حسبهم أولاً أضيافاً، فعاملهم معاملة الضيوف، وشوى لهم عجلاً سميناً من خيار بقره، فلما قربه إليهم، وعرضه عليهم لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية. وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام، فَنكِرَهم إبراهيم ﴿ **وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ**

﴿قَوْمِ لُوطٍ﴾ أى لندمر عليهم فاستبشرت عند ذلك سارة غضباً لله عليهم. وكانت قائمة على رؤوس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم، فلما ضحكت استبشاراً بذلك. قال الله تعالى: **﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾** أى بشرتها الملائكة بذلك **﴿فأقبلت امرأته فى صرة﴾** أى فى صرخة أى كما يفعل النساء عند التعجب. وقالت: **﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾**أى كيف يلد مثلى وأنا كبيرة وعقيم أيضاً، **﴿وَهَٰذَا بَعْلِي﴾** أى زوجى شيخا؟ تعجبت من وجود ولد والحالة هذه. ولهذا قالت: **﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾**.

وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشاراً بهذه البشارة وتثبيتاً لها وفرحاً بها **﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾** [الحجر: ٥٤-٥٥]. أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرروه معه. فبشروهما **﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾** وهو إسحاق أخو إسماعيل، غلام عليم مناسب لمقامه وصبره وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر، وقال فى الآية الأخرى: **﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾**. وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظى وغيره على أن الذبيح هو إسماعيل وأن إسحاق لايجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده.

إبراهيم الخليل وإحياء الموتى

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

إن الله عز وجل أجابه إلى ما سأل فأمره أن يعمد إلى أربعة من الطيور واختلفوا فى تعيينها على أقوال، والمقصود حاصل على كل تقدير فأمره أن يمزق لحومهن ويأخذ ريشهن ويخلط ذلك بعضه فى بعض ثم يقسمه قسماً ويجعل على كل جبل منهن جزءاً ففعل ما أُمر به، ثم أُمِر أن يدعوهن بإذن ربهن فلما دعاهن جعل كل عضو يطير إلى صاحبه وكل ريشة تأتى إلى أختها حتى اجتمع بدن كل طائر على ما كان عليه وهو ينظر إلى قدرة الذى يقول للشىء كن فيكون فأتين إليه سعياً ليكون أبينَ له وأوضح لمشاهدته من أن يأتين طيراناً.

ويقال: إنه أُمر أن يأخذ رؤوسهن فى يده فجعل كل طائر يأتى فيلقى رأسه فيتركب على جثته كما كان، وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى علماً يقينياً لايحتمل النقيض ولكن أحب أن يشاهد ذلك عياناً ويترقى من علم اليقين إلى عين اليقين فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه غاية مأموله.

الأحداث الأخيرة فى حياة
الخليل عليه السلام

ذكر ابن جرير فى تاريخه أن مولده كان فى زمن النمرود بن كنعان وهو فيما قيل: «الضحاك» الملك المشهور الذى يقال إنه مَلَكَ ألف سنة وكان فى غاية الغشم والظلم. وذكر بعضهم أنه من بنى راسب الذين بُعث إليهم نوح عليه السلام، وأنه كان إذ ذاك ملِك الدنيا. وذكروا أنه طلع نجم أخفى ضوء الشمس والقمر فهال ذلك أهلَ ذلك الزمان وفزع النمرود فجمع الكهنة والمنجمين وسألهم عن ذلك فقالوا: يولد مولود فى رعيتك يكون زوال ملكك على يديه. فأمر عند ذلك بمنع الرجال عن النساء، وأن يقتل المولودون من ذلك الحين فكان مولد إبراهيم الخليل فى ذلك الحين فحماه الله عز وجل وصانه من كيد الفجار وشبَّ شباباً باهراً وأنبته الله نباتاً حسناً حتى كان من أمره ما تقدم فلما أهلك الله نمرود على يديه وهاجر إلى حران ثم إلى أرض الشام وأقام ببلاد إيليا، ووُلد له إسماعيل وإسحاق وماتت سارة قبله بقرية «حبرون» وكان لها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة فيما ذكر أهل الكتاب، فحزن عليها إبراهيم عليه السلام ورثاها رحمها الله واشترى من رجل من بنى «حيث» يقال له: «عفرون بن صخر» مغارة بأربعمائة مثقال، ودفن فيها سارة هنالك. قالوا: ثم خطب إبراهيم على ابنه إسحاق فزوجه «رفقا بنت بتوئيل» بن ناحور بن تارح، وبعث مولاه لحملها من بلادها ومعها مرضعتها وجواريها على الإبل قالوا: ثم تزوج إبراهيم عليه السلام «قنطورا» فولدت له زمران، ويقشان، ومادان، ومدين، وشياق، وشوح.

وقد روى ابن عساكر عن غير واحد من السلف عن أخبار أهل الكتاب

فى صفة مـجىء ملك الموت إلى الخليل إبراهيم عليه السلام أخباراً كـثيرة الله أعلم بصحتها. وقد قيل: إنه مات فجأة وكذا داود، وسليمان. والذى ذكره أهل الكتـاب وغيرهم خـلاف ذلك. قالوا: ثم مـرض إبراهيم عليه السلام ومات عن مائة وخمس وسـبعين سنة. وقيل: وتسعين سنة. ودفن فى المغارة المذكـورة التى بحبرون الحيـثى عند امرأته سارة التى فى مـزرعة عفرون الحيثى، وتولى دفنه إسماعيل وإسحاق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقد ورد ما يدل على أنه عاش مائتى سنة كما قاله ابن الكلبى.

وفى الصحيح أنه اختتن وقـد أتت عليه ثمانون سنة، وفى رواية: وهو ابن ثمانين سنة وليس فيها تعرض لما عاش بعد ذلك والله أعلم.

وقال مالك عن يحـيى بن سعيد بن المسـيب قال: كان إبراهيم أول من أضـاف الضـيف، وأول الناس اخـتـتن، وأول الناس قص شـاربه، وأول الناس رأى الشيب فقـال يارب: ما هذا؟ فقال الله: «وقـار». فقال يارب زدنى وقـاراً، وزاد غيرهمـا: وأول من قص شـاربه، وأول من استـحد، وأول من لبس السراويل.

وقبره وقـبر ولده إسحاق وقـبر ولد ولده يعقـوب فى المربعة التى بناها سليمان بن داود عليه السلام ببلد حـبرون وهو البلد المعروف بالخليل اليوم وهذا تُلُقِّى بالتواتر أمة بعد أمة وجيلاً بعد جيل من زمن بنى إسرائيل وإلى زماننا هذا أن قبره بالمربعة تحـقيقاً. فأما تعيينه منها فليس فـيه خبر صحيح عن معصوم، فينبغى أن تراعى تلك المحلة، وأن تحـترم احترام مثلها، وأن تبجلَّ وأن تجل أن يداس فى أرجائها خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد من أولاده الأنبياء عليهم السلام تحتها. اهـ.

أولاد إبراهيم الخليل عليه السلام

أول من وُلد له إسماعيل من هاجر القبطية المصرية ثم وُلد له إسحاق من سارة بنت عم الخليل عليه السلام، ثم تزوج بعدها «قنطورا بنت يقطن» الكنعانية فولدت له ستة: مدين، وزمران، وسرج، ويقشان، ونشق، ولم يسم السادس. ثم تزوج بعدها حجون بنت أمين فولدت له خمسة: كيسان، وسورج، وأميم، ولوطان، ونافس. هكذا ذكره أبو القاسم السهيلى فى كتابه «التعريف والأعلام».

قصة لوط عليه السلام مع قومه

مما وقع فى حياة إبراهيم الخليل عليه السلام من الأمور العظيمة قصة قوم لوط عليه السلام وما حل بهم من النقمة الشديدة والداهية الفظيعة.

ولوط هو ابن أخى إبراهيم عليه السلام، فإبراهيم، وهاران، وناحور، إخوة، وكان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له وإذنه، فنزل بمدينة سدوم من أرض «غورزغر» وكانت أم تلك المحلة ولها أرض، وقرى مضافة إليها، ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم، وأرداهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل ويأتون فى ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون. ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم، وهى إتيان الذكران من العالمين، وترْك ما خلق من النسوان، فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لاشريك له، ونهاهم عن تعاطى هذه المحرمات والفواحش المستقبحات، فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم، واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فأحلَّ الله تعالى بهم من البأس الذى لايُرَدُّ ما لم يكن فى خَلَدهم وحسبانهم، وجعلهم مُثْلة فى العالمين، وعبرة يتعظ بها كل من يأتى بعدهم.

والمقصود الآن: إيراد ما كان من أمرهم وما أحلَّ الله تعالى بهم مجموعاً من الآيات والآثار وبالله المستعان.

وذلك أن لوطاً عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده لاشريك له، ونهاهم عن تعاطى ما ذكر الله عنهم من الفواحش فلم يستجيبوا له، ولم يؤمنوا به، حتى ولا رجل واحد منهم، ولم يرتدعوا عن غيهم وضلالهم، وهموا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم، وما كان جزاؤه منهم إلا أن قالوا: **﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ**

يَتَطَهَّرُونَ﴾ فجعلوا غاية المدح ذمًّا يقتضى الإخراج، وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويأتون فى ناديهم (وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم﴾ المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافها حتى قيل: إنهم كانوا يتضارطون فى مجالسهم، ولايستحيون من مُجالسهم، وربما وقع منهم الفعلة الشنيعة فى المحافل ولايستنكفون، وكانوا فى ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلاً، وقالوا له فيما قالوا: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

فطلبوا منه وقوع ما حذرهم منه من العذاب الأليم وحلول البأس العظيم. فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم، فسأل رب العالمين، وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين، فغار الله لغيرته، وغضب لغضبته، واستجاب لدعوته، وبعث رسله الكرام وملائكته العظام، فمروا على الخليل إبراهيم وبشروه بالغلام وأخبروه بما جاءوا له من الأمر الجسيم ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾

[الذاريات: ٣١-٣٤].

وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١-٣٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]، وذلك أنه كان يرجو أن يُنيبوا ويُسلموا ويُقلعوا ويرجعوا ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٥-٧٦].

أى أعرض عن هذا وتكلم فى غيره؛ فإنه قد حُسم أمرهم، ووجب عذابهم وهلاكهم، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود.

وذكر سعيد بن جبير، والسدى، وقتادة، ومحمد بن إسحاق: أن إبراهيم عليه السلام جعل يقول: أتُهلِكُونَ قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا لا. قال: فمائتا مؤمن؟ قالوا: لا. قال: فأربعون مؤمناً؟ قالوا: لا. قال: فأربعة عشر مؤمناً؟ قالوا: لا» قال ابن إسحاق: إلى أن قال: أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد؟ قالوا: لا. قال: إن فيها لوطاً، قالوا: نحن أعلم بمن فيها ... الآية».

قال المفسرون: لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم وهم: جبريل وميكائيل وإسرافيل أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم فى صُوَر شبان حسان اختباراً من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم فاستضافوا لوطاً عليه السلام وذلك عند غروب الشمس فخشى إن لم يضفهم يضيفهم غيره، وحَسِبَهم بشراً من الناس وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب «شديد بلاؤه».

قال السدى: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قوم لوط فأتوهم نصف النهار، فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقى من الماء لأهلها وكان له ابنتان اسم الكبرى «ريثا»، والصغرى «ذعرتا» فقالوا لها: ياجارية هل من منزل؟ فقالت لهم مكانكم لاتدخلوا حتى آتيكم. فَرِقَت (خافت) عليهم من قومها، فأتت أباها فقالت: يا أبتاه. أرادك فتيان عَلى باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط هى أحسن منهم لا يأخذهم قومك، فيفضحوهم، وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلاً فجاء بهم فلم يعلم أحد إلا أهل البيت فخرجت امرأته فأخبرت قومها فقالت: إن فى بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط فجاءه قومه يهرعون إليه.

وقوله: ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُون السَّيِّئَاتِ﴾، أى هذا مع ما سلف من

الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ** ﴾ يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته شرعاً لأن النبى للأمة بمنزلة الوالد كما ورد فى الحديث وكما قال تعالى: ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ** ﴾[الأحزاب:٦]. وهذا كقوله تعالى: ﴿ **أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ** ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦]. وهذا هو الذى نص عليه مجاهد، وسعيد بن جبير، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدى، ومحمد بن إسحاق، وهو الصواب. وقد تخبط أهل الكتاب فى هذه القصة تخبطا عظيما.

وقوله: ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ** ﴾ [هود:٧٨]. نَهْىٌ عن تعاطى ما لايليق من الفاحشة وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة من عقل أو فيه خير، بل الجميع سفهاء، فجرة أقوياء، كفرة أغبياء، وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوا منه من قبل أن يسألوه عنه. فقال قومه عليهم لعنة الله لنبيهم: ﴿ **لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ** ﴾. يقولون عليهم لعائن الله: لقد علمت يالوط أنه لا أرب لنا فى نسائنا وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا.

واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم ولم يخافوا سطوة العلى العظيم ولهذا قال عليه السلام: ﴿ **لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ** ﴾ وَدَّ أن لو كان له بهم قوة أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد» يعنى الله عز وجل فما بعث الله بعده من نبى إلا فى ثروة من قومه.

ذكر المفسرون وغيرهم أن نبى الله لوطاً عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق وهم يرومون فتحه وولوجه وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال: ﴿ **لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ**

﴿قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ لأحللت بكم النكال. قالت الملائكة: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم حتى قيل: إنها غارت بالكلية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر فرجعوا يتحسسون مع الحيطان. ويتوعدون رسول الرحمن. ويقولون: إذا كان الغد كان لنا وله شان. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣٧-٣٨].

وذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط عليه السلام آمرين له أن يسرى هو وأهله من آخر الليل ولايلتفت منهم أحد يعنى عند سماع صوت العذاب إذا حَلَّ بقومه، وأمروه أن يكون سيره فى آخرهم كالساقة لهم.

قوله: ﴿وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ﴾: أى فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم.

قال السهيلى: واسم امرأة لوط «والهة»، واسم امرأة نوح «والغة».

قالت الملائكة له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ فلما خرج لوط عليه السلام بأهله وهم ابنتاه ولم يتبعه منهم رجل واحد. ويقال: إن امرأته خرجت معه فالله أعلم. فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس فكان عند شروقها جاءهم من أمر الله ما لايُرَدُّ. وعند أهل الكتاب أن الملائكة أمروه أن يصعد إلى رأس الجبل الذى هناك فاستبعده وسألهم أن يذهب إلى قرية قريبة منهم فقالوا: اذهب فإنا ننتظرك حتى تصير إليها ثم نُحِلُّ بهم العذاب فذكروا أنه ذهب إلى قرية «صغر» التى يقول الناس «غورزغر» فلما أشرقت الشمس نزل بهم العذاب. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (صلب قوى) مَّنضُودٍ (متتابع)(٨٢) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢-٨٣].

قالوا: اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن وكُنَّ سبع مدن بمن فيهن من الأمم وما معهم من الحيوانات فرفع الجميع حتى بلغ بهن عِنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها وأتبع ذلك بإمطارهم بحجارة شديدة مكتوب على كل منها اسم صاحبه الذى يهبط عليه فيدمغه كما قال تعالى: ﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ**﴾ [الشعراء: ١٧٣].

ويقال: إن امرأة لوط مكثت مع قومها، ويقال: إنها خرجت مع زوجها وبنتيها ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة والتفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها وقالت: واقوماه. سقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها إذ كانت على دينهم وكانت عيناً لهم على من يكون عند لوط من الضيفان كما قال تعالى: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾ [التحريم: ١٠].

أى خانتاهما فى الدين فلم يتبعاهما فيه. وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة حاشا وكلاَّ فإن الله لايُقَدِّر على نبى أن تبغى امرأته كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف. ما بغت امرأة نبى قط. ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأً كبيراً.

وقوله تعالى: ﴿**وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**﴾ أى وما هذه العقوبة ببعيدة ممن أشبههم فى فعلهم ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يُرجم سواء كان محصنا أو لا: نص عليه الشافعى، وأحمد بن حنبل، وطائفة كثيرة من الأئمة واحتجوا أيضاً بما رواه الإمام أحمد، وأهل السنن من حديث عمرو بن أبى عمرو عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمَ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ».

وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يُلقى من شاهق جبل ويُتبع بالحجارة كما فُعِل بقوم لوط لقول الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾. وجعل الله تعالى مكان تلك البلاد بحيرة منتنة لاينتفع بمائها ولا بما حولها من الأرض المتاخمة لفنائها لرداءتها ودناءتها فصارت عبرة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته فى انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه. ودليلاً على رحمته بعباده المؤمنين فى إنجائه إياهم من المهلكات. وإخراجه إياهم إلى النور من الظلمات كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

[الشعراء: ٨-٩].

فالعاقل اللبيب الخائف من ربه يمتثل ما أمره الله به عز وجل ويقبل ما أرشده إليه رسول الله ﷺ من إتيان ما خلق لهم من الزوجات الحلال. وإياه أن يتبع كل شيطان مريد فيحق عليه الوعيد ويدخل فى قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ اهـ.

إسماعيل عليه السلام

وقد كان للخليل عليه السلام بنون كما ذكرنا، ولكن أشهرهم الأخوان النبيان العظيمان الرسولان: أسنهما وأجلهما: الذى هو الذبيح على الصحيح - إسماعيل بِكْر إبراهيم الخليل من هاجر القبطية المصرية عليها السلام.

ومَن قال إن الذبيح هو إسحاق، فإنما تلقاه من نقلة بنى إسرائيل الذين بدَّلوا وحرَّفوا وأوَّلوا التوراة والإنجيل، وخالفوا ما بأيديهم فى هذا من التنزيل، فإن إبراهيم أُمِرَ بذبح ولده البكر، وفى رواية: الوحيد.

وأيا ما كان فهو إسماعيل بنص الدليل، ففى نص كتابهم: أن إسماعيل وُلد ولإبراهيم من العمر ستٌ وثمانون سنة، وإنما ولد إسحاق بعد مُضِيِّ مائة سنة من عمر الخليل، فإسماعيل هو البِكر لامحالة، وهو الوحيد صورة ومعنى على كل حالة.

وقد أثنى الله تعالى عليه ووصفه بالحلم والصبر وصدق الوعد، والمحافظة على الصلاة والأمر بها لأهله ليقيهم العذاب، مع ما كان يدعو إليه من عبادة رب الأرباب، قال الله تعالى: ﴿ **فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [الصافات: ١٠١-١٠٢]. فطاوع أباه على ما إليه دعاه، ووعده بأنه سيصبر فوفى بذلك وصبر على ذلك.

وقال تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا** ﴾ [مريم: ٥٤-٥٥]. فذكر الله عنه كل صفة جميلة، وجعله نبيه ورسوله.

وَذكر علماء النسب وأيام الناس: أنه أول من ركب الخيل، وكانت قبل ذلك وحوشاً فأنَّسها وركبها.

وقد قال سعيد بن يحيى الأموى فى مغازيه: حدثنا شيخ من قريش، حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز، عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «اتخذوا الخيل واعتقبوها (توارثوها) فإنها ميراث أبيكم إسماعيل».

وأنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة وكان قد تعلمها من العرب العاربة- الذين نزلوا عندهم بمكة من جرهم والعماليق وأهل اليمن من الأمم المتقدمين من العرب قبل الخليل عليه السلام.

وقد سبق أنه تزوج لما شَبَّ امرأة من العماليق، وأن أباه أمره بفراقها ففارقها. قال الأموى: هى عمارة بنت سعد بن أسامة بن أكيل العماليقى. ثم نكح غيرها فأمره أن يستمر بها، فاستمر بها، وهى السيدة بنت مضاض ابن عمرو الجرهمى، وقيل: هذه ثالثة، فولدت له اثنى عشر ولداً ذكراً.

وكان إسماعيل عليه السلام رسولاً إلى أهل تلك الناحية وماوالاها من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن صلوات الله وسلامه عليه.

ولما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق، وزوج ابنته (نسمة) من ابن أخيه «العيص» بن إسحاق.

ودُفِنَ نبى الله إسماعيل بالحِجْر مع أمه هاجر، وكان عمره يوم مات مائة وسبعاً وثلاثين سنة.

وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: شكا إسماعيل عليه السلام إلى ربه عز وجل حَرَّ مكة، فأوحى الله إليه: إنى سأفتح لك باباً من الجنة إلى الموضع الذى تدفن فيه. يجرى عليك روحها إلى يوم القيامة.

وعرب الحجاز كلهم ينتسبون إلى ولديه نابت وقيذار. اهـ.

اسحاق بن إبراهيم وابنه
يعقوب وأولادهما

ولد إسحاق ولأبيه مائة سنة بعد أخيه إسماعيل بأربع عشرة سنة. وكان عمر أمه سارة حين بُشِّرت به تسعين سنة.

قال الله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٢، ١١٣] وذكر أهل الكتاب أن إسحاق لما تزوج (رفقا بنت بتوائيل) فى حياة أبيه كان عمره أربعين سنة وأنها كانت عاقراً فدعا الله لها فحملت فولدت غلامين توأمين أولهما سموه (عيصو) وهو الذى تسميه العرب (العيص) وهو والد الروم.

والثانى (يعقوب) وهو إسرائيل الذى ينتسب إليه بنو إسرائيل.

قالوا: وكان إسحاق يحب العيصو أكثر من يعقوب لأنه بِكْره وكانت أمهما (رفقا) تحب يعقوب أكثر لأنه الأصغر. قالوا: فلما كبر إسحاق وضعف بصره اشتهى على ابنه العيص طعامًا وأمره أن يذهب فيصطاد له صيداً ويطبخه له ليبارك عليه ويدعو له وكان العيص صاحب صيد فذهب يبتغى ذلك فأمرت رفقا ابنها يعقوب أن يذبح جديين من خيار غنمه ويصنع منهما طعامًا كما اشتهاه أبوه ويأتى إليه به قبل أخيه ليدعو له فقامت فألبسته ثياب أخيه وجعلت على ذراعيه وعنقه من جلد الجديين لأن العيص كان أشعر الجسد ويعقوب ليس كذلك، فلما جاء به وقربه إليه قال: من أنت؟ قال: ولدك فضمه إليه وجَسَّه وجعل يقول: أما الصوت فصوت يعقوب. وأما الجس والثياب فالعيص فلما أكل وفرغ دعا له أن يكون أكبر إخوته قدراً وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده وأن يكثر رزقه

وولده. فلما خرج من عنده جاء أخوه العيص بما أمره به والده فقربه إليه فقال له: ما هذا يا بنى؟ قال: هذا الطعام الذى اشتهيته. فقال: أما جئتنى به قبل ساعة وأكلت منه ودعوت لك؟ فقال: لا والله، وعرف أن أخاه قد سبقه إلى ذلك فَوَجَدَ (غضب) فى نفسه عليه وَجْدًا كثيرًا. وذكروا أنه تواعده بالقتل إذا مات أبوهما وسأل أباه فدعا له بدعوة أخرى وأن يجعل لذريته غليظ الأرض، وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم، فلما سمعت أمهما ما يتواعد به العيص أخاه يعقوب أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها (لابان) الذى بأرض حران، وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه عليه وأن يتزوج من بناته. وقالت لزوجها إسحاق أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له ففعل. فخرج يعقوب عليه السلام من عندهم من آخر ذلك اليوم فأدركه المساء فى موضع فنام فيه، وأخذ حجرًا فوضعه تحت رأسه ونام، فرأى فى نومه ذلك معراجًا منصوبًا من السماء إلى الأرض وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون والرب تبارك وتعالى يخاطبه ويقول له: إنى سأبارك عليك وأكثر ذريتك وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك. فلما هب من نومه فرح بما رأى ونذر لله لئن رجع إلى أهله سالمًا ليبنين فى هذا الموضع معبدًا لله عز وجل، وأن جميع ما يرزقه من شىء يكون لله عُشْرُه ثم عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهنًا يتعرفه به وسمى ذلك الموضع «بيت إيل» أى بيت الله وهو موضع بيت المقدس اليوم الذي بناه يعقوب بعد ذلك كما سيأتى.

قالوا: فلما قدم يعقوب على خاله فى أرض حران إذا له ابنتان اسم الكبرى «ليا»، واسم الصغرى «راحيل» وكانت أحسنهما وأجملهما فطلب يعقوب منه أن يزوجه راحيل فأجابه إلى ذلك بشرط أن يرعى على غنمه سبع سنين، فلما مضت المدة على خاله «لابان» صنع طعامًا وجمع الناس عليه وزفَّ إليه ليلاً ابنته الكبرى «ليا» وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر. فلما أصبح يعقوب إذا هى «ليا» فقال لخاله لم غدرت بى؟ وأنت إنما

خطبتُ إليك «راحيل» فقال: إنه ليس من سنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى، فإن أحببت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها فعمل سبع سنين وأدخلها عليه مع أختها وكان ذلك سائغًا فى ملتهم ثم نسخ فى شريعة التوراة.

ووهب «لابان» لكل واحدة من ابنتيه جارية فوهب «لليا» جارية اسمها «زلفى»، ووهب لراحيل جارية اسمها «بلهى».

وجبر الله تعالى ضعف «ليا» بأن وهب لها أولادًا فكان أول من ولدت ليعقوب «روبيل» ثم «شمعون»، ثم «لاوى»، ثم «يهوذا»، فغارت عند ذلك «راحيل» وكانت لا تحبل فوهبت ليعقوب جاريتها «بلهى» فوطئها فحملت وولدت له غلامًا سمته «دان» ثم حملت وولدت غلامًا آخر سمته «نيفتالى» فعمدت عند ذلك «ليا» فوهبت جاريتها «زلفى» من يعقوب عليه السلام فولدت له «جاد»، و«أشير» غلامين ذكرين، ثم حملت «ليا» أيضًا فولدت غلامًا خامسًا منها وسمته «إيساخر» ثم حملت وولدت غلامًا سادسًا سمته «زبلون»، ثم حملت وولدت بنتًا سمتها «دينا»، فصار لها سبعة من يعقوب. أما راحيل فقد دعت الله تعالى وسألته أن يهب لها غلامًا من يعقوب، فسمع الله نداءها وأجاب دعاءها فحملت من نبى الله يعقوب فولدت له غلامًا عظيمًا شريفًا حسنًا جميلاً سمته «يوسف» كل هذا وهم مقيمون بأرض حران، وهو يرعى على خاله غنمه بعد دخوله على البنتين ست سنين أخرى فصارت مدة مقامه عشرين سنة، فطلب يعقوب من خاله «لابان» أن يسرحه ليمر إلى أهله فقال له خاله: إنى قد بورك لى بسببك فسلنى من مالى ما شئت، فقال: تعطينى كل حمل يولد من غنمك هذه السنة أبقع وكل حمل ملمع أبيض بسواد، وكل أملح ببياض وكل أجلح أبيض من المعز، فقال نعم. فعمد بنوه فأبرزوا من غنم أبيهم ما كان على هذه الصفات من التيوس لئلا يولد شيء من الحملان على هذه الصفات، وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم قالوا فعمد

يعقوب عليـه السلام إلى قضبان رطبة بـيض من لوز، ولب فكان يقشرها (بلقا) وينصبها فى مساقى الغنم من الميـاه لتنظر الغنم إليها فتفزع وتتحرك أولادها فى بطونهـا فتـصيـر ألوان حمـلانها كـذلك وهذا يكون من باب خوارق العادات وينتظم فى سلك المعـجزات، فصار ليعقـوب عليه السلام أغنام كثـيرة ودواب وعبـيد وتغيـر له وجه خاله وبـنيه وكأنهم انحـصروا (ضاقوا) منه وأوحى الله تعالى إلى يعـقوب أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه ووعده بأن يكون معـه فعرض ذلك على أهله فأجابوه مبـادرين إلى طاعته فتحمل بأهلـه وماله، وسرقت «راحيل» أصنام أبيها فلمـا جاوزوا وتحيزوا عن بلادهم لحقهم «لابان» وقومه، فلما اجـتمع «لابان» بيعقوب عاتبه فى خروجه بغيـر علمه وهلاَّ أعلمه فيخرجهم فى فـرح ومزاهر وطبول وحتى يودِّع بناته وأولادهن، ولِمَ أخذوا أصنامـه معهم، ولم يكن عند يعـقوب علم من أصنامـه فـأنكر أن يكون أخـذوا له أصنامًـا فـدخل بيـوت بناته وإمائهن يفتش فلم يجد شيئًا وكانت «راحيل» قد جعلتهن فى بردعة الجمل وهى تحتـها فلم تقم واعتـذرت بأنها طامث فلم يقدر عليـهن، فعند ذلك تواثقوا على رابية هناك يقال لهـا «جلعاد» على أنه لا يهين بناته ولا يتزوج عليهن، ولا يجاوز هذه الرابيـة إلى بلاد الآخر، لا «لابان» ولا يعقوب، وعمـلا طعامًا وأكل القـوم معهم وتودَّع كل منهـما من الآخر، وتفـارقوا راجعين إلى بلادهم، فلما اقترب يعقـوب من أرض «ساعير» تلقته الملائكة يبشرونه بالقدوم وبعث يعقوب البُرُد (الرسل) إلى أخيه «العيصو» يترفق له ويتواضع له. فرجـعت البرد وأخبرت يعقوب بأن «العـيص» قد ركب إليه فى أربعمائة راجل فخشى يعقوب من ذلك، ودعا الله عز وجل وصلى له وتضرع إليه وتمسكن لديه، وناشده عهده ووعده الذى وعده به. وسأله أن يكف عنه شر أخـيه «العيص» وأعـد لأخيه هدية عظيـمة وهى مائتـا شاة وعشـرون تيسًا، ومـائتا نعجة، وعـشرون كبـشًا، وثلاثون لقحـة (الناقة الحلوب)، وأربعون بقرة، وعشرة من الثـيران، وعشرون أتانًا، وعشرة من

الحُمُر، وأمر عبيده أن يسوقوا كلا من هذه الأصناف وحده وليكن بين كل قطيع وقطيع مسافة، فإذا لقيهم «العيص» فقال للأول لمن أنت؟ ولمن هذه معك؟ فليقل لعبدك يعقوب أهداها لسيدى «العيص» وليقل الذى بعده كذلك، وكذلك الذى بعده، وكذا الذى بعده، ويقول كل منهم وهو جاءٍ بعدنا.

وتأخر يعقوب بزوجتيه وأمتيه وبنيه الأحد عشر بعد الكل بليلتين، وجعل يسير فيهما ليلاً ويكمن نهاراً، فلما كان وقت الفجر من الليلة الثانية، تبدَّى له ملك من الملائكة فى صورة رجل فظنه يعقوب رجلاً من الناس فأتاه يعقوب ليصارعه ويغالبه فظهر عليه يعقوب فيما يرى، إلا أن الملك أصاب وركه فعرج يعقوب. فلما أضاء الفجر قال له الملك: ما اسمك؟ قال يعقوب. قال: لا ينبغى أن تدعى بعد اليوم إلا إسرائيل، فقال له يعقوب: ومن أنت؟ وما اسمك؟ فذهب عنه. فعلم أنه ملك من الملائكة وأصبح يعقوب وهو يعرج من رجله. فلذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء!.

ورفع يعقوب عينيه فإذا أخوه «عيصو» قد أقبل فى أربعمائة راجل فتقدم أمام أهله. فلما رأى أخاه العيص سجد له سبع مرات وكانت هذه تحيتهم فى ذلك الزمان. وكان مشروعًا لهم، كما سجدت الملائكة لآدم تحية له، وكما سجد إخوة يوسف وأبوه كما سيأتى.

فلما رآه «العيص» تقدم إليه واحتضنه وقبَّله وبكى، ورفع «العيص» عينيه ونظر إلى النساء والصبيان فقال: من أين لك هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الذين وهب الله لعبدك، فدنت الأمتان وبنوهما فسجدوا له. ودنت «ليا» وبنوها فسجدوا له، ودنت «راحيل» وابنها يوسف فخرا سجداً له. وعرض عليه أن يقبل هديته وألحَّ عليه فقبلها. ورجع العيص فتقدم أمامه، ولحقه يعقوب بأهله وما معه من الأنعام والمواشى والعبيد قاصدين جبال ساعير فلما مر بساحور ابتنى له بيتًا، ثم مرَّ على أورشليم (قرية شخيم)

فنزل قبل القرية، واشـترى مزرعة شخـيم بن جمور بمائة نعجـة، فضرب هنالك فـسطاطه، ،وابتنى ثَمَّ مذبحـًا فـسـماه «إيل» إله إسرائـيل وأمر الله ببنائه ليـستعلن له فـيه. وهو بيت المقـدس اليوم، الذى جـدده بعد ذلك سليمـان بن داود عليهما السـلام. وهو مكان الصخرة التى علَّمـها بوضع الدهن عليها قبل ذلك كما ذكرنا أولاً.

وذكر أهل الكتـاب هنا قصة «دينا بنت يعـقوب بنت ليا» ومـا كان من أمرها مع شـخيم بن جمور الذى قـهرها على نفسهـا، وأدخلها منزله ثم خطبها من أبيها وإخوتها، فـقال إخوتها: إلا أن تختتنوا كلكم فنصاهركم وتصاهرونا فإنا لا نصـاهر قومًا غُلفا فأجـابوهم إلى ذلك واختتنوا كلهم. فلما كان اليوم الثالث واشتد وجعهم من ألم الختان مال عليهم بنو يعقوب فقتلوهم عن آخـرهم وقتلوا شخيمـًا وأباه جمور لقبيح مـا صنعوا إليهم، مضافًا إلى كفرهم وما كانوا يعـبدونه من أصنامهم فلهذا قتلهم بنو يعقوب وأخذوا أموالهم غنيمة.

ثم حملت «راحـيل» فولدت غلامـًا هو «بنيامين» إلا أنها جـهدت فى طلقها به جـهدًا شديدًا وماتت عقـيبه، فدفنها يعـقوب فى «أفراث» وهى بيت لحم، وصنع يعقـوب على قبرها حجـرًا وهى الحجارة المعروفـة بقبر راحيل إلى اليوم، وكان أولاد يعقوب الذكور اثنا عشر رجلاً.

فمن «ليا». روبيل، وشمعون، ولاوى، ويهوذا، وإيساخر، وزابلون.

ومن «راحيل» يوسف، وبنيامين.

ومن أمة «راحيل» دان، ونفتالى.

ومن أمة «ليا». جاد، وأشير.

وجاء يعقـوب إلى أبيه إسحاق فأقام عنده بقـرية حبرون التى فى أرض كنعان حـيث كان يسكن إبراهيم الخليل عليـه السلام. ثم مرض إسـحاق ومات عن مائة وثمانين سنة ودفنه ابناه العـيص، ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل فى المغارة التى اشتراها كمـا قدمنا (وردت هذه الأخبار عن يعقوب وأخيه فى العهد القديم ولم تتعرض المصادر الإسلامية لها). اهـ.

قصة يوسف عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ④ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ⑤ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٤-٦].

قد قدمنا أن يعقوب كان له من البنين اثنا عشر ولدًا ذكرًا وسميناهم وإليهم تُنسب أسباط بنى إسرائيل كلهم، وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف عليه السلام.

وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبى غيره وباقى إخوته لم يوح إليهم.

وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم فى هذه القصة يدل على هذا القول. ومَن استدل على نبوتهم بقوله: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ [آل عمران: ٨٤]. وزعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقوى؛ لأن المراد بالأسباط شعوب بنى إسرائيل وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحى من السماء.. والله أعلم.

ومما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوة - أنه لم يُنَص على واحد من إخوته سواه فدل على ما ذكرناه.

قال المفسرون وغيرهم: رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم كأن أحد عشر كوكبًا «وهم إشارة إلى بقية إخوته»، والشمس

والقمر «وهما عبارة عن أبويه» قد سجدوا له، فهاله ذلك. فلما استيقظ قصها على أبيه فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة فى الدنيا والآخرة بحيث يخضع له أبوه وإخوته فيها. فأمره بكتمانها وأن لا يقصها على إخوته، كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر، وهذا يدل على ما ذكرناه.

ولهذا جاء فى بعض الآثار «استعينوا على قضاء حوائجكم بكتمانها فإن كل ذى نعمة محسود» ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ أى وكما أراك هذه الرؤيا العظيمة، فإذا كتمتها ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ أى يخصك بأنواع اللطف والرحمة. ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ أى يُفْهمك من معانى الكلام وتعبير المنام ما لا يفهمه غيرك. ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أى بالوحى إليك. ﴿ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ أى بسببك، ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ أى ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة كما أعطاها أباك يعقوب وجدك إسحاق، ووالد جدك إبراهيم عليه السلام «إن ربك عليم حكيم» كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

لهذا قال رسول الله ﷺ لما سئل: أى الناس أكرم؟ قال: «يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله».

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [يوسف: ٧-١٠].

ينبه تعالى على ما فى هذه القصة من الآيات والحِكَم والدلالات والمواعظ والبينات. ثم ذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له

ولأخيه - يعنون شقيقه لأمه «بنيامين» - أكثر منهم، وهم عصبة أى جماعة. يقولون: كنا نحن أحق بالمحبة من هذين ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [**يوسف**: ٨] أى بتقديمه حبهما علينا، ثم اشتوروا فيما بينهم فى قتل يوسف أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها، ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أى لتتمحض محبته لهم وتتوفر عليهم، وأضمروا التوبة بعد ذلك. فلما تمالئوا على ذلك وتوافقوا عليه ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾: قال مجاهد: هو شمعون، وقال السدى: هو يهوذا.

وقال قتادة ومحمد بن إسحاق: هو أكبرهم روبيل، ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أى المارة من المسافرين ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ما تقولون لا محالة، فليكن هذا الذى أقول لكم، فهو أقرب حالاً من قتله أو نفيه وتغريبه. فأجمعوا رأيهم على هذا، فعند ذلك طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف، وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم، وأن يلعب وينبسط، وقد أضمروا له ما الله به عليم. فأجابهم الشيخ عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم: يا بَنى يَشُقُّ على أن أفارقه ساعة من النهار، ومع هذا أخشى أن تشتغلوا فى لعبكم وما أنتم فيه فيأتى الذئب فيأكله، ولا يقدر على دفعه عنه لصغره وغفلتكم عنه. قالوا: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا، أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة، إنا إذًا لخاسرون: أى عاجزون هالكون. ولم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم، فما كان إلا أن غابوا عن عينيه، حتى أخذوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال، وأجمعوا على إلقائه فى غيابة الجب أى فى قعره على راعونته، (وهى الصخرة التى تكون فى وسطه) يقف عليها (الماتح)، وهو الذى ينزل ليملأ الدلاء إذا قل الماء، الذى يرفعها بالحبل يسمى «الماتح» أيضًا.

فلما ألقوه فيه، أوحى الله إليه: أنه لابد لك من فرج ومخرج من هذه الشدة التى أنت فيها، ولتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا فى حال أنت فيها

عزيز، وهم محتاجون إليك خائفون منك، ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾.

قال مجاهد وقتادة: وهم لا يشعرون بإيحاء الله إليه ذلك. وعن ابن عباس: ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ أى لتخبرنهم بأمرهم هذا فى حال لا يعرفونك فيها، رواه ابن جرير عنه.

فلما وضعوه ورجعوا عنه، أخذوا قميصه فلطخوه بشىء من دم، ورجعوا إلى أبيهم عشاء وهم يبكون، أى على أخيهم. ولهذا قال بعض السلف: لا يغرنك بكاء المتظلم فرب ظالم وهو باك! وذكر بكاء إخوة يوسف.. وقد جاءوا أباهم عشاء يبكون، أى فى ظلمة الليل، ليكون أمشى لغدرهم لا لعذرهم. ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا (ثيابنا) فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ (فى غيبتنا عنه فى استباقنا) وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ وما أنت بمصدق لنا فى الذى أخبرناك من أكل الذئب له، ولو كنا غير متهمين عندك. فكيف وأنت تتهمنا فى هذا؟ فإنك خشيت أن يأكله الذئب، وضمنا لك أن لا يأكله لكثرتنا حوله، فصرنا غير مصدَّقين عندك، فمعذور أنت فى عدم تصديقك لنا والحالة هذه.

﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أى مكذوب مفتعل لأنهم عمدوا إلى سَخلة ذبحوها، فأخذوا من دمها فوضعوه على قميصه، ليوهموه أنه أكله الذئب. قالوا: ونسوا أن يخرقوه، وآفة الكذب النسيان، ولما ظهرت عليهم علائم الريبة لم يَرُجْ صنيعهم على أبيهم فإنه كان يفهم عداوتهم له، وحسدهم إياه على محبته له من بينهم أكثر منهم، لما كان يتوسم فيه من الجلالة والمهابة التى كانت عليه فى صغره، لما يريد الله أن يخصه به من نبوته.

ويخبر تعالى عن يوسف حين وضع فى الجب: أنه جلس ينتظر فرج الله ولطفه به، فجاءت سيارة «أى مسافرون» قال أهل الكتاب: كانت بضاعتهم من الفستق والصنوبر والبطم قاصدين ديار مصر من الشام،

فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر، فلما أدلى أحدهم دلوه تعلق فيه يوسف، فلما رآه ذلك الرجل **﴿قَالَ يَا بُشْرَىٰ﴾** أى يا بشارتى **﴿هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾** أى أوهموا أنه معهم غلام من جملة متَّجرهم «**والله عليم بما يعملون**» أى هو عالم بما تمالأ عليه إخوته، وبما يُسِره واجدوه من أنه بضاعة لهم. ومع هذا لا يغيره تعالى، لما له فى ذلك من الحكمة العظيمة والقدَر السابق والرحمة بأهل مصر بما يجرى الله على يدى هذا الغلام الذى يدخل فى صورة أسير رقيق، ثم بعد هذا يملكه أزمة الأمور وينفعهم الله به فى دنياهم وأخراهم بما لا يحد ولا يوصف.

ولما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له لحقوهم وقالوا: هذا غلامنا (أى مملوكنا) أبق منا، فاشتروه منهم بثمن بخس، أى قليل نزر، وقيل: هو الزيف **﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾** ولم يتكلم يوسف وهو يرى نفسه يباع خوفًا من أن يقتلوه. قال ابن مسعود، وابن عباس، ونوف البكالى، والسدى، وقتادة، وعطية العوفى: باعوه بعشرين درهمًا، اقتسموها درهمين. وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهمًا، وقال عكرمة ومحمد بن إسحاق: أربعون درهمًا. ثم لما وصل المشترون إلى مصر باعوه، وكان الذى اشتراه من أهل مصر عزيزها وهو الوزير بها، الذى الخزائن مسلمة إليه. واسمه «أطفير بن روحيب»، وكان ملك مصر يومئذ «الريان بن الوليد» رجل من العماليق. واسم امرأة العزيز «راعيل بنت رمابيل» وقيل: كان اسمها «زليخا» والظاهر أنه لقبها.

وعن ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته «**أكرمى مثواه**»، والمرأة التى قالت لأبيها عن موسى: **﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾** [القصص: ٢٦]، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنهما.

ثم قيل: اشتراه العزيز بعشرين دينارًا، وقيل: بوزنه مسكًا، أو وزنه حريرًا أو وزنه ورَقًا (فضة).

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ أى وكما قيضنا هذا العزيز وامرأته يحسنان إليـه ويعتنيان به مكنا له فى أرض مصر فـإن كل محبوب متمكن، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ أى فهمها، وتعبير الرؤيا من ذلك. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ أى إذا أراد شيئًا فـإنه يقيض له أسبابًا وأمورًا لا يهتدى إليها العباد، ولهـذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢١، ٢٢] فـدل على أن هذا كله كـان وهو قبل بلوغ الأشـد، وهو حد الأربـعين الذى يوحى الله فيـه إلى عباده النـبيين عليهـم الصلاة والسلام من رب العالمين. ثم يـذكر تعالى ما كان من مـراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبـها منه ما لا يليق بحاله ومقامه، وهى فى غاية الجـمال والمال. والمنصب والشبـاب وكيف غلَّقت الأبواب عليـها وعليه. وتهيأت له وتصنعت ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها، وهى مع هذا كله امرأة الوزير.

قال ابن إسحاق: وبنت أخت الملك الريان بن الوليد صاحب مصر.

وهذا كله مع أن يوسف عليه السـلام شاب بديع الجمال والبـهاء إلا أنه نبى من سلالة الأنبياء، فعصمه ربه عن الفحشاء، وحماه عن مكر النساء.

والمقصود: أنـها دعته إليهـا وحرصت على ذلك أشد الحـرص، فقال: «معاذ الله إنه ربى» يعنى زوجها صاحب المنزل سيدى ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أى أحسن إلىَّ وأكرم مقامى عنده ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ وأكثر أقوال المفسرين ههنا مـتلقى من كتب أهـل الكتاب. فـالإعراض عنهـا أولى بنا. والذى يجب أن يُعتـقد: أن الله تعالى عصمـه وبرأه ونزهه عن الفاحشـة وحماه عنها وصانه منها، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ أى هرب منها طالبًا الباب ليخرج منه فرارًا منها فاتبعته فى أثره ﴿ وَأَلْفَيَا ﴾ أى وجدا ﴿ سَيِّدَهَا ﴾ أى زوجها ﴿ لَدَا الْبَابِ ﴾ فبدرته بالكلام وحرضته عليه ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فاتهمته وهى المتهمة، وبرأت عرضها ونزهت ساحتها. فلهذا قال يوسف عليه السلام: ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ احتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة، ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قيل: كان صغيرًا فى المهد. قاله ابن عباس، وروى عن أبى هريرة، وهلال بن يساف والحسن البصرى، وسعيد بن جبير، والضحاك، واختاره ابن جرير، وروى فيه حديثًا مرفوعًا عن ابن عباس ووقفه غيره عليه.

وقيل: كان رجلاً قريبًا إلى «قطفير» بعلها، وقيل: قريبًا إليها. وممن قال: إنه كان رجلاً: ابن عباس وعكرمة، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والسدى ومحمد بن إسحاق، وزيد بن أسلم، وهنا تكلم الشاهد المذكور بالحكمة والعدل فقال: ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى لأنه قد يكون راودها فدافعته حتى شقت مقدم قميصه ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أى لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك، وكذلك كان. ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾.

ثم أضرب بعلها عن هذا صفحًا فقال ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ أى لا تذكره لأحد، لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن، وأمرها بالاستغفار لذنبها الذى صدر منها والتوبة إلى ربها، فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه.

وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام، إلا أنهم يعلمون أن الذى يغفر

الذنوب ويؤاخذ بهـا هو الله وحده لا شريك له فى ذلك. ولهذا قـال لها بعلها، وعذرها من بعض الوجوه، لأنها رأت مـا لا صبر لها على مثله، إلا أنه عفيف نزيه العرض سليم الناحية فقال: ﴿اسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

ثم يذكر تعالـى ما كان من قِبَل نساء المدينة، مـن نساء الأمراء، وبنات الكبراء فى الطعن على امرأة العـزيز وعيبها، والتشنيع عليـها فى مراودتها فتـاها، وحبهـا الشديد له، وهو لا يساوى هـذا؛ لأنه مولى من الموالى، وليس مثله أهلاً لهـذا. ولهذا قلن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ أى فى وضعها الشىء فى غير محله. ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أى بتشنيعهن عليها والتنقص لها والإشـارة إليها بالعـيب والمذمة بحب مولاها وعِشْق فـتاها، فأظهرن ذمـا وهى معذورة فى نفس الأمر، فلهذا أحـبت أن تبسط عذرها عندهن، وتبين أن هذا الفتى ليس كـما حسبن، ولا من قبـيل ما لديهن. فأرسلت إلـيهن فجـمعتـهن فى منزلها، وأعـتدت لهن ضـيافة مـثلهن، وأحضـرت فى جملة ذلك شـيئًـا مما يقطع بالسكاكين، كالأتـرج ونحوه، وآتت كل واحـدة منهن سكينًا، وكـانت قد هيـأت يوسف عليه السـلام، وألبسته أحسن الثياب وهو فى غـاية طراوة الشباب وأمرته بالخروج عليهن بهذه الحالة، فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أى أعظمنه، وأجلـلنه، وهبنه، ومـا ظـنن أن يكون مـثـل هذا فى بنى آدم، وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن، وجعلن يقطعن فى أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

وقد جاء فى حديث الإسراء: «فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن».

قال السهيلى وغيره من الأئمة: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام، لأن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، فكان فى غاية نهايات الحسن البشرى. ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم وحسنه. ويوسف كان على النصف من حسن آدم ولم يكن بينهما أحسن منهما كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة امرأة الخليل عليه السلام.

قال ابن مسعود: وكان وجه يوسف مثل البرق، وكانت إذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه. وقال غيره: كان فى الغالب مبرقعًا لئلا يراه الناس ولهذا لما قام بينهن عذرن امرأة العزيز فى محبتها لهذا المعنى المذكور، وجرى لهن وعليهن ما جرى من تقطيع أيديهن وجراح السكاكين، وما ركبهن من المهابة والدهش عند رؤيته ومعاينته.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ ثم مدحته بالعفة التامة فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أى امتنع ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾. وكان بقية النساء حرضنه على السمع والطاعة لسيدته، فأبى أشد الإباء، ونأى لأنه من سلالة الأنبياء، ودعا فقال فى دعائه لرب العالمين: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣)﴾ يعنى إن وكلتنى إلى نفسى، فليس لى من نفسى إلا العجز والضعف، ولا أملك لنفسى نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله. فأنا ضعيف إلا ما قويتنى وعصمتنى بحولك وقوتك.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾

[يوسف: ٣٤، ٣٥].

فيذكر تعالى عن العزيز وامرأته أنهم بدا لهم، أى ظهر لهم من الرأى بعد ما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت، ليكون ذلك أقل لكلام الناس فى تلك القضية، وأحْمَد لأمرها، وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها، فسجنوه ظلمًا وعدوانًا، وكم فى السجون من مظلومين!!! وكان هذا مما قدر الله تعالى له، ومن جملة ما عصمه به، فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم. ومن ههنا استنبط بعض الصوفية ما حكاه عنهم الشافعى: أن من العصمة أن لا تجد!!.

قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ قيل: كان أحدهما ساقى الملك والآخر خبازه الذى يلى طعامه، وكان الملك قد اتهمهما فى بعض الأمور فسجنهما فلما رأيا يوسف فى السجن أعجبهما سمته وهديه وكثرة عبادته ربه، فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه.

قال أهل التفسير: رأيا فى ليلة واحدة: أما الساقى فرأى كأن ثلاثة قضبان من قضب الكرم قد أورقت وأينعت عناقيد العنب، فأخذها فاعتصرها فى كأس الملك وسقاه.

ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز، وضوارى الطيور تأكل من السلة العليا، فقصَّاها عليه، وطلبا منه أن يعبرها لهما وقالا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فأخبرهما أنه عليم بتعبيرها خبير بأمرها، ثم قال: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا (٣٧)﴾ [يوسف: ٣٧] معناه: أنى أخبركم بما يأتيكما من الطعام قبل مجيئه حلوًا أو حامضًا، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾

[آل عمران: ٤٩]

وقال لهما: إن هذا من تعليم الله تعالى إياى لأنى مؤمن به موحد له متبع ملة آبائى الكرام: إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب.

ثم دعاهم إلى التوحيد وذم عبادة ما سوى الله عز وجل، وصغَّر أمر الأوثان وحقرها وضعف أمرها.

وكانت دعـوته لهمـا فى هذه الحال فى غـاية الكمال، لأن نفـوسهـما معظمة له مستعدة أن تتلقى مـا يقول بالقبول، فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه.

ثم لما قـام بما وجب عليه وأرشـد إلى ما أرشـد إليه قـال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ وهو الساقى. ﴿وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾ وهو الخباز ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أى وقع هذا لا محالة.

ثم يخبـر تعالى أن يوسف قـال للذى ظنه ناجيـا منهمـا وهو الساقى: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، يعنى اذكر أمرى وما أنا فيـه من السجن بغير جرم عند الملك. وفى هذا دليل على جواز السعى فى الأسباب، ولا ينافى ذلك التوكل على رب الأرباب، فأنسى الناجىَ منهما الشيطانُ أن يذكر ما وصاه به يوسف عليه السـلام. قاله مجاهد، ومحـمد بن إسحاق وغـير واحد. وهو الصواب وهو منصـوص أهل الكتاب ﴿فَلَبِثَ﴾ يوسف ﴿فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع.

ثم إن ملك مصر وهو الريان بن الوليد رأى كأنه على حافة نهر، وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان، فجعلن يرتعن فى روضة هناك، فخرجت سبع هزال ضـعاف من ذلك النهـر فرتعن معـهن ثم مِلن عليهن فـأكلنهن فاستيقظ مذعورًا. ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر فى قصبة واحدة، وإذا سبع أُخر دقاق يابسات فأكلنهن، فاستيـقظ مذعوراً. فلما قصها على ملئه وقومـه ولم يكن فيهم مـن يحسن تعبـيرها، ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ أى أخلاط أحلام من الليل لعلها لا تعبيـر لها، ومع هذا فلا خبرة لنا بذلك. ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ فعند ذلك تذكّـر ساقى الملك أمر يوسف ومـا كان أوصاه به، فقال لقـومه وللملك: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم

بتأويله فأرسلون﴾ إلى يوسف فجـاءه فقال: ﴿يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون﴾ [يوسف: ٤٦]. فبذل يوسف عليه السلام مـا عنده من العلم بلا تأخـر ولا شرط، ولا طلب الخـروج سريعًـا، بل أجابهم إلى ما سألوه، وعبـر لهم ما كان من منام الملك، الدال على وقوع سبع سنين من الخصب ويعقـبها سبع جدب ﴿ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس﴾ يعنى يأتيهـم الغيث والخصب والرفـاهية ﴿وفيه يعصرون﴾ يعنى مـا كانوا يعـصـرونه من الأقصـاب والأعناب والزيتـون والسمـسم وغيـرها. فعـبَّر لهم وأرشـدهم إلى ما يـعتمـدونه فى حالـتى خصبـهم وجدبهم، وما يفعلونه من ادخار حبوب سنى الخصب فى السبع الأول فى سنبله، إلا ما يرصد بسـبب الأكل، ومن تقليل البذر فى سنى الجدب فى السبع الثانية، إذ الغـالب على الظن أنه لا يرد البذر من الحقل، وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأى والفهم.

لما أحـاط الملك علمًا بكمـال علم يوسف عليـه الصلاة والسـلام وتمام عقله، ورأيه السديد وفـهمه، أمر بإحضاره إلى حـضرته ليكون من جملة خاصته فلما جاءه الرسـول بذلك أحبَّ أن لا يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حُبِسَ ظلمًا وعـدوانًا، وأنه برىء الساحة مما نسبوه إليـه بهتانًا. ﴿قال ارجع إلىٰ ربك﴾ يعنى الملك ﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم﴾ قيـل معناه: إن سـيدى العـزيز يعلم براءتى مما نسب إلىَّ، أى فمر الملك فليـسألهن: كيف كان امتناعـى الشديد عند مراودتهن إياى؟ وحثهن لى على الأمر الذى ليس برشيد ولا سديد؟.

فلما سُئلن عن ذلك اعترفـن بما وقع من الأمر، وما كان منه من الأمر الحميد ﴿قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء﴾.

فعند ذلك ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ وهى زليخا ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أى ظهر وتبين ووضح، والحق أحق أن يتبع ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أى فيما يقوله، ومن أنه برىء وأنه لم يراودنى، وأنه حُبس ظلمًا وعدوانًا، وزورًا وبهتانًا.

وقوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ قيل: إنه من كلام يوسف، أى إنما طلبت تحقيق هذا ليعلم العزيز أنى لم أخنه بظهر الغيب. وقيل: إنه من تمام كلام زليخا، أى إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجى أنى لم أخنه فى نفس الأمر، وإنما كان مراودة لم يقع معها فعل فاحشة، وهذا القول هو الذى نصره طائفة كثيرة من أئمة المتأخرين وغيرهم. ولم يحك ابن جرير وابن أبى حاتم سوى الأول.

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قيل: إنه من كلام يوسف، وقيل: من كلام زليخا وهو مفرع على القولين الأولين وكونه من تمام كلام زليخا أظهر وأنسب وأقوى.

ولما ظهر للملك براءة عرضه، ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أجعله من خاصتى، ومن أكابر دولتى، ومن أعيان حاشيتى فأخرجوه من السجن معززًا مكرمًا وأحضروه لدى الملك فلما كلمه وسمع ما قاله وتبيَّن حاله ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أى ذو مكانة وأمانة.

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ طلب أن يوليه النظر فيما يتعلق بالمخازن لما يتوقع من حصول الخلل فيها بعد مُضِىٍّ سبع سنى الخصب، لينظر فيها بما يرضى الله فى خلقه، من الاحتياط لهم والرفق بهم، وأخبر الملك أنه حفيظ، أى قوىٌّ على حفظ ما لديه أمين عليه، عليم بضبط الأشياء ومصالح المخازن. وفى هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة.

وعند أهل الكتاب: أن فرعون عظَّم يوسف عليه السلام جدًا، وسلَّطه على جميع أرض مصر، ، وألبسه خاتمه، وألبسه الحرير وطوَّقه الذهب وحمله على مركبه الثانى، ونودى بين يديه: أنت رب ومسلط، وقال له: لست أعظم منك إلا بالكرسى.

قالوا: وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة، وزوَّجه امرأة عظيمة الشأن.

وحكى الثعلبى أنه عزل قطفير عن وظيفته وولاها يوسف.

وقيل: إنه لما مات زوجه امرأته زليخا فوجدها عذراء، لأن زوجها كان لا يأتى النساء، فولدت ليوسف عليه السلام رجلين وهما: أفرايم، ومنسا. قال: واستوثق ليوسف ملك مصر، وعمل فيهم بالعدل فأحبه الرجال والنساء.

وحكى أن يوسف كان يوم دخل على الملك عمره ثلاثين سنة، وأن الملك خاطبه بسبعين لغة، وفى كل ذلك كان يجاوبه بكل لغة منها، فأعجبه ذلك مع حداثة سنه.. فالله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ** ﴾ فهو بعد السجن والضيق والحصر، صار مطلق الركاب بديار مصر ﴿ **يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ** ﴾ أى أين شاء حلَّ منها مكرمًا محسودًا معظمًا ﴿ **نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴾.

وذكر محمد بن إسحاق أن صاحب مصر - الوليد بن الريان - أسلم على يدى يوسف عليه السلام.. فالله أعلم.

ثم يُخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف عليه السلام إلى الديار المصرية يمتارون طعامًا، وذلك بعد إتيان سنى الجدب وعمومها على سائر البلاد والعباد.

وكان يوسف عليه السلام إذ ذاك الحاكم فى أمور الديار المصرية دينًا ودنيا. فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه، لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة فلهذا عرفهم وهم له منكرون.

وعند أهل الكتاب أنهم لما قدموا عليه سجدوا له فعرفهم، وأراد أن لا يعرفوه فأغلظ لهم فى القول، وقال: أنتم جواسيس جئتم لنا لتأخذوا خير بلادى. فقالوا: معاذ الله إنما جئنا نمتار لقومنا (نجلب لهم طعامًا) من الجهد والجوع الذى أصابنا، ونحن بنو أب واحد من كنعان، ونحن اثنا عشر رجلاً، ذهب منا واحد وصغيرنا عند أبينا فقال: لابد أن أستعلم أمركم. وعندهم: أنه حبسهم ثلاثة أيام ثم أخرجهم، واحتبس شمعون عنده ليأتوه بالأخ الآخر. قال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ** ﴾ أى أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته من إعطاء كل إنسان حمل بعير لا يزيد عليه ﴿ **قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ** ﴾ وكان قد سألهم عن حالهم، وكم هم؟ فقالوا: كنا اثنى عشر رجلاً، فذهب منا واحد وبقى شقيقه عند أبينا. فقال: إذا قدمتم من العام المقبل فأتونى به معكم ﴿ **أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ** ﴾ أى قد أحسنت نزلكم وقراكم، فرغبهم ليأتوه به ثم رهبهم إن لم يأتوه به فقال: ﴿ **فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ** ﴾ أى فلست أعطيكم ميرة ولا أقربكم بالكلية، عكس ما أسدى إليهم أولاً. فاجتهد فى إحضاره معهم ليبل شوقه منه بالترغيب والترهيب ﴿ **قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ** ﴾ أى سنجتهد فى مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن ﴿ **وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ** ﴾ أى وإنا لقادرون على تحصيله.

ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضاعتهم وهى ما جاءوا به يتعوضون به عن الميرة فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ قيل: أراد أن يردوها إذا وجدوها فى بلادهم،

وقيل: خشى أن لا يكون عندهم ما يرجعون به مرة ثانية، وقيل: تذمم أن يأخذ منهم عوضًا عن الميرة.

وقد اختلف المفسرون فى بضاعتهم على أقوال سيأتى ذكرها.

وعند أهل الكتاب: أنها كانت صررًا من ورق، وما أشبه.

ويذكر تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم وقولهم له: ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ أى بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا، فإن أرسلته معنا لم يمنع منا.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ أى شىء نريد وقد ردت إلينا بضاعتنا؟ ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أى نمتار لهم ونأتيهم بما يصلحهم فى سنتهم ومحلهم، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ﴾ بسببه ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أى فى مقابلة ذهاب ولده الآخر.

وكان يعقوب عليه السلام أضن شىء بولده بنيامين، لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه ويتسلى به عنه، ويتعوض بسببه منه. ولهذا قال: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أى إلا أن تغلبوا كلكم عن الإتيان به ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ فقد أكد المواثيق وقرر العهود، واحتاط لنفسه فى ولده، ولن يغنى حذر من قدر: ولولا حاجته وحاجة قومه إلى الميرة لما بعث الولد العزيز، ولكن الأقدار لها أحكام، والرب تعالى يقدر ما يشاء ويختار ما يريد، ويحكم ما يشاء وهو الحكيم العليم.

ثم أمر أن لا يدخلوا المدينة من باب واحد، ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة.

قيل: أراد أن لا يصيبهم أحد بالعين، وذلك لأنهم كانوا أشكالاً حسنة

وصوراً بديعة. قاله ابن عباس، ومجاهد، ومحمد بن كعب، وقتادة، والسدى. والضحاك.

ولهذا قال: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨].

وعند أهل الكتاب: أنه بعث معهم هدية إلى العزيز من الفستق واللوز والصنوبر، والبطم والعسل، وأخذوا الدراهم الأولى وعرضًا آخر.

ويذكر تعالى ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف وإيوائه إليه، وإخباره له سرا عنهم بأنه أخوه، وأمره بكتم ذلك عنهم. وسلاَّه عما كان منهم من الإساءة إليه.

ثم احتال على أخذه منهم وتركه إياه عنده دونهم، فأمر فتيانه بوضع سقايته، وهى التى كان يشرب بها ويكيل بها للناس الطعام، عن غرة فى متاع بنيامين، ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صُواع الملك، ووعدهم جعالة على رده حملَ بعير، وضمنه المنادى لهم. فأقبلوا على من اتهمهم بذلك فأنَّبوه وهجنوه فيما قاله لهم ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ يقولون: أنتم تعلمون منا خلاف ما رميتمونا به من السرقة.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ وهذه كانت شريعتهم: أن السارق يدفع إلى المسروق منه. ولهذا قالوا: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ

أَخِيهِ﴾ ليكون ذلك أبعد للتهمة وأبلغ فى الحيلة، ثم قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أى لولا اعترافهم بأن جزاءه من وُجِدَ فى رحله فهو جزاؤه لما كان يقدر يوسف على أخذه منهم فى سياسة ملك مصر ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ أى فى العلم، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم، وأتم رأيًا، وأقوى عزمًا وحزمًا، وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له فى ذلك؛ لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك: من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه. فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنيامين ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ يعنون يوسف، قيل: كان قد سرق صنم جده أبى أمه فكسره. وقيل: كانت عمته قد علقت عليه بين ثيابه وهو صغير منطقة كانت لإسحاق ثم استخرجوها من بين ثيابه وهو لا يشعر بما صنعت، وإنما أرادت أن يكون عندها وفى حضانتها لمحبتها له. وقيل: كان يأخذ الطعام من البيت فيطعمه الفقراء. وقيل غير ذلك. فلهذا قالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ وهى كلمته بعدها، وقوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أجابهم سرا لا جهرًا، حلمًا وكرمًا وصفحًا وعفوًا، فدخلوا معه فى الترفق والتعطف فقالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ أى إن أطلقنا المتهم وأخذنا البرىء وهذا ما لا نفعله ولا نسمح به، وإنما نأخذ من وجدنا متاعنا عنده.

ويقول تعالى مخبرًا عنهم لما استيأسوا من أخذه منه: خلصوا يتناجون فيما بينهم، قال كبيرهم وهو روبيل: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم

﴿مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ لتأتننى به إلا أن يحاط بكم؟ لقد أخلفتم عهده، وفرطتم فيه كما فرطتم فى أخيه يوسف من قبله، فلم يبق لى وجه أقابله به ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ﴾ أى لا أزال مقيمًا ههنا ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ فى القدوم عليه، ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ بأن يقدرنى على رد أخى إلى أبى، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ .

﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ أى أخبروه بما رأيتم من الأمر فى ظاهر المشاهدة ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف: ٨١، ٨٢] أى فإن هذا الذى أخبرناك به - من أخذهم أخانا لأنه سرق - أمر اشتهر بمصر وعلمه العير التى كنا نحن وهم هناك ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ .

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أى ليس الأمر كما ذكرتم، لم يسرق، فإنه ليس سجية له ولا خلقه. وإنما ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾

قال ابن إسحاق وغيره: لما كان التفريط منهم فى بنيامين مترتبًا على صنيعهم فى يوسف قال لهم ما قال. وهذا كما قال بعض السلف: إن من جزاء السيئة السيئة بعده ثم قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يعنى يوسف وبنيامين وروبيل، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بحالى وما أنا فيه من فراق الأحبة ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما يقدره ويفعله، وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أى أعرض عن بنيه ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ذكَّره حزنه الجديد بالحزن القديم، وحرَّك ما كان كامنًا.

وقوله: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ أى من كثرة البكاء. ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف.

فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوَجد وألم الفراق ﴿قَالُوا﴾ له على وجه الرحمة والرأفة والحرص عليه: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾.

يقولون: لا تزال تتذكره حتى ينحل جسدك وتضعف قوتك، فلو رفقت بنفسك كان أولى بك.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ يقول لبنيه: لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه، إنما أشكوه إلى الله عز وجل، وأعلم أن الله سيجعل لى مما أنا فيه فرجًا ومخرجًا، وأعلم أن رؤيا يوسف لابد أن تقع، وأسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى، ولهذا قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾

ثم قال لهم محرضًا على تطلب يوسف وأخيه، وأن يبحثوا عن أمرهما: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ أى لا تيأسوا من الفرج بعد الشدة، فإنه لا ييأس من روح الله وفرجه، وما يقدره من المخرج فى المضايق، إلا القوم الكافرون.

ويخبر تعالى عن رجوع إخوة يوسف إليه وقدومهم عليه، ورغبتهم فيما لديه من الميرة، والصدقة عليهم برد أخيهم بنيامين إليهم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ أى من الجدب وضيق الحال وكثرة العيال، ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ أى ضعيفة لا يقبل مثلها منا إلا أن تتجاوز عنا. قيل: كانت دراهم رديئة، وقيل: قليلة.

﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا (بقبولها) إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾

[يوسف: ٨٨].

فلما رأى ما هم فيه من الحال وما جاءوا به مما لم يبق عندهم سواه من

ضعيف المـال، تعرَّف إليهم وعطف عليهم قـائلاً لهم عن أمر ربه وربهم، وقد كشف لهم عن جبينه الشريف، وما يحويه من الحال الذي يعرفونه فيه ﴿ **هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ** ﴾. ﴿ **قَالُوا** ﴾ : وتعجبوا كل العجب، وقد ترددوا إليه مرارًا عديدة وهم لا يعرفون أنه هو: ﴿ **أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ** ﴾؟».

﴿ **قَـالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي** ﴾ يعنى أنا يوسف الذى صنعـتم معـه ما صنعتم، وسلف من أمركم فيــه ما فرطتم. وقوله: ﴿ **وَهَذَا أَخِي** ﴾ تأكيد لما قال وتنبيه عـلى ما كان أضمروا له من الحسد، وعـملوا فى أمرهما من الاحتيال، ولهذا قال: ﴿ **قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا** ﴾أى بإحسانه إلينا وصدقته علينا، وإيوائه لنا وشده مـعاقد عـزنا، وذلك بما أسلفنا من طاعة ربنا، وصـبرنا على ما كان منكم إلينا، وطاعتنا وبرنا لأبينا، ومحبـته الشديدة لنا وشفقته علينا ﴿ **إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾.

﴿ **قَـالُوا تَاللَّهِ لَقَـدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا** ﴾ أى فـضلك وأعطاك مـا لم يعطنا، ﴿ **وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ** ﴾ أى فيمـا أسدينا إليك، وها نحن بين يديك ﴿ **قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ** ﴾ أى لست أعـاتبكم على ما كـان منكم بعـد يومكم هذا. ثم زادهم على ذلك فقال: ﴿ **يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾.

ومن زعم أن الوقف على قـوله «**لا تثريب عليكم**» وابتدأ بقوله: «**اليوم يغفر الله لكم**» فقوله ضعيف والصحيح الأول.

ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه وهو الذى يلى جسده فيضعوه على عينى أبيه، فإنه يـرجع إليه بصره بعد ما كـان ذهب بإذن الله. وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات.

ثم أمرهم أن يرحلوا بأهليهم أجمعين إلى ديار مصر، إلى الخير والدعة

وجمع الشمل بعد الفرقة، على أكمل الوجوه وأعلى الأمور.

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يوسف: ٩٤ - ٩٨].

قال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل عن أبى سنان، عن عبد الله بن أبى الهذيل، سمعت ابن عباس يقول: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ قال: لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال: ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ قال: فوجد ريحه من مسيرة ثلاثة أيام. وكذا رواه الثورى وشعبةوغيرهم عن أبى سنان به.

وقال الحسن البصرى وابن جريج المكى: كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخًا، وكان له منذ فارقه ثمانون سنة.

وقوله: ﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ أى تقولون إنما قلت هذا من الفند وهو الخرف وكبر السن.

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ قال قتادة والسدى: قالوا له كلمة غليظة.

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ أى بمجرد ما جاء ألقى القميص على وجه يعقوب فرجع من فوره بصيرًا بعد ما كان ضريرًا وقال لبنيه عند ذلك: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى أعلم أن الله سيجمع شملى بيوسف، وسيقر عينى به، وسيرينى فيه ومنه ما يسرنى. فمنذ ذلك ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا

﴿كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ فطلبوا منـه أن يستغـفر لهم الله عز وجل عـما كـانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه، وما كانوا عزموا عليـه، ولما كان من نيتهم التوبة قبل الفعل، وفقهم الله للاستغفار عند وقوع ذلك منهم. فأجابهم أبوهم إلى ما سألوا، ومـا عليه عَـوّلوا قائلاً: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فأخر الاستغفار إلى وقت السحر.

ثم أخبر تعالى عن حال اجتمـاع المتحابين بعد الفرقة الطويلة، التى قيل إنها ثمانون سنة: وقيل: ثلاث وثمـانون سنة، وهما روايتان عن الحسن، وقيل: خمس وثلاثون سنـة. قاله قتادة. وهو أقرب الأقـوال إلى الصحة كما سيأتى.

وقال محمد بن إسحاق: ذكـروا أنه غاب عنه ثمانى عشرة سنة. قال: وأهل الكتاب يزعمون أنه غاب عنه أربعين سنة.

وظاهر سياق القصة يُرشد إلى تحديد المدة تقريبًا، فإن المرأة راودته وهو شاب ابن سبع عشرة سنة، فيما قاله غير واحد، فامتنع. فكان فى السجن بضع سنين، وهى سـبع عند عكرمـة وغيـره. ثم أخـرج فكانت سنوات الخصب السبع، ثـم لما أمحل الناس فى السبع البواقى جـاء إخوته يمتارون فى السنة الأولى وحدهم، وفى الثانية ومعـهم أخوه «بنيامين»، وفى الثالثة تعرف إليهم وأمرهم بإحضار أهلهم أجمعين، فجاءوا كلهم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ واجتمع بهمـا خصوصًا وحدهما دون إخوته ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ .

قيل: هذا من المقـدَّم والمؤخَّر، تقـديره قال: ادخلوا مصـر، وآوى إليه أبويه. وضعـفه ابن جـرير وهو معذور. وقـيل: بل تلقاهمـا وآواهما فى منزل الخيـام، ثم لما اقتربوا من باب مـصر قال: ادخلوا مصـر إن شاء الله آمنين، قاله السدى، ولو قيل إن الأمر لا يحتاج إلى هذا أيضًا.

وأنه ضمن قوله: ﴿ادْخُلُوا﴾ بمعنى اسكنوا مصر، أو أقيموا بها: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ لكان صحيحًا سليما أيضًا.

وعند أهل الكتاب: أن يعقوب لما وصل إلى أرض جاشر - وهى أرض بلبيس - خرج يوسف لتلقيه، وكان يعقوب قد بعث ابنه يهوذا بين يديه مبشرًا بقدومه، وعندهم: أن الملك أطلق لهم أرض جاشر، يكونون فيها، ويقيمون بها بِنَعَمِهِمْ ومواشيهم.

وقد ذكر جماعة من المفسرين، أنه لما أزف قدوم نبى الله يعقوب - وهو إسرائيل - أراد يوسف أن يخرج لتلقيه، فركب معه الملك وجنوده، خدمة ليوسف وتعظيمًا لنبى الله (إسرائيل) وأنه دعا للملك، وأن الله رفع عن أهل مصر بقية سنى الجدب ببركة قدومه إليهم، فالله أعلم.

وكان جملة من قدم مع يعقوب من بنيه وأولادهم - فيما قاله أبو اسحاق السبيعى عن أبى عبيدة عن ابن مسعود - ثلاثة وستين إنسانًا.

وقال موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب، عن عبد الله بن شداد: كانوا ثلاثة وثمانين إنسانًا.

وقال أبو إسحاق عن مسروق: دخلوا وهم ثلاثمائة وتسعون إنسانًا.

قالوا: وخرجوا مع موسى وهم أزيد من ستمائة ألف مقاتل ، وفى نص أهل الكتاب: أنهم كانوا سبعين نفسًا وسموهم.

قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قيل: كانت أمه قد ماتت كما هو عند علماء التوراة. وقال بعض المفسرين: أحياها الله تعالى وقال آخرون: بل كانت خالته «ليا» والخالة بمنزلة الأم.

وقال ابن جرير وآخرون: بل ظاهر القرآن يقتضى بقاء حياة أمه إلى يومئذ، فلا يعول على نقل أهل الكتاب فيما خالفه. وهذا قوى.

ورفعهما على العرش، أى أجلسهما معه على سريره، ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أى سجد له الأبوان والإخوة الأحد عشر، تعظيمًا وتكريمًا، وكان هذا مشروعًا لهم، ولم يزل ذلك معمولاً به فى سائر الشرائع حتى حرم فى ملتنا.

﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ أى هذا تعبير ما كنت قصصته عليك من رؤيتى الأحد عشر كوكبًا والشمس والقمر حين رأيتهم لى ساجدين، وأمرتنى بكتمانها، ووعدتنى ما وعدتنى. عند ذلك ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ أى بعد الهم والضيق، جعلنى حاكمًا نافذ الكلمة فى الديار المصرية حيث شئت. ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ أى البادية. وكانوا يسكنون أرض العربان من بلاد الخيل، ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أى فيما كان منهم من الأمر الذى تقدم وسبق ذكره.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ أى إذا أراد شيئًا هيأ أسبابه، ويسرها وسهلها من وجوه لا يهتدى إليها العباد، بل يقدرها، وييسرها بلطيف صنعه وعظيم قدرته. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ أى بجميع الأمور ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى خلقه وشرعه وقدره.

وعند أهل الكتاب: أن يوسف باع أهل مصر وغيرهم من الطعام الذى كان تحت يده، بأموالهم كلها، من الذهب والفضة، والعقار والأثاث، وما يملكونه كله، حتى باعهم بأنفسهم فصاروا أرقاء. ثم أطلق لهم أرضهم وأعتق رقابهم على أن يعملوا، ويكون خُمس ما يستغلون من زروعهم وثمارهم للملك، فصارت سنة أهل مصر بعده.

وحكى الثعلبى: أنه كان لا يشبع فى تلك السنين، حتى لا ينسى الجيعان، وأنه إنما كان يأكل أكلة واحدة نصف النهار. قال: فمن ثَمَّ اقتدى

به الملوك فى ذلك. قلت: وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، لا يشبع بطنه عام الرمادة حتى ذهب الجدب وأتى الخصب.

قال الشافعى: قال رجل من الأعراب لعمر بعدما ذهب عام الرمادة: لقد انجلت عنك وإنك لابن حرة!

ثم لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت، وشمله قد اجتمع، عرف أن هذه الدار لا يقرُّ بها قرار، وأن كل شىء فيها ومَن عليها فان، وما بعد التمام إلا النقصان، فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله، وسأل منه -وهو خير المسئولين - أن يتوفاه، أى حين يتوفاه على الإسلام، وأن يلحقه بعباده الصالحين، وهكذا كما يقال فى الدعاء: «اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين» أى حين تتوفانا.

ويحتمل أنه سأل ذلك عند احتضاره عليه السلام، كما سأل النبى ﷺ عند احتضاره أن يُرفع روحه إلى الملأ الأعلى والرفقاء الصالحين من النبيين والمرسلين كما قال: اللهم فى الرفيق الأعلى ثلاثًا. ثم قضى.

وقد ذكر ابن إسحاق أن عند أهل الكتاب أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة، ثم توفى عليه السلام. وكان قد أوصى إلى يوسف عليه السلام أن يُدفَن عند أبويه إبراهيم وإسحاق.

قال السدى: فصبَّره وسيره إلى بلاد الشام فدفنه بالمغارة عند أبيه إسحاق وجده الخليل عليهم السلام.

وعند أهل الكتاب: أن عمر يعقوب يوم دخل مصر مائة وثلاثون سنة. وقد قال تعالى فى كتابه العزيز **﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾** [البقرة: ١٣٣].

يوصى بنيه بالإخلاص، وهو دين الإسلام الذى بعث الله به الأنبياء عليهم السلام وقد ذكر أهل الكتاب أنه أوصى بنيه واحدًا واحدًا، وأخبرهم بما يكون من أمرهم، وبشر يهوذا بخروج نبى عظيم من نسله تطيعه الشعوب وهو عيسى ابن مريم. وذكروا أنه لما مات يعقوب بكى عليه أهل مصر سبعين يومًا، وأمر يوسف الأطباء فطيبوه بطيب ومكث فيه أربعين يومًا. ثم استأذن يوسف ملك مصر فى الخروج مع أبيه ليدفنه عند أهله، فأذن له وخرج معه أكابر مصر وشيوخها، فلما وصلوا حبرون دفنوه فى المغارة التى كان اشتراها الخليل إبراهيم من عفرون ابن صخر الحيثى، وعملوا له عزاء سبعة أيام.

قالوا: ثم رجعوا إلى بلادهم، وعزى إخوة يوسف يوسف فى أبيهم، وترفقوا له فأكرمهم وأحسن منقلبهم، فأقاموا ببلاد مصر.

ثم حضرت يوسف عليه السلام الوفاة، فأوصى أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن عند آبائه فحنطوه ووضعوه فى تابوت، فكان بمصر حتى أخرجه معه موسى عليه السلام، فدفنه عند آبائه كما سيأتى، قالوا: فمات وهو ابن مائة سنة وعشر سنين.

هذا نصهم فيما رأيته وفيما حكاه ابن جرير أيضًا. وقال مبارك بن فضالة عن الحسن: ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد ذلك ثلاثًا وعشرين سنة، ومات وهو ابن مائة سنة وعشرين سنة.

وقال غيره: أوصى إلى أخيه يهوذا صلوات الله عليه وسلامه. وقد سبق تحقيق هذا الأمر وتبين القول الأصوب فى هذا الموضوع والله أعلم.

نبى الله أيوب عليه السلام

قال ابن إسحاق: كان أيوب عليه السلام رجلاً من الروم وهو أيوب بن موص بن زراح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم فى سورة النساء فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ...﴾

الآية [النساء: ١٦٣].

وكان دينه التوحيد والإصلاح بين الناس، وإذا أراد حاجة سجد لله وطلبها. اهـ ابن الأثير.

وامرأته قيل: اسمها «ليا بنت يعقوب»، وقيل: «رحمة بنت أفرائيم». وقيل: «منشا بنت يوسف بن يعقوب» وهذا أشهر فلهذا ذكرناه ههنا. ثم نعطف بذكر أنبياء بنى إسرائيل بعد ذكر قصته إن شاء الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤١: ٤٤].

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم: كان أيوب رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه من الأنعام والعبيد والمواشى والأراضى المتسعة بأرض

«البثينة» من أرض حوران بالشام.

وحكى ابن عساكر أنها كلها كانت له، وكان له أولاد وأهلون كثير فَسُلِب منه ذلك جميعه، وابتلى فى جسده بأنواع البلاء، ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه. يذكر الله عز وجل بهما وهو فى ذلك صابر محتسب ذاكر لله عز وجل فى ليله ونهاره وصباحه ومسائه. وكانت زوجته ترعى له حقه وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه وتقوم بمصلحته، وضعف حالها وقل مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه وتقوم بأوده رضى الله عنها وأرضاها وهى صابرة معه على ما حلَّ بهما من فراق المال والولد، وما يختص بها من المصيبة بالزوج وضيق ذات اليد، وخدمة الناس بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل. يُبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان فى دينه صلابة زِيدَ فى بلائه».

لم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلا صبراً واحتسابًا وحمدًا وشكرًا حتى إن المثل ليضرب بصبره عليه السلام، ويضرب المثل أيضًا بما حصل له من أنواع البلايا.

وعن مجاهد أنه قال: كان أيوب عليه السلام أول من أصابه الجدرى. وقد اختلفوا فى مدة بلواه على أقوال: فزعم وهب أنه ابتلى ثلاث سنين لا تزيد ولا تنقص.

وقال أنس: ابتلى سبع سنين وأشهراً.

ثم إن الناس امتنعوا عن استخدام زوجة أيوب خوفًا من أن ينالهم من بلائه أو تُعديهم بمخالطتها لهم، فلما لم تجد أحدًا يستخدمها عمدت إلى شعرها فباعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيرتيها بطعام طيب كثير، فأتت به أيوب فقال: من أين لك هذا؟ وأنكره، فقالت: خدمت به أناسًا،

فلما كان الغد لم تجد أحدًا يستخدمها فباعت الضفيرة الأخرى بطعام، فأتته به فأنكره أيضًا وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام، فكشفت عن رأسها خمارها فلما رأى رأسها محلوقًا - وكان شعرها فى غاية الجمال - قال فى دعائه: «إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين!!».

وقال ابن أبى حاتم، وابن جرير جميعًا: حدثنا يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أخبرنى نافع بن يزيد عن عقيل عن الزهرى عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال: إن نبى الله أيوب عليه السلام لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له، كانا يغدوان إليه ويروحان

فقال أحدهما لصاحبه: يعلم الله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين.

قاله له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به. فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له. فقال أيوب: لا أدرى ما نقول غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتى فأكفرٍ عنهما كراهية أن يذكرا الله إلا فى حق.

قال: وكان يخرج فى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع فلما كان ذات يوم أبطأت عليه فأوحى الله إلى أيوب فى مكانه أن ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاستبطأته فتلقته تنظر وأقبل عليها وقد أذهب الله ما به من البلاء وهو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أى بارك الله فيك. هل رأيت نبى الله هذا المبتلى فوالله ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحًا ؟ قال: فإنى أنا هو. قال: وكان له أندران (موضعان)، أندر للقمح، وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت

الأخرى في أندر الشعير الورِق (الفضة) حتى فاض. هذا لفظ ابن جرير، وهكذا رواه بتمامه ابن حبان في صحيحه عن محمد بن الحسن بن قتيبة عن حرملة عن ابن وهب به قال ابن كثير: وهذا غريب رفعه جداً. والأشبه أن يكون موقوفًا.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أنبأنا على بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: وألبسه الله حلة من الجنة فتنحى أيوب وجلس في ناحية وجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت: يا عبد الله: هذا المبتلى الذى كان ههنا لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب وجعلت تكلمه ساعة قال: ولعلىَّ أنا أيوب، قالت: أتسخر منى يا عبد الله؟ فقال: ويحكِ أنا أيوب قد رَدَّ الله علىَّ جسدى.

قال ابن عباس: وردَّ الله عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم.

وقال وهب بن منبه: أوحى الله إليه: قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك، وقرب عن صحابتك قربانًا واستغفر لهم فإنهم قد عصونى فيك.

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عريانًا خَرَّ عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثى فى ثوبه فناداه ربه عز وجل (يا أيوب: ألم أكن أغنيتك عما ترى؟» قال: بلى يا رب ولكن لا غِنى لى عن بركتك». ورواه البخارى من طريق عبد الرزاق به.

وقوله: ﴿ **ارْكُضْ بِرِجْلِكَ** ﴾ أى اضرب الأرض برجلك فامتثل ما أمر به فأنبع الله له عينًا باردة الماء وأمره أن يغتسل فيها ويشرب منها فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى والسقم والمرض الذى كان فى جسده ظاهراً وباطنًا وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة وجمالاً تامًا ومالاً كثيرا حتى صبَّ له من المال صبا مطراً عظيمًا جراداً من ذهب وأخلف الله له أهله كما قال تعالى: ﴿ **وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ** ﴾ فقيل:

أحياهم الله بأعيانهم. وقيل: آجره فيمن سلف وعوَّضه عنهم فى الدنيا بدلهم وجمع له شمله بكلهم فى الدار الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ **رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا** ﴾ أى رفعنا عنه شدته. ﴿ **فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ** ﴾ رحمة منا به ورأفة وإحسانًا. ﴿ **وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ** ﴾ أى تذكرة لمن ابتلى فى جسده أو ماله أو ولده فله أسوة بنبى الله أيوب عليه السلام حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتى فرج الله عنه.

وقال الضحاك عن ابن عباس: ردَّ الله إلى زوجته شبابها وزادها حتى ولدت له ستة وعشرين ولدًا ذكرًا.

وعاش أيوب عليه السلام بعد ذلك سبعين سنة بأرض الروم على دين الحنيفية ثم غيروا بعده دين إبراهيم.

وقوله تعالى: ﴿ **وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ هذه رخصة من الله تعالى لعبده ورسوله أيوب عليه السلام فيما كان من حَلِفه لَيَضربَنَّ امرأته مائة سوط، فقيل: حلفه ذلك سببه بيعها ضفائرها. وقيل: لأنه عرض لها شيطان فى صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب فأتته فأخبرته فعرف أنه الشيطان فحلف ليضربنها مائة سوط. فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ ضِغْثًا وهو كالعثكال الذى يجمع الشماريخ فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة، ويكون هذا منزلاً منزلة الضرب بمائة سوط، ويبر ولا يحنث. وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ولا سيما فى حق امرأته الصابرة المحتسبة المكابدة الصديقة البارة الراشدة رضى الله عنها. ولهذا عقب الله هذه الرخصة وعللها بقوله: ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾. وقد استعمل كثير من الفقهاء هذه الرخصة فى باب «الأيمان والنذور»، وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب «الحيل» فى الخلاص من الإيمان وصَدَّروه بهذه الآية الكريمة وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب.

وقد ذكر ابن جرير وغيره أن أيوب عليه السلام لما توفى كان عمره ثلاثًا وتسعين سنة. وقيل: إنه عاش أكثر من ذلك.

وقد روى ليث عن مجاهد ما معناه أن الله يحتج يوم القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء، وبيوسف عليه السلام على الأرقاء، وبأيوب عليه السلام على أهل البلاء» رواه ابن عساكر بمعناه. وأنه أوصى إلى ولده «حومل» وقام بالأمر بعده ولده بشر بن أيوب وهو الذى يزعم كثير من الناس أنه ذو الكفل.

ومات ابنه هذا وكان نبيًا فيما يزعمون وكان عمره من السنين خمسًا وسبعين سنة. اهـ ابن كثير فى البداية والنهاية.

قصة مدين قوم شعيب عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٩١].

كان أهل مدين قومًا عربًا يسكنون مدينتهم مَدْيَن التى هى قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلى ناحية الحجاز قريبًا من بحيرة قوم لوط. وكانوا بعدهم بمدة قريبة.

ومدين قبيلة عُرفت بهم وهم من بنى مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل عليه السلام، وشعيب نبيهم وابن ميكيل بن يشجن ذكره ابن إسحاق.

قال ابن عساكر، ويقال: جدته، ويقال أمه بنت لوط وكان ممن آمن بإبراهيم وهاجر معه ودخل معه دمشق.

وفى حديث أبى ذر الذى فى صحيح ابن حبان فى ذكر الأنبياء والرسل قال: «أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر» وكان بعض السلف يسمى شعيبًا «خطيب الأنبياء» يعنى لفصاحته وعلو عبادته

وبلاغته فى دعائه قومه للإيمان برسالته.

وقد روى إسحاق بن بشر عن جويبر، ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيبًا قال: «ذاك خطيب الأنبياء».

وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة «وهى شجرة من الأيك حولها غيضة (أشجار) ملتفة بها»، وكانوا من أسوأ الناس معاملة، يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيهما. يأخذون بالزائد، ويدفعون بالناقص، فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطى هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم فى سبلهم وطرقاتهم فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم حتى أحل الله بهم البأس الشديد.

قال: إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: كانوا قومًا طغاة بغاة يجلسون على الطريق «يبخسون الناس» يعنى يعشرونهم (يأخذون عشر أموالهم) وكانوا أول من سنَّ ذلك ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ فنهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية والمعنوية الدينية، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦] ذكَّرهم بنعمة الله تعالى عليهم فى تكثيرهم بعد القلة وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه كما قال لهم فى القصة الأخرى: ﴿وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤]، فنهاهم أولاً عن تعاطى ما لا يليق من التطفيف، وحذرهم سلب نعمة الله عليهم فى دنياهم وعذابه الأليم فى أخراهم، وعنفهم أشد تعنيف ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠] وكان ردهم على نبيهم هو

أن طلبوا منه ومن المؤمنين معه أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم وكفرهم، فانتصب شعيب للمحاجة عن قومه فقال: ﴿أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾؟ أى هؤلاء لا يعودون إليكم اختياراً وإنما يعودون إن عادوا اضطراراً مكرهين، وذلك لأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد ولا يرتد أحد عنه. ولهذا قال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] أى الحاكمين. فدعا عليهم والله لا يرد دعاء رسله إذا استنصروه على الذين جحدوا وكفروا وعاندوا رسله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١]. ذكر فى سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة أى رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزالاً شديداً أزهقت أرواحهم من أجسادها وصيرت حيوانات أرضهم كجمادها وأصبحت جثثهم جاثية لا أرواح فيها، ولا حركات بها ولا حواس لها. وقد جمع الله عليهم أنواعًا من العقوبات وأشكالاً من البليات وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات.

١- فسلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات.

٢- وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات.

٣- وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر الجهات، ولكنه تعالى أخبر عنهم فى كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها.

ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف وإنما عمدتهم شيئان:

أحدهما: أنه قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل أخوهم كما قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

والثانى: أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة وذكر فى أولئك الرجفة أو الصيحة والجواب عن الأول: أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ

﴿الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة فلا يناسب ذكر الأخوة ههنا ولما نسبهم إلى القبيلة شاع ذكر شعيب بأنه أخوهم. وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة.

وأما احتجاجهم بيوم الظلة فإن كان دليلاً بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهما أمتان أخريان، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئًا من هذا الشأن.

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف فى المكيال والميزان فدل على أنهم أمة واحدة أُهْلِكوا بأنوع من العذاب. وذكر فى كل موضع ما يناسب من الخطاب.

وقول: ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ذكروا أنهم أصابهم حر شديد وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل ولا دخولهم فى الأسراب فهبوا من محلتهم إلى البرية فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها فلما تكاملوا فيه جعلها الله ترميهم بشرر وشهب ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة من السماء فأزهقت الأرواح وخربت الأشباح ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩١، ٩٢]، ونجىَّ الله شعيبًا ومن معه من المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤، ٩٥].

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى تاريخه عن ابن عباس أن شعيبًا عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام.

وعن وهب بن منبه أن شعيبًا عليه السلام مات بمكة ومن معه من المؤمنين وقبورهم غربى الكعبة بين دار الندوة ودار بنى سهم اهـ.

موسى الكليم عليه الصلاة والتسليم

وهو موسى بن عمران بن فاهث بن عاذر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

وقد ذكره الله تعالى فى مواضع كثيرة متفرقة من القرآن الكريم.

قال الله تعالى: بسم لله الرحمن الرحيم ﴿ **طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ** ﴾ [القصص: ١-٦].

يذكر تعالى ملخص القصة، ثم يبسطها بعد هذا، فذكر أنه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق، أى بالصدق الذى كأن سامعه مشاهد للأمر معاين له.

﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا** ﴾ أى تجبر وعتا وطغى وقسّم رعيته إلى أقسام وفرق وأنواع، يستضعف طائفة منهم وهم شعب بنى إسرائيل الذين هم من سلالة نبى الله يعقوب عليه السلام. وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض. وقد سُلِّط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر يستعبدهم ويستخدمهم فى أخسِّ الصنائع والحرف وأدناها، ومع هذا يذبح أبناءهم ويستحى (يستبقى) نساءهم إنه كان من المفسدين وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بنى إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام، من أنه سيخرج من ذريته غلام

يكون هلاك ملك مصر على يديه. وذلك - والله أعلم حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر، من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها. وكانت هذه البشارة مشهورة فى بنى إسرائيل، فتحدث بها القبط فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون بأن ذكرها له بعض جلسائه وهم يسمرون عنده. فأمر عند ذلك بقتل أبناء بنى إسرائيل حذرًا من وجود هذا الغلام (ولن يغنى حذر من قدر).

وذكر السدى عن أبى صالح وأبى مالك، عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة: أن فرعون رأى فى منامه كأن نارًا قد أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بنى إسرائيل فلما استيقظ هاله ذلك، فجمع الكهنة، والحذقة، والسحرة وسألهم عن ذلك فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء يكون هلاك أهل مصر على يديه، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان. ولهذا قال الله تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ**﴾ وهم بنو إسرائيل، ﴿**وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾ أى الذين يؤول ملك مصر وبلادها إليهم، ﴿**وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ**﴾ أى سنجعل الضعيف قويًّا، والمقهور قاهرًا، والذليل عزيزًا. وقد جرى هذا كله لبنى إسرائيل كما قال تعالى: ﴿**وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا**﴾ [الأعراف: ٣٧].

والمقصود: أن فرعون احترز كل الاحتراز أن لا يوجد موسى حتى جعل رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى، ويعلمون ميقات وضعهن فلا تلد امرأة ذكرًا إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته.

هذا: والقدر يقول: أيها الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه: قد حكم العظيم الذى لا يغالب ولا يمانع، ولا تُخالَف

أقداره: أن هذا المولود الذى تحترز منه وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى، لا يكون مرباه إلا فى دارك وعلى فراشك، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك فى منزلك، وأنت الذى تتبناه وتربيه ولا تطلع على سر معناه، ثم يكون هلاكك فى دنياك وأخراك على يديه لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين، وتكذيبك ما أوحى إليه، لتعلم أنت وسائر الخلق أن رب السموات والأرض هو الفعال لما يريد، وأنه هو الغالب الذى لا يغلب، والقهار الذى لا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بنى إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور، وخشوا أن تفنى الكبار مع قتل الصغار فيصيروا هم الذين يعملوا ما كان يعمله بنو إسرائيل، فأمر فرعون بقتل الأبناء عامًا وأن يتركوا عامًا، فذكروا أن هارون عليه السلام ولد فى عام المسامحة عن قتل الأبناء، وأن موسى عليه السلام ولد فى عام قتلهم، فضاقت أمه به ذرعًا، واحترزت من أول ما حبلت، ولم يكن يظهر عليها مخايل الحبل، فلما وضعت أُلهمت أن اتخذت لها تابوتًا، فربطته فى حبل وكانت دارها متاخمة للنيل، فكانت ترضعه فإذا خشيت من أحد وضعته فى ذلك التابوت، فأرسلته فى البحر، وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به.

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٧:٩].

هذا الوحى وحى إلهام وإرشاد كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾

وليس هو بوحى نبوة كما زعمه ابن حزم وغير واحد من المتكلمين بل الصحيح الأول، كما حكاه أبو الحسن الأشعرى عن أهل السنة والجماعة.

قال السهيلى: واسم أم موسى «أيارخا»، وقيل «أيا ذخت».

والمقصود أنها أُرشدت إلى هذا الذى ذكرناه وأُلْقِيَ فى خَلَدها وروعها أن لا تخافى ولا تحزنى، فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك، وإن الله سيجعله نبيًا مرسلاً فكانت تصنع ما أمرت به فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها، فذهب مع النيل فمر على دار فرعون ﴿**فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ**﴾ وهو الوزير السوء ﴿**وَجُنُودَهُمَا**﴾ التابعين لهما ﴿**كَانُوا خَاطِئِينَ**﴾ أى كانوا على خلاف الصواب. فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة. وذكر المفسرون: أن الجوارى التقطته من البحر فى تابوت مغلق عليه، فلم يتجاسرن على فتحه حتى وضعنه بين يدى امرأة فرعون (آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد»، الذى كان فرعون مصر فى زمن يوسف عليه السلام.

وقيل: إنها كانت من بنى إسرائيل من سبط موسى، وقيل: بل كانت عمته. حكاه السهيلى فالله أعلم.

فلما فتحت غطاء التابوت ورأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية والجلالة الموسوية أحبته حبا شديداً فلما جاء فرعون قال: ما هذا؟ وأمر بذبحه، فاستوهبته منه ودافعت عنه وقالت: ﴿**قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ**﴾ فقال لها فرعون: أمَّا لك فنعم، وأمَّا لى فلا. أى لا حاجة لى به (والبلاء موكل بالمنطق!).

وقولها: ﴿**عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا**﴾ قد أنالها الله ما رجت من النفع: أما فى الدنيا فهداها الله به، وأما فى الآخرة فأسكنها جنته بسببه ﴿**أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا**﴾ وذلك أنهما تبنياه لأنه لم يكن يولد لهما ولد. قال الله تعالى ﴿**وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**﴾ أى لا يدرون ماذا يريد الله بهم.

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾ أى من كل شىء من أمور الدنيا إلا من موسى ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أى لتظهر أمره وتسأل عنه جهرة ﴿ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ أى صبرناها وثبتناها ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ وهى ابنتها الكبيرة أى اتبعى أثره واطلبى لى خبره ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ﴾ قال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده، ولهذا قال: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾، وذلك لأن موسى عليه السلام لما استقر بدار فرعون أرادوا أن يغذوه برضاعة فلم يقبل ثديا ولا أخذ طعامًا، فحاروا فى أمره واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن فلم يفعل كما قال تعالى: ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق لعلهم يجدون من يوافق رضاعته. فبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه إذ بصرت به أخته، فلم تُظهر أنها تعرفه بل قالت: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ . . قال ابن عباس: لما قالت ذلك قالوا لها: ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه؟ فقالت: رغبة فى سرور الملك ورجاء منفعته.

فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم فأخذته أمه فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا، وذهب البشير إلى «آسية» يعلمها بذلك، فاستدعتها إلى منزلها، وعرضت عليها أن تكون عندها، وأن تحسن إليها، فأبت عليها وقالت: إن لى بعلاً وأولادًا، ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معى. فأرسلته معها، ورتبت لها رواتب، وأجرت عليها النفقات والكساوى والهبات، فرجعت به تحوزه إلى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها.

قال الله تعالى: ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى كما وعدناها برده ورسالته، فهذا رده، وهو دليل على صدق

البشارة برسالته ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾.

ولما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده لها، شرع فى ذكر أنه لما بلغ أشدّه واستوى وهو احتكام الخَلق والخُلق، وهو سِنّ الأربعين فى قول الأكثرين، آتاه الله حكمًا وعلمًا وهو النبوة والرسالة التى كان الله بشر بها أمه حين قال: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ثم ذكر الله تعالى سبب خروجه من بلاد مصر، وذهابه إلى أرض مدين وإقامته هنالك حتى كمل الأجل، وانقضى الأمد، وما كان من كلام الله تعالى له، وإكرامه بما أكرمه به كما سيأتى.

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وذلك نصف النهار ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ﴾ أى يتضاربان ويتهارشان. ﴿هَذَا مِن شِيعَتِهِ﴾ أى إسرائيلى. ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أى قبطى. ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام كانت له بديار مصر مكانة بسبب نسبته إلى تبنّى فرعون له وتربيته فى بيته، وكانت بنو إسرائيل قد عزُّو وصارت لهم وجاهة، وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه، وهم أخواله -أى من الرضاعة- فلما استغاث ذلك الإسرائيلى بموسى عليه السلام على ذلك القبطى أقبل إليه موسى ﴿فَوَكَزَهُ﴾ أى طعنه بجُمع كفه، وقيل: بعصا كانت معه، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أى فمات منها.

وقد كان ذلك القبطى كافرًا مشركًا بالله العظيم، ولم يُرد موسى قتله بالكلية، وإنما أراد زجره وردعه. ومع هذا ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝١٦ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٥-١٧] (أى: فلن أكون ناصرًا لأى مجرم).

ثم يخبر تعالى أن موسى عليه السلام أصبح بمدينة مصر خائفًا من فرعون وملئه أن يعلموا أن هذا القتيل الذى رُفع إليه أمره إنما قتله موسى فى نصرة رجل من بنى إسرائيل فتقوى ظنونهم أن موسى منهم ويترتب على ذلك أمر عظيم قد يكون سببا فى قتل كثير من رجالهم.

فصار يسير فى المدينة فى صبيحة اليوم التالى خائفًا يتلفت، فبينما هو كذلك، إذا ذلك الرجل الإسرائيلى الذى استنصره بالأمس يستصرخه، أى يصرخ به ويستغيثه لينصره على آخر قد قاتله، فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته، وقال له: ﴿**إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ**﴾ ثم أراد أن يبطش بذلك القبطى، الذى هو عدو لموسى وللإسرائيلى، فلما عزم على ذلك، وأقبل على القبطى، قال الإسرائيلى المتهور: ﴿**يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ**﴾ [القصص: ١٩].

فبلغ فرعون أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس فأرسل فى طلبه رسله، وسبقهم رجل ناصح من طريق أقرب فقال: ﴿**يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ**﴾ أى من هذه البلدة ﴿**إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ**﴾ فخرج من مدينة مصر من فوره على وجهه لا يهتدى إلى طريق ولا يعرفه، قائلاً: ﴿**رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ وكان خائفًا يتلفت خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون، وهو لا يدرى أين يتوجه، ولا إلى أين يذهب، وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها.

ولما وفق إلى طريق يذهب فيه ﴿**قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾ أى عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود. وهذا ما وقع، فقد أوصلته إلى مقصود ،وأى مقصود، إنه خير مقصود وأعظمه ﴿**وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ**﴾ وكانت بئرًا يستقون منها، ومدين هى المدينة التى أهلك الله فيها أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب عليه السلام، وقد كان هلاكهم قبل

زمن موسى عليه السلام فى أحد قولى العلماء، وهو الذى رجحه ابن كثير وغيره، وقال آخرون: إنه النبى شعيب الذى سبقت قصته وسيأتى الكلام فى ذلك قريبًا.

ولما ورد الماء المذكور، وجد عليه جماعة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تمنعان غنمهما أن تختلط بغنم الناس، فالظاهر أنه لم يكن لأبيهما سوى بنتين. فقال لهما موسى: ما شأنكما؟ قالتا: لا نقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء لضعفنا، وسبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أبينا وكِبَرُه. قال الله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

قال المفسرون: وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم، وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة، فتجيء هاتان المرأتان فتسقيان غنمهما مما بقى من أغنام الناس، فلما كان ذلك اليوم وجاء موسى رفع تلك الصخرة، ثم استقى لهما وسقى غنمهما، ثم رد الحجر كما كان. وكان لا يرفعه إلا عشرة.

ثم ذهب إلى ظل شجرة من السمُر، رآها خضراء ترف ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

قال ابن عباس: سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر، وكان حافيًا فسقطت نعلا قدميه من الحفاء، وجلس فى الظل - وهو صفوة الله من خلقه - وإن بطنه للاَصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لَتُرَى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة.

قال عطاء بن السائب: لما قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ سمعته المرأتان فيما قيل فذهبتا إلى أبيهما فيقال: إنه استنكر سرعة رجوعهما فأخبرتاه بما كان من أمر موسى عليه السلام. فأمر إحداهما أن تذهب إليه فتدعوه، ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أى مشى

الحرائر ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ وصرحت له بهذا لئلا يتوهم من كلامـها ريبة، وهذا من تمام حيائها وصـيانتها ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ وأخبره خبره ومـا كان من أمره فى خروجه من بلاد مصر فرارًا من فـرعونها ﴿قَالَ﴾ له ذلك الشـيخ: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى خرجت من سلطانهم فلست فى دولتهم.

وقد اختلفـوا فى هذا الشيخ من هو؟ فقيل: هو شعـيب عليه السلام، وهذا هو المشهور عند كثيرين، وممن نص عليه الحسن البصرى، ومالك بن أنس وجاء مصرحًا به فى حديث، ولكن فى إسناده نظر.

وصرحت طائفـة بأن شعيبًا علـيه السلام عاش عمـرًا طويلاً بعد هلاك قومه، حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته.

وروى ابن أبى حاتم وغـيره عن الحسـن البصرى: أن صـاحب موسى عليه السلام هذا، اسمه شعيب وكان سيد الماء، ولكن ليس بالنبى صاحب مدين. وقيل: رجل اسمه «يثرون» هكذا هو فى كتب أهل الكتاب: يثرون كاهن مدين. أى كبيرها وعالمها.

وقال ابن عباس وأبو عبيدة بن عبد الله: اسمه «يثرون». زاد أبو عبيدة: وهو ابن أخى شعيب.

والمقصود: أنه لما أضافه وأكرم مثواه، وقص عليه ما كان من أمره بَشَّره بأنه قد نجا من القوم الظالمين. فعنـد ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ لرعى غنمك، ثم مدحته بـأنه قوى أمين. قال لها أبوها: وما عِلْمُك بهذا؟ قـالت: إنه رفع صخرة لا يطيق رفعهـا إلا عشرة، وإنه لما جئت معه تقدمت أمامـه، فقال: كونى من ورائى فإذا اختلفت الطريق فاحذفى لى بحصاة أعلم بها كيف الطريق.

قال ابن مسعود: أفـرس الناس ثلاثة: صاحب يوسف حين قال لامرأته «أكرمى مثواه»، وصاحبـة موسى حين قالت له: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ

مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾، وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب.
﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ على أن تكون أجيرًا عندى ثمانى سنوات، فإن أتممت عشـرًا فذلك من فضلك، وما أريد أن أرهقك وستجدنى إن شاء الله من الصالحين للمعاملة الحسنة والعشرة الطيبة. فقال موسى عليه السلام لصهره: الأمر على ما قلت، فأيهما قضيت فلا عدوان علىَّ والله على مقالتنا سـامع وشاهد، ووكيل علىَّ وعليك، ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كوامل تامة.

فلما أراد فراق شعيب -سأل امـرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فوعدها ما ولدت غنمه على غير لونها فعمد موسى فوضع حبالاً على الماء فلما رأت الحبال فزعت فجالت جولة فولدن كلهن بُلقا إلا شاة واحدة فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام.

ولما أتم مـوسى الأجل «**وسار بأهله**» من عند صهره، زاعـمًا أنه اشتاق إلى أهله، وقصد زيارتهم ببـلاد مصر فى صورة خفيـة، وكان معه ولْدَانٌ وغنم قد اسـتفادها مـدة مقامـه فى مدين واتفق أثناء السفـر أنهم فى ليلة مظلمة باردة تاهوا فى طريقهم فلم يهتدوا إلى السلوك فى الدرب المألوف، وجعل موسى يقدح زِناده فلا يُخـرج شررًا ولا يشعل نارًا، واشتد الظلام والبرد. فبـينما هو كذلك إذ أبصر عن بُعْـد نارًا تأجج فى جانب الطور - وعند الجبل الغربى منه عن يمينه فـقال لأهله: امكثوا هنا إنى أبصرت نارًا لعلى أستعلم مَن عندها عن الـطريق أو آتيكم بشعلة منها لتستدفـئوا بها.
﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١١-١٦].

قال غيـر واحد من المفسرين من السلف والخلف: لما قـصد موسى إلى تلك النار التى رآها فـانتهى إليـها وجـدها تأجج فى شـجرة خضـراء من

العوسج «الشوك»، والنار تزداد اضطرامًا والخضرة تزداد اخضرارًا. فوقف متعجبًا، وكانت تلك الشجرة فى حضن جبل فى الغرب منه عن يمينه، وكان موسى فى واد اسمه (طوى) فكان موسى مستقبل القبلة وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب فناداه ربه بالواد المقدس طوىً، فأمره أولاً بخلع نعليه تعظيمًا وتكريمًا وتوقيرًا لتلك البقعة المباركة، ولا سيما فى تلك الليلة المباركة.

وعند أهل الكتاب أنه وضع يده على وجهه من شدة ذلك النور مهابة له وخوفًا على بصره.

ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلاً له: ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**﴾ [طه: ١٤] . ثم أخبره أن هذه الدنيا ليست بدار قرار وإنما الدار الباقية يوم القيامة التى لابد من كونها ووجودها، ﴿**لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ**﴾ من خير وشر. وحضه على العمل لها ومجانبة من لا يؤمن بها ممن عصى مولاه واتبع هواه. ثم قال له مخاطبًا ومؤانسًا: ﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ**﴾ أى أليست هذه عصاك التى تعرفها منذ صحبتها؟ ﴿**قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ**﴾ [طه: ١٧ : ٢٠]. وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذى يكلمه هو الذى يقول للشىء كن فيكون وأنه الفعال لما يريد.

وعند أهل الكتاب أن موسى سأل ربه برهانًا على صدقه عند من يكذبه فقال له الرب عز وجل: ما هذه التى فى يدك؟ قال: عصاى، قال: ألقها إلى الأرض ﴿**فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ**﴾ فهرب موسى من قدامها فأمره الرب عز وجل أن يبسط يده ويأخذها بذنبها فلما استمكن منها ارتدت عصًا فى يده.

وقد قال الله تعالى فى الآية الأخرى: ﴿**وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ**

﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أى قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصك، وهى مع ذلك فى سرعة حركة الجان، وهو ضرب من الحيات يقال له الجان والجنان، وهو لطيف ولكن سريع الاضطراب والحركة جدًا، فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة. فلما عاينها موسى عليه السلام وَلَّىٰ هاربًا منها، لأن طبيعته البشرية تقتضى ذلك ولم يلتفت، فناداه ربه قائلاً له: ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾.

فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها فيقال ﴿قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١] فيقال إنه هابها شديدًا، فوضع يده فى كم مدرعته ثم وضع يده فى وسط فمها.

وعند أهل الكتاب: أمسك بذنبها، فلما استمكن منها إذا هى قد عادت كما كانت عصًا ذات شعبتين فسبحان الله العلى العظيم.

ثم أمره تعالى بإدخال يده فى جيبه وإخراجها، ففعل فإذا هى تتلألأ كالقمر بياضًا من غير برص ولا بهق، ولهذا قال: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢] قيل معناه: إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك.

هذا. وإن كان خاصًا به إلا أن بركة الإيمان به جديرة بأن تنفع من استعمل ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء.

وقال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: ١٢].

أى فالعصا واليد آيتان ومعهما سبع آيات أخر. فتلك تسع آيات بينات، والمقصود: أن الله سبحانه لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون عدوه الذى خرج من ديار مصر فرارًا من سطوته وظلمه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٣، ٣٤]. أى

اجعلـه معى معـينًا وردءًا ووزيرًا يساعـدنى، ويعيننى علـى أداء رسالتك إليهم فإنه أفصح منى لسانًا وأبلغ بيانًا.

قال الله تعالى مجيبًا له إلى سؤاله: ﴿ **قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا** (أى برهانا) **فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا** (أى فلا ينالون منكما مكروها بسبب قـيامكما بآياتنا، وقيل: ببـركة آياتنا) **أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ** ﴾ [القصص: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿ **اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي** ﴾
[طه: ٢٤ - ٢٨].

قيل: إنه أصـابه فى لسانه لثـغة بسبب تلك الجـمرة التى وضعـها على لسانه والتى كان فرعون أراد اختبار عقله حين أخذ بلحيته وهو صغير فهمَّ بقتله، فخافت علـيه آسية وقالت: إنه طفل، فاختـبره بوضع تمرة وجمرة بين يديه فَهَمَّ بأخذ الثمرة، فصرف الملَك يده إلى الجمرة، فأخذها فوضعها على لسانه فأصابه لثغة بسببها. فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله، ولم يسأل زوالها بالكلية.

قال الحسن البـصرى: والرسل إنما يَسألون بحسب الحاجـة ولهذا بقيت فى لسانه بقية.

ولهذا قال فـرعون قبحه الله فيـما زعَم أنه يعيب به الكليم ﴿ **وَلا يَكَادُ يُبِينُ** ﴾ [الزخرف: ٥٢] أى يفصح عن مراده ويعبر عما فى ضميره وفؤاده.

ثم قال موسى عليه السلام: ﴿ **وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ** ﴾ [طه: ٢٩-٣٦]. أى قـد أجبـناك إلى جمـيع مـا سـألت وأعطيناك الذى طلبت. وهذا من وجـاهته عند ربه عز وجل حـين شفع أن يوحى الله إلى

أخيه فأوحى إليه، وهذا جاه عظيم قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]. وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣]. وقد سمعت السيدة عائشة أم المؤمنين رجلاً يقول لأناس وهم سائرون فى طريق الحج: أى أخ أَمَنُّ على أخيه؟ فسكت القوم وقالت عائشة لمن حول هودجها: هو موسى بن عمران حين شفع فى أخيه هارون فأوحى إليه. قال الله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (أى بنعمتنا عليك) (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٦-٢٢] .

فأتياه فأبلغاه رسالة الله وأمره فتكبر فرعون فى نفسه وعتا وطغى ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتنقص وقال كلامًا تافهًا لا يصدر من عاقل فأجابه موسى بإجابات مفحمة ورد عليه ردا قويا يكسر كبرياءه، ويبين ظلمه واضطهاده لشعب بنى إسرائيل فى أسلوب بليغ وبقلب شجاع وحجج دامغة، وهنا حوَّل فرعون الحوار إلى قضية أخرى فحفر لنفسه بئرًا عميقةً سقط فيها، وتردىً من أعلاها إلى أسفلها ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨].

فلما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهه ولم يبق له قول سوى العناد عدل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ

بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩-٣٣]، وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما، وهما العصا واليد، وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم الذى بهر به العقول والأبصار حين ألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين. أى عظيم الشكل بديع فى الضخامة والهول والمنظر العظيم الفظيع الباهر حتى قيل: إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه أخذه رعب شديد وخوف عظيم بحيث إنه حصل له إسهال شديد نغص عليه حياته.

وهكذا لما أدخل موسى عليه السلام يده فى جيبه وأخرجها وهى كفلقة القمر تتلألأ نوراً يبهر الأبصار، فإذا أعادها إلى جيبه واستخرجها رجعت إلى صفتها الأولى، ومع هذا كله لم ينتفع فرعون - لعنه الله - بشىء من ذلك بل استمر على ما هو عليه، وأظهر أن هذا كله سحر، وأراد معارضته بالسحرة فأرسل يجمعهم من سائر مملكته.

قال تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤] وهذا من حلمه تعالى وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره وهو إذ ذاك أردى خلقه وقد بعث إليه صفوته من خلقه فى ذلك الزمان، ومع هذا يقول لهما، ويأمرهما أن يدعواه بالتى هى أحسن ويعاملاه معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى.

قال الحسن البصرى «**فقولا له قولاً لينا**» أعذرا إليه، قولا له: إن لك رباً ولنا معاداً، وإن بين يديك جنة وناراً.

وقال وهب بن منبه: «**قولا له**»: إنى إلى العفو والمغفرة أقرب منى إلى الغضب والعقوبة هكذا يقول ربك.

وقال يزيد الرَّقَاشِيُّ عند هذه الآية: يا من يتحبب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه؟!

﴿قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ وذلك أن فرعون كان

جبـارًا عنيدًا وشيطانًا مـريدًا له سلطان فى بلاد مصر طويل عـريض وجاه وجنود، وعسـاكر وسطوة، فـهاباه من حيث البـشرية، وخـافا أن يسطو عليهـما فى بادئ الأمـر، فثبـتهمـا تعالى وهو العلى الأعلى فـقال: ﴿لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

كيف وصل موسى وهارون إلى فرعون؟

ذكر السدى وغيره: أنه لما قـدم موسى من بلاد مدين ، دخل على أمه وأخيه هارون وهمـا يتعشيـان من طعام فيه«الطفشـيل» وهو اللفت، فأكل معـهمـا. ثم قال يا هارون: إن الله أمـرنى وأمرك أن نـدعو فرعـون إلى عبادته، فقم معى. فقاما يقصدان باب فرعون فإذا هو مغلق. فقال موسى للبوابين والحَـجَبَة: أعلمـوه أن رسول الله بالبـاب. فجعلوا يسـخرون منه ويستهزئون به.

وقد زعم بعضهم أنه لم يؤذن لهما عليه إلا بعد حين طويل.

وقال مـحمـد بن إسحـاق: أذن لهمـا بعد سنتين، لأنه لم يكـن أحد يتجاسر على الاستئذان لهما. فالله أعلم.

ويقال: إن موسى تقدم إلى الباب فطرقه بعـصاه، فانزعج فرعون وأمر بإحضارهما، فوقفا بين يديه فدعواه إلى الله عز وجل كما أمرهما.

وعند أهل الكتاب أن الله قال لموسى عليه السلام: إن هارون اللاوى - يعنى الذى من نسل لاوى بن يعقوب - سيـخرج ويتلقاك، وأمره أن يأخذ مشايخ بنى إسـرائيل إلى فرعون، وأمره أن يُظهـر ما آتاه من الآيات وقال له: إنى سأقـسِّى قلبه فـلا يُرسل الشعب، وأكثـر آياتى وأعاجـيبى بأرض مصر. وأوحى الله إلى هارون أن يخرج إلى أخيـه يتلقاه بالبرِّية عند جبل «حوريب»، فلما تلقاه أخبره موسى بما أمره به ربه. فلما دخلا مصر جَمَعَا شيوخ بنى إسرائيل وذهبا إلى فرعـون، فلما بلَّغاه رسالة الله قال: من هو الله؟ لا أعرفه ولا أُرْسِل بنى إسرائيل.

وقال الله تعالى مخبرًا عن فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١)

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٤٩-٥٥].

وبهذه الكلمات أفحم موسى فرعون، وأفهمه أنه وإن ادعى الألوهية فإنه عاجز لا يستطيع أن يخلق شيئًا ولا أن يغير أو يبدل فى هذا الكون العظيم الهائل، كما أفحمه بالحجج الدامية التى مرت من آيات سورة الشعراء.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾[طه: ٥٦-٥٩]. إن فرعون غلبه شقاؤه وكثرة جهله وقلة عقله، وانتفاخه بالكبرياء فلجأ إلى التضليل والخداع بقوله لموسى عليه السلام: إن هذا الذى جئت به سحر، ونحن نعارضك بمثله. ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم.

وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام: أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس. ولهذا قال: «**موعدكم يوم الزينة**» وكان يوم عيد من أعيادهم، واشترط أن يجتمع الناس ضحى. أى من أول النهار فى وقت اشتداد ضياء الشمس، فيكون الحق أظهر وأجلى؛ لأنه على بصيرة من ربه ويقين بأن الله سيظهر كلمته ودينه، وإن رغمت أنوف القبط.

فوافق فرعون على ذلك، ثم ذهب فأمر بجمع مَن كان ببلاده من السحرة، وكانت بلاد مصر فى ذلك الزمان مملوءة سحرة ماهرين فى فنهم، فجمعوا له من كل بلد وكل مكان فاجتمع منهم خلق كثير وجم غفير، فقيل: كانوا ثمانين ألفًا - قاله محمد بن كعب القَرَظى. وقيل:

سبعين ألفًا - قاله القاسم بن أبى بردة، وقال السدى: بضعة وثلاثين ألفًا، وعن أبى أمامة تسعة عشر ألفًا، وقال محمد بن إسحاق: خمسة عشر ألفًا. وقال كعب الأحبار: كانوا اثنى عشر ألفًا.

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم، فخرجوا وهم يقولون: ﴿**لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ**﴾ [الشعراء: ٤٠]. وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم، وزجرهم عن تعاطى السحر الباطل الذى فيه معارضة لآيات الله وحججه فقال: ﴿**وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم** (يهلككم) **بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ . فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ**﴾ قيل: معناه: أنهم اختلفوا فيما بينهم، فقائل يقول: هذا كلام نبى وليس بساحر، وقائل منهم يقول: هو ساحر. وأسروا التناجى بهذا وغيره وقالوا: إن موسى وهارون ساحران عظيمان مرادهما أن يجتمع الناس عليهما ويستأصلاكم عن آخركم ويستأمرهما الملك عليكم بهذه الصناعة.

﴿**فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا** (متحدين) **وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ**﴾ وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا ويتواصوا ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبهتان.

وهيهات: كذبت والله الظنون، وأخطأت الآراء أَنَّى يُعارِض البهتان والسحر والهذيان خوارق العادات التى أجراها الديان على يدى عبده الكليم، ورسوله الكريم، المؤيد بالبرهان الذى يبهر الأبصار، وتحار فيه العقول والأذهان.

ولما اصطف السحرة ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم قالوا له: إما أن تلقى قبلنا وإما أن نلقى قبلك ﴿**قَالَ بَلْ أَلْقُوا**﴾ أنتم، وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصى، فأودعوها الزئبق وغيره، من الآلات التى تضطرب بسببها تلك الحبال والعصى اضطرابًا يخيل للرائى أنها تسعى

باختيارها وإنما تتحرك بسبب ذلك، فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم وألقوا حبالهم وعصيهم وهم يقولون: ﴿**بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ**﴾.

حينئذ خاف موسى على الناس أن يفتنوا بسحرهم ومحالهم قبل أن يُلْقِيَ ما فى يده فإنه لا يصنع شيئًا قبل أن يؤمر، فأوحى الله إليه فى الساعة الراهنة: ﴿**لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ**﴾ [طه: ٦٨- ٦٩]. عند ذلك ألقى موسى وقال: ﴿**مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**﴾ [يونس: ٨١، ٨٢] وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها صارت حية عظيمة ذات قوائم وعنق عظيم وشكل هائل مزعج بحيث إن الناس انحازوا منها وهربوا سراعًا، وتأخروا عن مكانها، وأقبلت هى على ما ألقوه من الحبال والعصى، فجعلت تلقفه واحدًا واحدًا فى أسرع ما يكون من الحركة، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها، وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم فى أمرهم واطلعوا على أمر لم يكن فى خَلَدهم ولا بالهم ولا يدخل تحت صناعاتهم، وأشغالهم، فعند ذلك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة ولا ضلال، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق الذى ابتعث هذا المؤيد بالحق، وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة، وأنارها بما خلق فيها من الهدى، وأزاح عنها القسوة، فأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين، وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلاء: ﴿**آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَىٰ**﴾ أما فرعون فإنه لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشهروا ذكر موسى وهارون فى الناس على هذه الصفة الجميلة، أفزعه ذلك، ورأى أمرًا بهره وأعمى بصيرته وبصره، وكان فيه كيد ومكر وخداع وصنعة فى الصد عن سبيل الله، فقال مخاطبًا السحرة بحضرة الناس: ﴿**آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ**﴾ أى هلاَّ شاورتمونى فيما صنعتم من

الأمر الفظيع بحضرة رعيتى؟! ثم تهـدد وتوعد وأبرق وأرعد وكذب فأبعد قائلاً: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وقال فى الآيـة الأخرى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

[الأعراف: ١٢٣].

وهذا الذى قاله من البهـتان الذى يعلم كل فرد عاقل ما فـيه من الكفر والكذب والهذيان، بل لا يروج مثله على الصـبيان، فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم ير هؤلاء يومًا من الدهر، فكيف يكون كـبـيرهـم الذى علمـهم السحـر؟ ثم هو لم يجـمـعـهم ولا علم باجتماعـهم، حتى كان فرعون هو الذى استدعـاهم واجتباهم من كل فج عـميق وواد سـحـيق، ومن حـواضر بلاد مـصـر والأطراف، ومن المدن والأرياف. وختم فـرعون كلامـه بقوله: ﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِـلافٍ﴾ وذلك بقطـع اليـد اليـمنـى والرجل اليـسـرى أو عـكسـه، ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى ليجعلنهم مُثْلَة ونكالاً لئـلا يقتدى بهم أحد من رعيته وأهل ملـته، ولهذا قال: ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أى على جذوع النخل لأنها أعلى وأشهر ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ يعنى فى الدنيا.

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أى لن نطيعك ونترك ما وقر فى قلوبنا من البـينات والدلائل القاطعات ونقـسم على ذلك بالذى خلقنا فافعل ما قدرت عليه، إنما حكمك علـيـنا فى هذه الحياة الدنيا، فإذا انتقلنا منهـا إلى الدار الآخرة صـرنا إلى حكم الذى أسلمنا له واتبعنا رسله ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٣]، أى ثوابه خيـر مما وعدتنا به من الترهيب والتـرغيب وأدوم من هذه الدار الفانية.

وقالوا له أيضًا: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾

[الأعراف: ١٢٦].

وقالوا أيضًا يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٤، ٧٥].

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون لعنه الله - صلبهم وعذبهم رضى الله عنهم. قال عبد الله بن عباس، وعبيد بن عمير: كانوا من أول النهار سحرة فصاروا من آخره شهداء: ويؤيد هذا قولهم: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

بعد هزيمة فرعون وشيعته

لما وقع ما وقع من الأمر العظيم وهو الغلب الذى غلبته القبط فى ذلك الموقف الهائل، وأسلم السحرة الذين استنصروا ربهم، لم يزدهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا وبعدًا عن الحق. قال الله تعالى بعد قصص ما تقدم ﴿**وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾

[الأعراف: ١٢٧-١٢٩].

وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**﴾ [غافر: ٢٣-٢٤].

وكان فرعون الملك، وهامان الوزير، وكان قارون إسرائيليا من قوم موسى إلاأنه كان على دين فرعون وملئه وكان ذا مال جزيل جداً كما ستأتى قصته ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ**﴾ [غافر: ٢٥].

وهذا القتل للغلمان بعد بعثة موسى إنما كان على وجه الإهانة والإذلال والتقليل لملإ بنى إسرائيل لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها ويصولون على القبط بسببها، وكانت القبط منهم يحذرون، فلم ينفعهم ذلك ولم يردّ عنهم قدر الذى يقول للشىء كن فيكون.

وقال تعالى: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن**

﴿يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]. ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم «صار فرعون واعظًا» فإن فرعون فى زعمه يخاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام، لذلك فكر فى قتله.

موقف شجاع من مؤمن

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٨، ٢٩]. وهذا الرجل هو ابن عم فرعون وكان يكتم إيمانه من قومه خوفًا منهم على نفسه. وزعم بعض الناس أنه كان إسرائيليا، وهو بعيد مخالف لسياق الكلام لفظًا ومعنى. والله أعلم.

قال ابن جريج: قال ابن عباس: لم يؤمن من القبط بموسى عليه السلام إلا هذا والذى جاء من أقصى المدينة وامرأة فرعون. رواه ابن أبى حاتم.

وقال الدارقطنى: لا يعرف من اسمه (شمعان) بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون. حكاه السهيلى.

وفى تاريخ الطبرى: أن اسمه (خير) فالله أعلم.

والمقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه فلما همَّ فرعون - لعنه الله - بقتل موسى عليه السلام، وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه. خاف هذا المؤمن على موسى فتلطف فى ردِّ فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب، وقد ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الجهاد كلمة عَدْلٍ عند سلطان جائر» وهذا من أعلى مراتب هذا المقام، فإن فرعون لا أشد جوراً منه، وهذا الكلام لا أعدل منه؛ لأن فيه عصمة نبى

ولم يخبرهم هذا الرجل بإيمانه ويحتمل أنه صارحهم بإظهار إيمانه وصرح لهم بما كان يكتمه. والأول أظهر. والله أعلم.

وزاد فرعون فى طغيانه وتجبره وتضليله لشعبه فقال:

﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

ويحتمل هذا معنيين: أحدهما: وإنى لأظنه كاذبًا فى قوله: إن للعالم ربًّا غيرى.

والثانى: فى دعواه أن الله أرسله. والأول أشبه بظاهر حال فرعون فإنه كان ينكر ظاهراً إثبات الصانع. والثانى أقرب إلى اللفظ حيث قال: ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ ﴾ أى فأسأله هل أرسله أم لا؟ ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ أى فى دعواه ذلك. وإنما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام وأن يحثهم على تكذيبه.

وذكر غير واحد من المفسرين أن هذا الصرح وهو القصر الذى بناه وزيره هامان له لم يُرَبناء أعلى منه وأنه كان مبنيا من الآجُرِّ المشوى بالنار ولهذا قال: ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا ﴾ [القصص: ٣٨] وعند أهل الكتاب: أن بنى إسرائيل كانوا يُسخَّرون فى ضرب اللَّبِن وكان مما حُمِّلوا من التكاليف الفرعونية أنهم لا يساعَدون على شىء مما يحتاجون إليه فيه، بل كانوا هم الذين يجمعون ترابه وتبنه وماءه، ويُطلب منهم كل يوم قسط معين أن يفعلوه، وإلا ضربوا وأهينوا غاية الإهانة وأوذوا غاية الأذية.

ولهذا قالوا لموسى عليه السلام: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ

تَعْمَلُونَ﴾ فوعدهم بأن العاقبة لهم على القبط وكذلك وقع وهذا من دلائل النبوة.

قال محمد بن إسحاق: أبى فرعون إلا الإقامة على الكفر والتمادى فى الشر فتابع الله عليه الآيات فأخذه بالسنين فأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مفصلات.

فأرسل الطوفان: وهو الماء ففاض على وجه الأرض ثم ركد لا يقدرون على أن يخرجوا ولا أن يعملوا شيئًا حتى جهدوا جوعًا، فلما بلغهم ذلك **﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾** [الأعراف: ١٣٤]. فدعا موسى ربه فكشف عنهم.

فلما لما يفوا له بشىء أرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغنى حتى إنه كان يأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا قبلاً. فدعا ربه فكشف عنهم. فلم يفوا له بشىء مما قالوا.

فأرسل الله عليهم القمل فذكر لى أن موسى عليه السلام أمر أن يمشى إلى كثيب حتى يضربه بعصاه فمشى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها فانثال عليهم قملاً حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له فدعا ربه فكشف عنهم. فلما لم يفوا له بشىء مما قالوا أرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية، فلم يكشف أحد ثوبًا ولا طعامًا إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلما لم يفوا بشىء مما قالوا. أرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دمًا لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من إناء إلا عاد دمًا عبيطًا.

وقال زيد بن أسلم: المراد بالدم: الرعاف. رواه ابن أبى حاتم.

وأخبر الله تعالى عن تبجح فرعـون بملكه وعظمة بلده وحسنها وتخرق الأنهار فـيها. وهى الخلجـانات التى يكسرونها أمـام زيادة النيل ثم تبجح بنفسه وحليتـه وأخذ يتنقص رسول الله موسى عليـه السلام ويزدريه بكونه ﴿لَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعنى كلامه بسـبب ما كان فى لسانه من بقيـة تلك اللثغة التى هى شرف له وكمال وجـمال ولم تكن مانعة له أن كلـمه الله تعالى وأوصى إليه وأنزل بعد ذلك التوراة عليه، وتـنقصه فرعون لعنه الله بكونه لا أسـاور فى بدنه ولا زينة عليـه، وإنما ذلـك من حليـة النسـاء لا يليق بشهامة الرجال، فكيف بالرسل الذين هم أكـمل عقلاً وأتم معرفة وأعلى همة وأزهد فى الدنيا وأعلم بما أعد الله لأوليائه فى الآخرة.

اقرأ قوله تعالى حاكـيًا قول فرعون ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥١-٥٤].

ذكر هلاك فرعون وجنوده

ولما تمادى قـبط مصر علـى كفرهم وعـتوهم وعنادهم مـتابعـة لملكهم فرعون، ومخالفة لنبى الله ورسوله وكليـمه موسى بن عمران عليه السلام وأقام الله عـلى أهل مصـر الحجج العظيـمة القـاهرة، ولم يؤمن منهم إلا القليل. قـيل: ثـلاثة، وهم: امـرأة فـرعـون - ولا علم لأهل الكتـاب بخبـرها، ومؤمن آل فـرعون الذى تقـدمت حكاية مـوعظته ومـشورته، والرجل الناصح الذى جـاء يسعى من أقصى المدينة فـقال: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]

قاله ابن عباس فيما رواه ابن أبى حاتم عنه، ومراده غير السحرة فإنهم كانوا من القبط.

وقيل: بل آمن طائفة من القبط من قوم فرعون والسحرة كلهم وجميع شعب بنى إسرائيل. ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]. فالضمير فى قوله: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ عائد على فرعون لأن السياق يدل عليه، وقيل: على موسى لقربه، والأول أظهر كما هو مقرر فى التفسير، وإيمانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون وسطوته وجبروته وسلطته، «ومن ملئهم» أن يَنُمُّوا عليهم إليه فيفتنهم عن دينهم وما كان من موسى إلا أن قال لقومه ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤-٨٦]. فأمرهم بالتوكل على الله والاستعانة به والالتجاء إليه، فأتمروا بذلك، فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجًا ومخرجًا.

بداية الاستعداد للخروج من الأزمة

أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذا لقومهما بيوتًا متميزة عن بيوت القبط، ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أُمروا به، وليعرف بعضهم بيوت بعض، وقال: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قيل: مساجد، وقيل معناه: كثرة الصلاة فيها. قاله مجاهد، وأبو مالك، وإبراهيم النخعى، والربيع، والضحاك، وزيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن وغيرهم ومعناه على هذا: الاستعانة على ما هم فيه من الضر والشدة والضيق بكثرة الصلاة، كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أَمْرٌ فزع إلى

الصلاة وقيل معناه: أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم فى مجتمعاتهم ومعابدهم، فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم، عوضًا عما فاتهم من إظهار شعائر الدين الحق فى ذلك الزمان، والذى اقتضى حالهم إخفاءه خوفًا من فرعون وملئه، والمعنى الأول أقوى لقوله: ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وإن كان لا ينافى الثانى أيضًا. والله أعلم.

ودعا موسى عليه السلام دعوة عظيمة على عدو الله فرعون، غضبًا لله عليه فقال: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ ﴾ يعنى قومه من القبط، ومن كان على ملته ودان بدينه ﴿ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ﴾ أى وهذا يغتر به من يعظم أمر الدنيا فيحسب الجاهل أنه على شىء يرضى الله، ولكن هذه الأموال وهذه الزينة وهذا الملك والتمكين كلها للدنيا لا للدين، وقد فتنوا بها، فضلوا وأضلوا.

﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ ﴾ أى أهلكها، وقيل: اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت. قال محمد بن كعب: صارت أموالهم كلها حجارة ﴿ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ (اطبع عليها) ﴿ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ وهذه دعوة غضب لله تعالى ولدينه فاستجاب الله تعالى لها وحققها وتقبلها حيث قال تعالى مخاطبًا لموسى عليه السلام حين دعا على فرعون وملئه، وأمَّن أخوه هارون على دعائه فنزل ذلك منزلة الداعى أيضًا ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾

[يونس: ٨٩].

خروج بنى إسرائيل من مصر

قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب: استأذن بنو إسرائيل فرعون فى الخروج إلى عيد لهم، فأذن لهم وهو كاره، ولكنهم تجهزوا للخروج

وتأهبوا له وإنما كان فى نفس (الأمر) مكيدة لفرعون وجنوده، ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم. وأمرهم الله تعالى أن يستعيروا حليا منهم، فأعاروهم شيئًا كثيرًا، فخرجوا بليل، فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم، طالبين بلاد الشام. فلما علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق، واشتد غضبه عليهم، وشرع فى استحثاث جيشه وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم.

قال علماء التفسير: لما ركب فرعون فى جنوده طالبًا بنى إسرائيل يقْفوا أثرهم كان فى جيش كثيف عرمرم، حتى قيل: كان فى خيوله مائة ألف فحل أدهم، وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستمائة ألف. فالله أعلم وقيل: إن بنى إسرائيل كانوا نحوًا من ستمائة ألف مقاتل غير الذرية والنساء.

وكان بين خروجهم من مصر صحبة موسى عليه السلام ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنة وستّ وعشرون سنة شمسية.

والمقصود: أن فرعون لحقهم بالجنود فأدركهم عند شروق الشمس، وتراءى الجمعان، وعاين كل من الفريقين صاحبه ولم يبق إلا المقاتلة، فعند ذلك قال أصحاب موسى وهم خائفون: ﴿**إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**﴾ وذلك لأنهم اضطروا فى طريقهم إلى خوض البحر فليس لهم طريق غيره، وهذا ما لا يستطيعونه، والجبال عن يسرتهم وعن إيمانهم، وهى شاهقة منيفة، وفرعون قد هاجمهم، وعاينوه فى جنوده وجيوشه وعُدَده وهم منه فى غاية الخوف والذعر لما قاسوا فى سلطانه من التنكيل والتعذيب، فضجوا إلى نبى الله لأنه المنقذ الذى أرسله الله لتخليصهم فقال لهم: ﴿**كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾ وكان فى الساقة (المؤخرة) فتقدم إلى المقدمة، ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه وهو يقول: ههنا أُمرت. ومعه أخوه هارون، ويوشع بن نون، ومعهم مؤمن آل فرعون. ويقال: إن مؤمن آل فرعون

جعل يقتحم بفرسه مرارًا فى البحر هل يمكن سلوكه؟ فلا يمكن، ويقول لموسى عليه السلام: يا نبى الله: أههنا أمرت؟ فيقول: نعم.

فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر، واقترب فرعون وجنوده فى حدهم وحديدهم، وغضبهم، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، فعند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير رب العرش الكريم إلى موسى الكليم ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فلما ضربه يقال إنه قال له: انفلق بإذن الله. ويقال: إنه كناه بأبى خلد، ويقال: إنه انفلق اثنى عشر طريقًا، لكل سبط طريق يسيرون فيه، حتى قيل: إنه صار فيه أيضًا شبابيك ليرى بعضهم بعضًا: وفى هذا نظر، لأن الماء جرم شفاف إذا كان من ورائه ضياء حكاه. وهكذا كان ماء البحر قائمًا مثل الجبال مكفوفًا بالقدرة العظيمة الصادرة من الذى يقول للشىء كن فيكون، وأمر الله ريح الدبور فلفحت وحَلَ البحر فأذهبته حتى صار يابسًا لا يعلق فى سنابك الخيول أو الدواب كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾

[طه: ٧٧-٧٩]

ولما آل أمر البحر إلى هذه الحال أمر الله موسى عليه السلام أن يسلكه بنى إسرائيل فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين ويهدى قلوب المؤمنين فلما جاوزه وخرج آخرهم منه كان ذلك عند وصول أول جيش فرعون إليه، فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه، فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال كما قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا (ساكنا) إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا

مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٣-٢٩]. فلما ترك موسى البحر على حالته وهيئته وانتهى فرعون إليه ورأى ما رأى وعاين ما عاين هاله هذا المنظر العظيم من أن هذا من فعل رب العرش الكريم أحجم ولم يتقدم، وندم فى نفسه حيث لا ينفعه الندم، لكنه أظهر لجنوده تجلدًا، وحملته النفس الكافرة وكبرياء السلطة والقوة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه: انظروا كيف بقى البحر محسرا لى لأُدْرك عبيدى الآبقين من يدى، الخارجين عن طاعتى وبلدى، وجعل يحدِّث نفسه أن يذهب خلفهم ويريد أن ينجو ويقدم تارة ويحجم تارات. فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدَّى فى صورة فارس راكب على رمكة (نوع من الخيول جيد) حايل (طالبة للفحل) فمر بين يدى فحل فرعون - لعنه الله- فحمحم إليها وأقبل عليها، وأسرع جبريل عليه السلام بين يديه، فاقتحم البحر فأسرع جواد فرعون وراءها، وفرعون لا يملك من نفسه ضراً ولا نفعًا، فلما رأته الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين، فصاروا فى البحر أجمعين، حتى همَّ أولهم بالخروج منه، فعند ذلك أمر الله تعالى كليمه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فارتد عليهم كما كان، فلم ينج منهم إنسان كما قال الله تعالى: **﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾** [الشعراء: ٦٥، ٦٦] وقال تعالى: **﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾**

[يونس: ٩٠، ٩٢].

كيفية هلاك فرعون

يخبر تعالى عن كـيفية غرق فرعون زعيم كـفرة القبط، وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة وترفعه أخرى، وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده مـاذا أحل الله به وبهم من البـأس العظيم والخطب الجـسيم، ليكون أقـر لأعين بنى إسرائيل، وأشفى لنفوسهم، فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به وباشر سكرات الموت، أناب حينئذ وتاب، وآمـن حين لا ينفع نفسًا إيمانها كما قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّـا رَأَوْا بَأْسَنَا قَـالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْـدَهُ وَكَـفَرْنَا بِمَـا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ** ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥] .

وقال أبو داود الطيـالسى: حدثنا شـعبة عن عـدى بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبيـر عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: قال لى جـبريل: لو رأيتنى وأنا آخـذ من حـال البحـر (طينه) فأدسُّـه فى فم فرعـون مخافـة أن تناله الرحمة» ورواه الـترمذى وابن جـرير من حديث شعبة. وقـال الترمذى: حسن غريب صحـيح، وأشار ابن جرير فى رواية إلى وقفه.

فلما آمن فى هذه الحـالة قال الله تعالى: ﴿ **آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ استفـهام إنكار، ونص على عدم قبـوله تعالى منه ذلك؛ لأنه لو رُدَّ إلى الدنيا كـما كان لعاد إلى مـا كان عليه كما قـال تعالى عن الكفار: ﴿ **وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿ **فَـالْيَـوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَـدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً** ﴾ قال ابن عباس وغيـر واحد: شك بعض بنى إسرائيل فى مـوت فرعون حـتى قال

بعضهم: إنه لا يموت، فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع. قيل: على وجه الماء. وقيل على نجوة من الأرض وعليه درعه التى يعـرفونها من ملابسه. ولهذا قال: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أى مصاحبـًا درعك المعروفة بك ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾. وقـرأ بعض السلف، ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ آيَةً﴾.

وقد كان هلاكه وجنوده فى يوم عاشوراء. كـما قال الإمام البخارى فى صحيحه: حدثنا محمـد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة عن أبى بشر عن سعيـد بن جبير، عن ابن عـباس قال: قدم النبى ﷺ المدينـة واليهود تصوم يوم عـاشوراء فقالوا: هذا يوم ظهـر فيه موسى على فـرعون. قال النبى ﷺ: «أنتم أحق بموسى منهم فصوموا».

أمر بنى إسرائيل بعد هلاك فرعون

قد أهلك الله الجيش القبطى جميـعه وسلبهم عزهم العزيز العريض فى الدنيا، وهلك الملك وحاشيتـه وأمراؤه وجنوده، ولم يبق ببلد مصر سوى العامة والرعايا.

وعند أهل الكتاب: أنه لما خـرج بنو إسرائيل من مصر أخرجـوا معهم تابوت يوسف عليه السلام وخرجـوا على طريق بحر «سوف»، وكانوا فى أول النهار يسـيرون والسحـاب بين أيديهم يسير أمـامهم فيه عـامود نور، وبالليل أمامـهم عامود نار فـانتهى بهم الطريق إلى ساحل البـحر، فنزلوا هنالك وأدركهم فرعون وجنوده من المصريين وهم هناك حلول على شاطئ اليم فقلق كثـير من بنى إسرائيل حتى قال قائلهم: كـان بقاؤنا بمصر أحب إلينا من الموت بهذه البرية.

وقال مـوسى عليه السلام لـمن قال هذه المقالة: لا تخـشوا فإن فـرعون وجنوده لا يرجعون إلى بلدهم بعد هذا. إلى آخر ما سبق.

وذكروا أنهم لما جـاوزوا البحر وذهبـوا قاصدين إلى بلاد الشـام مكثوا

ثلاثة أيام لا يجدون ماء فتكلم من تكلم منهم بسبب ذلك فوجدوا ماء زعافاً أجاجًا لم يستطيعوا شربه فأمر الله تعالى موسى عليه السلام فأخذ خشبة فوضعها فيه فذهبت مرارته وساغ شربه وعلَّمه الرب هنالك فرائض وسننًا ووصاه وصايا كثيرة.

وقال الله تعالى فى كتابه العزيز المهيمن على ما عداه من الكتب: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩].

قالوا هذا الجهل والضلال وقد عاينوا من آيات الله وقدرته ما دلهم على صدق ما جاءهم به رسول ذى الجلال والإكرام، وذلك أنهم مروا على قوم يعبدون أصنامًا، قيل: كانت على صور البقر، فكأنهم سألوهم لِمَ يعبدونها؟ فزعموا لهم أنها تنفعهم وتضرهم ويسترزقون بها عند الضرورات، فكأن بعض الجهال منهم صدقوهم فى ذلك، فسألوا نبيهم الكليم أن يجعل لهم آلهة كما لأُولئك آلهة فقال لهم مبينًا لهم أنهم لا يعقلون ولا يهتدون: ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ثم ذكرهم نعمة الله عليهم فى تفضيلة إياهم على عالمى زمانهم بالعلم والشرع والرسول الذى بين أظهرهم، وما أحسن به إليهم، وما امتن به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد، وإهلاكه إياه وهم ينظرون، وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملؤه يجمعونه من الأموال ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾. وبيَّن لهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له. وليس كل بنى إسرائيل سأل هذا السؤال، بل الضمير فى «قالوا» عائد على الجنس.

نكول بنى إسرائيل عن قتال الجبارين

وذلك: أن موسى عليه السلام لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت

المقدس وجد فيها قومًا من الجبارين من الحيثيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم وإجلائهم إياهم عن بيت المقدس؛ فإن الله كتبه لهم، ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل أو موسى الكليم عليهما السلام، فأبوا ونكلوا عن الجهاد فسلط الله عليهم الخوف وألقاهم فى التيه يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون مدة أربعين سنة.

قال تعالى يحكى قول موسى لقومه: ﴿**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ**﴾ [المائدة: ٢١] (أى تنكصوا على أعقابكم وتنكلوا عن قتال أعدائكم) ﴿**فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ**﴾ [المائدة: ٢١، ٢٢] خافوا من هؤلاء الجبارين وقد عاينوا هلاك فرعون وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأسًا وأكثر جمعًا وأعظم جندًا، وهذا يدل على أنهم ملومون فى هذه المقالة، ومذمومون على هذه الحالة من الجبن عن مصاولة الأعداء ومقاومة المردة الأشقياء.

وقد أشار عليهم رجلان صالحان منهم بالإقدام ونَهَيَاهُم عن الإحجام. ويقال: إنهما «يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا»، ﴿**قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ**﴾ أى يخافون الله ﴿**أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا**﴾ بالإسلام والإيمان والطاعة والشجاعة ﴿**ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [المائدة: ٢٣].

﴿**قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾ [المائدة: ٢٤] فصمم ملؤهم على النكول عن الجهاد ووقع أمر عظيم ووهن كبير. فيقال: «إن يوشع، وكالب» لما سمعا هذا الكلام شقَّا ثيابهما، وإن موسى وهارون سجدا إعظامًا لهذا الكلام،

وغضبًا لله عز وجل، وشفقة عليهم من وبيل هذه المقالة ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ (اقض) بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾. فعوقبوا على نكولهم بالتيهان فى الأرض؛ يسيرون إلى غير مقصد ليلاً ونهارًا وصباحًا ومساء. ويقال: إنه لم يخرج أحد من التيه ممن دخله بل ماتوا كلهم فى مدة أربعين سنة ولم يبق إلا ذراريهم سوى يوشع وكالب عليهما السلام.

دخول بنى إسرائيل التِّيه
وما فيه من الأمور العجيبة

قد ذكرنا نكول بنى إسرائيل عن قتال الجبارين، وأن الله تعالى عاقبهم بالتيه وحكم بأنهم لا يخرجون منه إلى انتهاء أربعين سنة، ولم أر فى كتاب أهل الكتاب قصة نكولهم عن قتال الجبارين، ولكن فيها أن يوشع جهزه موسى لقتال طائفة من الكفار، وأن موسى، وهارون، وخور، جلسوا على رأس أكمة ورفع موسى عصاه، فكلما رفعها انتصر يوشع عليهم وكلما مالت يده بها من تعب أو نحوه غلبهم أولئك، وجعل هارون وخور يدعمان يديه عن يمينه وشماله ذلك اليوم إلى غروب الشمس، فانتصر حزب يوشع عليه السلام.

قالوا: ودخل بنو إسرائيل البرية عند سيناء فى الشهر الثالث من خروجهم من مصر، وكان خروجهم فى أول السنة التى شرعت لهم وهى أول فصل الربيع فكأنهم دخلوا التيه فى أول فصل الصيف. والله أعلم.

قالوا: ونزل بنو إسرائيل حول طور سيناء، وصعد موسى الجبل فكلمه

ربه وأمره أن يذكِّر بنى إسرائيل بما أنعم الله به عليهم من إنجائه إياهم من فرعون وقومه، وكيف حملهم على مثل جناحى نسر من يده وقبضته، وأمره أن يأمر بنى إسرائيل بأن يتطهروا ويغتسلوا ويغسلوا ثيابهم، وليستعدوا إلى اليوم الثالث، فإذا كان فى اليوم الثالث فليجتمعوا حول الجبل ولا يقتربن أحد منهم منه فمن دنا منه قُتل حتى ولا شىء من البهائم ما داموا يسمعون صوت القرن فإذا سكن القرن فقد حل لكم أن ترتقوه، فسمع بنو إسرائيل ذلك وأطاعوا واغتسلوا وتنظفوا وتطيبوا فلما كان اليوم الثالث ركب الجبلَ غمامةٌ عظيمة وفيها أصوات وبروق وصوت الصور شديد جدا ففزع بنو إسرائيل من ذلك فزعًا شديداً وخرجوا فقاموا فى سطح الجبل، وغشَّى الجبل دخانٌ عظيم، فى وسطه عمود نور، وتزلزل الجبل كله زلزلة شديدة، واستمر صوت الصور وهو البوق، واشتد، وموسى عليه السلام فوق الجبل والله يكلمه ويناجيه، وأمر الرب عز وجل موسى عليه السلام أن ينزل، فأمر بنى إسرائيل أن يقتربوا من الجبل ليسمعوا وصية الله وأمر الأحبار -وهم علماؤهم- أن يدنوا فيصعدوا الجبل ليتقدموا بالقرب. وهذا نص فى كتابهم على وقوع النسخ لا محالة فقال موسى: يارب إنهم لا يستطيعون أن يصعدوه وقد نهيتهم عن ذلك فأمره الله تعالى أن يذهب فيأتى معه بأخيه هارون وليكن الكهنة (وهم العلماء)، والشَّعبُ (وهم بقية بنى إسرائيل) غير بعيدين ففعل موسى وكلمه ربه عز وجل فأمره حينئذ بالعشر الكلمات.

وعندهم أن بنى إسرائيل سمعوا كلام الله ولكن لم يفهموا حتى أفهمهم موسى عليه السلام، وجعلوا يقولون لموسى: بلِّغنا أنت عن الرب عز وجل فإنا نخاف أن نموت، فبلَّغهم عنه فقال هذه العشر الكلمات وهى: الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له. والنهى عن الحلف بالله كاذبًا. والأمر بالمحافظة على السبت، ومعناه تفرغ يوم من الأسبوع للعبادة. أكرم أباك وأمك ليطول عمرك فى الأرض الذى يعطيك الله ربك. لا تقتل لا تزن.

لا تسرق. لا تشهد على صاحبك شهادة زور. لا تمدن عينيك إلى بيت صاحبك. ولا تشته امرأة صاحبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئًا من الذى لصاحبك، ومعناه النهى عن الحسد.

وقد قال كثير من علماء السلف وغيرهم: مضمون هذه العشر الكلمات فى ثلاث آيات من القرآن وهى قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣] وذكروا بعد العشر الكلمات وصايا كثيرة، وأحكامًا متفرقة عزيزة كانت فزالت، وعملوا بها حينًا من الدهر، ثم طرأ عليها عصيان من المكلفين بها، ثم عمدوا إليها فبدَّلوها وحرَّفوها وأوَّلوها، ثم بعد ذلك كله سُلِبوها فصارت منسوخة مبدلة بعد ما كانت مشروعة مكملة فلله الأمر من قبل ومن بعد وهو الذى يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد. قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٠-٨٢].

يذكر تعالى مِنّته وإحسانه إلى بنى إسرائيل بما أنجاهم من أعدائهم وخلصهم من الضيق والحرج وأنه وعدهم صحبة نبيهم إلى جانب الطور

الأيمن -منهم- لينزل عليه أحكامًا عظيمة فيها مصلحة لهم فى دنياهم وأخراهم وأنه تعالى أنزل عليهم فى حال شدتهم وضرورتهم فى سفرهم فى الأرض التى ليس فيها زرع ولا ضرع مَنًّا من السماء يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم فيأخذون منه قدر حاجتهم فى ذلك اليوم إلى مثله من الغد، ومن ادخر منه لأكثر من ذلك فسد. ومن أخذ منه قليلاً كفاه أو كثيرًا لم يفضل عنه فيصنعون منه مثل الخبز وهو فى غاية البياض والحلاوة فإذا كان من آخر النهار غشيهم طير السلوى فيقتنصون منه بلا كلفة ما يحتاجون إليه حسب كفايتهم لعشائهم. وإذا كان فصل الصيف ظلّل الله عليهم الغمام وهو السحاب الذى يستر عنهم حر الشمس وضوأها الباهر وأنبع الله الماء لهم بضرب موسى عليه السلام حجرًا كانوا يحملونه معهم بالعصا فتتفجر منه اثنتا عشرة عينًا، لكل سبط عين منه تتفجر ماء زلالاً، فيستقون ويسقون دوابهم ويدخرون كفايتهم.

وهذه نعم من الله عظيمة، وعطيات جسيمة، فما رعوها حق رعايتها، ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها، بل ضجر كثير منها، وتبرموا بها، وسألوا بديلاً لها مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، فقرعهم الكريم ووبخهم وأنبهم على هذه المقالة وعنفهم قائلاً: **﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾** [البقرة: ٦١]، أى هذا الذى تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم التى أنتم فيها حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها، وإذا هبطتم إليها أى ونزلتم عن هذه المرتبة التى لا تصلحون لمنصبها تجدون بها ما تشتهون وما ترومون مما ذكرتم من المآكل الدنية والأغذية الردية ولكنى لست أجيبكم إلى سؤال ذلك ههنا ولا أبلغكم ما تعنتم به من المنى.

وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم تدل على أنهم لم ينتهوا عما نهوا عنه كما قال تعالى: **﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ**

عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ (هلك) [طه: ٨١]. وقد حل عليهم غضب الملك الجبار، ولكنه تعالى مزج هذا الوعيد الشديد بالرجاء لمن أناب وتاب ولم يستمر على متابعة الشيطان المريد فقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] اهـ ابن كثير.

سؤال الرؤية

قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢-١٤٤].

قال جماعة من السلف منهم ابن عباس ومسروق ومجاهد: الثلاثون ليلة هى شهر ذى القعدة بكماله وأتمت أربعين ليلة بعشر ذى الحجة؛ فعلى هذا يكون كلام الله له يوم عيد النحر وفى مثله أكمل الله عز وجل لمحمد ﷺ دينه وأقام حجته وبراهينه، وأنزله عليه قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ . . . الخ [المائدة: ٣] والمقصود أن موسى عليه السلام لما استكمل الميقات وكان فيه صائمًا يقال: إنه لم يستطعم الطعام فلما كمل الشهر أخذ لِحَاءَ شجرة فمضغه ليطيِّب ريح فمه فأمره الله أن يمسك عشراً أخرى، فصارت أربعين ليلة، فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بنى إسرائيل أخاه هارون المحبب المبجل، وهو ابن أمه وأبيه، ووزيره فى الدعوة، فوصاه وأمره، وليس فى هذا منافاة لعلو منزلته فى نبوته. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ أى فى الوقت الذى أُمر بالمجىء فيه ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ أى من وراء حجاب إلا أنه أسمعه الخطاب فناداه وناجاه وقربه وأدناه، وهذا مقام رفيع ومنصب شريف، فصلوات الله عليه تترى

وسلامه عليه فى الدنيا والأخرى، ولما أعطى هذه المنزلة العلية والمرتبة السنية وسمع الخطاب سأل رفع الحجاب فقال للعظيم الذى لا تدركه الأبصار: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾ ثم بيَّن تعالى له أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى؛ لأن الجبل الذى هو أقوى وأكبر ذاتًا وأشد ثباتًا من الإنسان لا يثبت عند التجلى من الرحمن ولهذا قال: ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾.

وفى الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال له: يا موسى إنه لن يرانى حى إلا مات ولا يابس إلا تدهده.

وفى الصحيحين عن أبى موسى عن رسول الله ﷺ أنه قال: حجابه النور. وفى رواية: النار لو كشفه لأحرقت سُبُحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

وقال ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ ذاك نوره الذى هو نوره إذا تجلى لشىء لا يقوم له شىء، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. قال مجاهد: فلما تجلى ربه للجبل فنظر إلى الجبل لا يتمالك وأقبل الجبل فَدُكَّ على أوله ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقًا.

وقد روى الإمام أحمد والترمذى وصححه وابن جرير والحاكم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت. زاد ابن جرير، وليث، عن أنس أن رسول الله ﷺ قرأ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال: هكذا بإصبعه ووضع النبى ﷺ الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل. لفظ ابن جرير.

وقال السدى عن عكرمة وعن ابن عباس: ما تجلى يعنى من العظمة إلا

قدر الخنصر فجعل الجبل دكًا (ترابًا) ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أى مغشيًا عليه.

﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه لا يراك حى إلا مات ولا يابس إلا تدهده (تدحرج).

وقد ثبت فى الصحيحين من طريق عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبى حسن المازنى الأنصارى عن أبيه عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تخيرونى من بين الأنبياء فإن الناس يُصعقون يوم القيامة فأكون أولَ من يُفيق فإذا أنا بموسى آخِذٌ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أفاق قبلى أو جوزى بصعقة الطور»؟ لفظ البخارى. وهذا من باب الهضم والتواضع، أو نهى عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب والعصبية، أو ليس هذا إليكم بل الله هو الذى رفع بعضهم فوق بعض درجات وليس ينال هذا بمجرد الرأى بل بالتوقيف.

ومن قال: إن هذا قاله قبل أن يعلم أنه أفضل ثم نسخ باطلاعه على أفضليتهم كلهم، ففى قوله نظر. لأن هذا من رواية أبى سعيد وأبى هريرة، وما هاجر أبو هريرة إلا عام حنين متأخرًا فيبعد أنه لم يعلم بهذا إلا بعد هذا. والله أعلم.

ولا شك أنه صلوات الله وسلامه عليه أفضل البشر بل الخليقة.

قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وما كملوا إلا بشرف نبيهم. وثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر» ثم ذكر اختصاصه بالمقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون الذى تحيد عنه الأنبياء والمرسلون، حتى أولو العزم الأكملون «نوح، إبراهيم، موسى، عيسى بن مريم».

وقوله ﷺ: «فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشًا بقائمة العرش» أى آخذا بها «فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور» دليل على أن هذا الصعق الذى يحصل للخلائق فى عرصات القيامة حين يتجلى الرب

لفصل القضاء بين عباده فيصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلال، فيكون أولهم إفاقة محمد خاتم الأنبياء ﷺ فيجد موسى باطشًا بقائمة العرش. قال الصادق المصدق: «لا أدرى أَصُعق فأفاق قبلى» أى كانت صعقته خفيفة لأنه قد ناله بهذا السبب فى الدنيا صَعَقٌ أو جوزى بصعقة الطور يعنى فلم يُصعق بالكلية وهذا فيه شرف كبير لموسى عليه السلام من هذه الحيثية. ولا يلزم تفضيله بها مطلقًا من كل وجه.

وقوله تعالى: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾ أى فى ذلك الزمان لا ما قبله لأن إبراهيم الخليل أفضل منه كما تقدم بيان ذلك فى قصة إبراهيم، ولا ما بعده لأن محمدًا ﷺ أفضل منهما كما ظهر شرفه ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء، كما ثبت أنه قال «سأقوم مقامًا يرغب إلىَّ الخلق حتى إبراهيم».

وقوله تعالى: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام ولا تسأل زيادة عليه ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ على ذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]. وكانت الألواح من جوهر نفيس.

ففى الصحيح: إن الله كتب له التوراة بيده وفيها مواعظ عن الآثام وتفصيل لكل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أى بعزم ونية صادقة قوية.

﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أى يضعوها على أحسن وجوهها وأجمل محاملها.

﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أى سترون عاقبة الخارجين عن طاعتى، المخالفين لأمرى، المكذبين لرسلى.

قصة عبادتهم العجل

يذكر تعالى ما كان من أمر بنى إسرائيل حين ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه فمكث على الطور يناجيه ربه ويسأله موسى عليه السلام عن أشياء كثيرة وهو تعالى يجيبه عنها. فعمد رجل منهم يقال له هارون السامرى، فأخذ ما كانوا استعاروه من الحلى، فصاغ منه عجلاً وألقى فيه قبضة من التراب، كان أخذها من أثر فرس جبريل حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقى. ويقال: إنه استحال عجلاً جسدًا، أى لحمًا ودمًا حيًا يخور. وقيل: بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة، فيرقصون حوله ويفرحون ﴿**فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ**﴾ أى فنسى موسى ربه عندنا، وذهب يتطلبه وهو ههنا: تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً وتقدست أسماؤه وصفاته.

قال الله تعالى مبينًا بطلان ماذهبوا إليه من إلهية هذا الذى أحسن أحواله أن يكون حيوانًا بهيمًا أو شيطانًا رجيمًا ﴿**أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَراً وَلا نَفْعًا**﴾ [طه: ٨٩]، وقال: ﴿**اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ**﴾ [الأعراف: ١٤٨].

ولما رجع موسى عليه السلام إليهم ورأى ما هم عليه من عبادة العجل ومعه الألواح المتضمنة التوراة، ألقاها. فيقال: إنه كسرها. وهكذا هو عند أهل الكتاب، وأن الله أبدله غيرها، وليس فى اللفظ القرآنى ما يدل إلا على أنه ألقاها حين عاين ما عاين.

ثم أقبل عليهم فعنَّفهم ووبَّخهم وهجَّنهم فى صنيعهم هذا القبيح فاعتذروا إليه، بما ليس بصحيح ﴿**قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا**

أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ أى أنهم تحرجوا من تملك حليّ آل فرعون ففعلوا بها ما فعلوا تخلصًا منها مع أنهم أهل حرب، وقد أمرهم الله أن يأخذوها وأباحها لهم، ولم يتحرجوا بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم من عبادة العجل.

ثم أقبل موسى على أخيه هارون عليه السلام قائلاً له: «يا هارون ما منعك حين رأيتهم صنعوا ذلك أن تتبعنى فتخبرنى بما فعلوا. فقال: إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل» أى تركتهم وجئتنى وأنت قد استخلفتنى فيهم. ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١]. وقد كان هارون عليه السلام نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهى وزجرهم عنه أتم الزجر فلم ينتهوا.

ثم أقبل موسى على السامرى فقال: ما حملك على ما صنعت فقال: رأيت جبرائيل وهو راكب فرسًا فقبضت قبضة من أثر فرسه. وقد ذكر بعضهم أنه رآها كلما وطئت بحوافرها على موضع اخضرّ وأعشب، فأخذ من أثر حافرها، فلما ألقاه فى هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان ولهذا قال: ﴿فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي. قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ﴾ وهذا دعاء عليه بأن لا يمس أحدًا، معاقبة له على مسه فإن مس أحدًا أخذته هو والممسوس الحمى فكان يهيم فى الصحراء ليبتعد عن الناس فى الدنيا، ثم توعده فى الأخرى فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾.

ثم قال موسى لقومه: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ (أى ليقتل بعضكم بعضًا) ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤]. فيقال: إنهم أصبحوا يومًا وقد أخذ من لم يعبد العجل فى أيديهم السيوف وألقى الله عليهم ضبابًا حتى لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه، ثم مالوا على

عابديه فقتلوهم وحصدوهم، فيقال: إنهم قتلوا فى صبيحة واحدة سبعين ألفًا.

ثم قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٤-١٥٦].

ذكر السدى، وابن عباس، وغيرهما أن هؤلاء السبعين كانوا علماء بنى إسرائيل، ومعهم موسى، وهارون، ويوشع. وناذاب، وأبيهو. ذهبوا مع موسى عليه السلام ليعتذروا عن بنى إسرائيل فى عبادة من عبد منهم العجل. وكانوا قد أمروا أن يتطيبوا ويتطهروا ويغتسلوا فلما ذهبوا معه واقتربوا من الجبل وعليه الغمام وعمود النور ساطع صعد موسى الجبل. فذكر بنو إسرائيل أنهم سمعوا كلام الله. وهذا قد وافقهم عليه طائفة من المفسرين، وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥].

وليس هذا بلازم لقوله تعالى: ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦]. أى مبلَّغًا، وهكذا هؤلاء سمعوه مبلغًا من موسى عليه السلام.

وزعموا أيضًا أن السبعين رأوا الله، وهذا غلط منهم لأنهم لما سألوا الرؤية أخذتهم الرجفة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦].

وقال ههنا: ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ

﴿وَإِيَّايَ﴾ قال محمد بن إسحاق: اختار موسى من بنى إسرائيل سبعين رجلاً. الخيِّر فالخير ثم قال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهِّروا ثيابكم، فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقَّته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم، فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام الله، فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فى الغمام، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه الحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا ساجدين فسمعوه وهو يكلِّم موسى يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل. فلما فرغ الله من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا: ﴿يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ فأخذتهم الرجفة وهى الصاعقة فأتلفت أرواحهم فماتوا جميعًا. فقام موسى يناشد ربه ويدعوه، ويرغب إليه ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ أى لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا فإنا براء مما عملوا. وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ أى اختبارك وامتحانك يعنى أنت الذى قد قدرت هذا وخلقت ما كان من أمر العجل اختبارًا تختبرهم به كما ﴿قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾ [طه: ٩٠] أى اختبرتم.

بنو إسرائيل يجبرون على العمل بالتوراة

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

قال ابن عباس وغير واحد من السلف: لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوراة أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم، فقالوا: انشرها علينا فإن

كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها، فقال: بل اقبلوها بما فيها، فراجعوه مرارًا، فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رؤوسهم حتى صار كأنه ظلة - أى غمامة- على رؤوسهم، وقيل لهم: إن لم تقبلوها بما فيها سقط هذا الجبل عليكم، فقبلوا ذلك وأمروا بالسجود فسجدوا، فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم، فصارت سنة لليهود إلى اليوم، يقولون: لا سجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب.

قصة بقرة بنى إسرائيل

قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾

[البقرة: ٦٧-٧٣].

قال ابن عباس، وعبيدة السَّلمانى، وأبو العالية، ومجاهد، والسدى وغير واحد من السلف: كان رجل فى بنى إسرائيل كثير المال، وكان شيخًا كبيرًا، وله بنو أخ، وكانوا يتمنون موته ليرثوه، فعمد أحدهم فقتله فى الليل وطرحه فى مجمع الطرق، ويقال: على باب رجل منهم، فلما أصبح الناس اختصموا فيه، وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم. فقالوا: ما لكم تختصمون ولا تأتون نبى الله؟ فجاء ابن أخيه فشكا أمر عمه إلى

رسول الله موسى عليه السلام، فقال موسى عليه السلام: أنشد الله رجلاً علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به. فلم يكن عند أحد منهم علم منه، فسألوه أن يسأل فى هذه القضية ربه عز وجل، فسأل ربه عز وجل فى ذلك، فأمره الله تعالى أن يأمرهم بذبح بقرة، فقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا**﴾ يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتيل وأنت تقول هذا ﴿**قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ أى أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى إلى. وهذا هو الذى أجابنى حين سألته عما سألتمونى عنه أن أسأله فيه.

قال ابن عباس، وعبيدة، ومجاهد، وعكرمة، والسدى، وأبو العالية، وغير واحد: فلو أنهم عمدوا إلى أى بقرة فذبحوها، لحصل المقصود منها؛ ولكنهم شددوا فشدد عليهم، وقد ورد فيه حديث مرفوع. وفى إسناده ضعف. فسألوا موسى عليه السلام عن صفتها ثم عن لونها، ثم عن سنِّها، فأجيبوا بما عزَّ وجوده عليهم.

والمقصود: أنهم أمروا بذبح بقرة عوانٍ وهى الوسط بين النصف الفارض وهى الكبيرة، والبِكْر وهى الصغيرة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، وعكرمة، والحسن، وقتادة، وجماعة فشدَّدوا وضيّقوا على أنفسهم، فسألوا عن لونها فأمروا بصفراء فاقع لونها مشرب بحمرة تَسُرُّ الناظرين. وهذا اللون عزيز، ثم شدَّدوا أيضًا: ﴿**قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ**﴾ وهذه الصفات أضيق مما تقدم حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذلول وهى الْمُذَلَّلة بالحراثة وَسَقْى الأرض بالساقية ﴿**مُسَلَّمَةٌ**﴾ وهى الصحيحة التى لا عيب فيها ﴿**لَّا شِيَةَ فِيهَا**﴾ أى ليس فيها لون يخالف لونها بل هى مسلمة من العيوب، ومن مخالطة سائر الألوان

غير لونها الأصفر فلما حدَّدها بهذه الصفات وحصرها بهذه النعوت والأوصاف ﴿قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ ويقال: إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان باراًّ بأمه، فطلبوها منه فأبى عليهم فأرغبوه فى ثمنها حتى أعطوه فيما ذكر السدى بوزنها ذهبًا فأبى عليهم حتى أعطوه بوزنها عشر مرات، فباعها لهم، فأمرهم نبى الله موسى عليه السلام بذبحها ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ أى وهم يترددون فى أمرها. ثم أمرهم عن الله تعالى أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها. فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى، فقام وهو تشخب أو داجه، فسأله نبى الله: من قتلك؟ قال: قتلنى ابن أخى ثم عاد ميتًا كما كان.

موسى والخضر عليهما السلام

قال البخارى: حـدثنا الحميدى، حدثنا سفيـان، حدثنا عمرو بن دينار قال: أخـبرنى سعيـد بن جبيـر قال: قلت لابن عبـاس: إن نوفا البُكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هـو صاحب بنى إسرائيل، فقال ابن عبـاس: كذب عـدو الله. حدثنا أبّى بن كـعب أنه سمـع رسول الله ﷺ يقول: «إن مـوسى عليه السـلام قام خطيبًـا فى بنى إسرائيل، فـسئل أى الناس أعلم؟ فـقال: أنا. فعـتب الله تعالى عليـه إذ لم يرد العلم إلى الله سبحـانه، فأوحى الله تعالى إليـه: إن لى عبدًا بمجمع البـحرين هو أعلم منك. قال موسى يارب: فكيـف لى به؟ قال: تأخذ معك حوتًا فـتجعله فى مِكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ، فأخذ حوتًا فجعله فى مكتل، ثم انطلق وانطلق مـعه فتـاه «يوشع بن نون»، حتى إذا أتيـا الصخرة وضـعا رؤوسهـما فـناما، واضطرب الحـوت فى المكتل، فخـرج منه فسـقط فى البحر، واتخذ سبيله فى البـحر سربًا، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصـار عليه مثل الطاق، فـلما استـيقظ نسى صاحـبه أن يخبـره بالحوت فانطلقا بقـية يومهما وليلتهـما. حتى إذا كانا من الغد قال مـوسى لفتاه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ قال: ولم يجـد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله تعـالى به، فقال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال: فكان للحوت سربًا، ولموسى ولفتـاه عجبًا فقال له موسى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾.

قال: فرجعا يقصان آثارهما حتى انـتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجًّى بثوب فسلَّم عليه موسى عليه السلام، فقال الخضر: وأنَّى بأرضك السلام؟

قال: أنا موسى. قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم. أتيتك لتعلمنى مما علِّمْتَ رشدًا ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾. يا موسى: إنى على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علَّمكَهُ الله لا أعلمه، فقال له موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾. فقال له الخضر: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَانطَلَقَا﴾ يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول (أى بغير أجر) فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحًا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾[الكهف: ٧١-٧٣] قال: وقال رسول الله ﷺ: فكانت الأولى من موسى نسيانا. قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلامًا يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ قال: وهذه أشد من الأولى ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ قال: «مائل». فقام الخضر ﴿فَأَقَامَهُ﴾ بيده فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ

مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾ [الكهف: ٧٧-٧٨].

فقال رسول الله ﷺ: وددنا أن موسى كان صبر حتى يقصَّ الله تعالى علينا من خبرهما.

قال سعيد بن جبير: فكان ابن عباس يقرأ «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا، وكان يقرأ «وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين».

والقول بأن الخضر عليه السلام نبى هو الحق، وقيل: رسول، وقيل: وَلِىٌّ، والراجح أنه ليس بحىٍّ الآن وأنه مات من زمن بعيد، ولو كان نبيًا وكان حيًا لوجب عليه الإيمان بمحمد ﷺ ونصرته، فكيف إن كان الخضر وليًا كما يقوله طوائف كثيرون؟ فأولى أن يدخل فى عموم البعثة وأحرى. ولم ينقل فى حديث حسن ولا ضعيف يعتمد أنه جاء يومًا واحدًا إلى رسول الله ﷺ ولا اجتمع به. وما ذكر من حديث التعزية فيه وإن كان الحاكم قد رواه. فإسناده ضعيف والله أعلم. اهـ ابن كثير.

ذكر بناء قبة الزمان وأهميتها

قال أهل الكتاب: وقد أمر الله موسى عليه السلام بعمل قبة من خشب الشمشاز وجلود الأنعام وشعر الأغنام وأمر بزينتها بالحرير المصبغ والذهب والفضة على كيفيات مفصَّلة عند أهل الكتاب ولها عشر سرادقات طول كل واحد ثمانية وعشرون ذراعًا وعرضه أربعة أذرع ولها أربعة أبواب وأطناب من حرير ودمقس مصبغ، وفيها رفوف وصفائح من ذهب وفضة، ولكل زاوية بابان وأبواب أخر كبيرة وستور من حرير مصبغ وغير ذلك مما يطول ذكره، وبعمل تابوت من خشب الشمشاز يكون طوله ذراعين ونصفًا وعرضه ذراعين، وارتفاعه ذراعًا ونصفًا ويكون مضببًا بذهب خالص من داخله وخارجه، وله أربع حلق فى أربع زوايا ويكون على حافتيه كروبيان من ذهب يعنون صفة ملكين بأجنحة وهما متقابلان. صنعه رجل اسمه «بصليال» وأمره أن يعمل مائدة من خشب الشمشاز طولها ذراعان وعرضها ذراعان ونصف لها ضباب ذهب وأكليل ذهب بشفة مرتفعة بإكليل من ذهب وأربع حلق من نواحيها من ذهب مغرزة فى مثل الرمان من خشب ملبس ذهبًا وأن يعمل صحافًا ومصافى وقصاعًا على المائدة ويصنع منارة من الذهب دلِّى فيها ست قصبات من ذهب من كل جانب ثلاثة. على كل قصبة ثلاث سرج وليكن فى المنارة أربعة قناديل، ولتكن هى وجميع هذه الآنية من قنطار من ذهب. صَنَعَ ذلك (بصليال) أيضًا وهو الذى عمل المذبح أيضًا ونُصبت هذه القبة أول يوم من سنتهم وهو أول يوم من الربيع ونصب تابوت الشهادة وهو والله أعلم المذكور فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وقد بسط هذا الفصل فى كتابهم مطولاً جدًا وفيه شرائع لهم وأحكام

وصفة قربانهم وكيفيته. وفيه أن قبة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل الذى هو متقدم على مجيئهم بيت المقدس وأنها كانت لهم كالكعبة يصلوّن فيها وإليها ويتقربّون عندها وأن موسى عليه السلام كان إذا دخلها يقفون عندها وينزل عمود الغمام على بابها فيخرون عند ذلك سجداً لله عز وجل ويكلم الله تعالى موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام الذى هو نور ويخاطبه ويناجيه ويأمره وينهاه وهو واقف عند التابوت صامد إلى ما بين الكروبيين فإذا فصل الخطاب يُخبر بنى إسرائيل بما أوحاه الله تعالى إليه من الأوامر والنواهى، وإذا تحاكموا إليه فى شىء ليس عنده من الله تعالى فيه شىء يجىء إلى قبة الزمان ويقف عند التابوت ويصمد لما بين ذينك الكروبيين فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة. وقد كان هذا مشروعًا لهم فى زمانهم أعنى استعمال الذهب والحرير المصبغ واللآلئ فى معبدهم وعند مصلاّهم.

فأما فى شريعتنا فلا. بل قد نهينا عن زخرفة المساجد وتزيينها لئلا تشغل المصلين كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لمَّا وسَّع فى مسجد رسول الله ﷺ للذى وكله على عمارته: ابن للناس ما يكنهم وإياك أن تحمِّر أو تصفِّر فتفتن الناس.

وقال ابن عباس: لَتُزَخْرِفُنَّها كما زخرفت اليهود والنصارى كنائسهم. وهذا من باب التشريف والتكريم والتنزيه فهذه الأمة غير مشابهة من كان قبلهم من الأمم إذ جمع الله هممهم فى صلاتهم على التوجه إليه والإقبال عليه، وصان أبصارهم وخواطرهم عن الاشتغال والتفكر فى غير ما هم بصدده من العبادة العظيمة فلله الحمد والمنة.

وقد كانت قبة الزمان هذه مع بنى إسرائيل فى التيه يصلُّون إليها وهى قبلتهم وكعبتهم، وإمامهم كليم الله موسى عليه السلام، ومقدم القربان أخوه هارون عليه السلام.

فلما مات هارون ثم موسى عليهما السلام استمر بنو هارون فى الذى

كان يليـه أبوهم من أمر القربان، وهو فـيهم إلى الآن، وقام بأعبـاء النبوة بعد موسى وتدبير الأمر بعـده فتاه «يوشع بن نون عليه السلام» وهو الذى دخل بيت المقدس كما سيأتى بيانه.

والمقصود هنا أنه لما استقرت يده على بيت المقدس نصب هذه القبة على صخـرة بيت المقدس فكانوا يصلُّون إليـها فلمـا بادت صلوا إلى محلتـها وهى الصخرة، فلهـذا كانت قبلة الأنبياء بعـده إلى زمان رسول الله ﷺ، وقد صلى إليها رسول الله ﷺ قبل الهـجرة وكان يجعل الكعبة بين يديه. فلما هاجر أُمـر بالصلاة إلى بيت المقدس فصلَّى إلـيها ستة عـشر - وقيل سبعـة عشر - شهـرًا. ثم حُوِّلت القبلة إلى الكعبـة وهى قبلة إبراهيم فى شعبان سنة ثنتين فى وقت صلاة العصر. وقيل: الظهر.

ذكر وفاة موسى وهارون عليهما السلام

قال البخارى فى صـحيحه: فى وفاة موسى عليـه السلام» حدثنا يحيى بن موسى، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن ابن طاوس عن أبيه، عن أبى هريرة قال: أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكه فرجع إلى ربه عـز وجل فقـال: أرسلتنى إلى عبـد لا يريد الموت. قال: ارجع إليـه فقـل له يضع يده على متن ثور فله بما غَطَّتْ يـده بكل شعـرة سَنَةٌ. قال: أى رب. ثم ماذا؟ قال: ثم الموت قال: فالآن. قال: فسأل الله عز وجل أن يدنيه من الأرض المقدسة رميـة بحجر. قال أبو هريرة: فقال رسـول الله ﷺ: «فلو كنتُ ثَمَّ لأريتـكم قـبره إلـى جانـب الطريق عند الكثيب الأحمـر». وقد رواه ابن حبان فى صـحيحه من طريق مـعمر عن ابن طاوس عن أبيـه عن أبى هريرة: قـال: معـمر، وأخـبرنى من سـمع الحسن عن رسـول الله ﷺ فذكره ثم اسـتشكله ابن حبـان وأجاب عنه بما حاصله أن ملك الموت لما قال له هذا لـم يعرفه لمجيئه له على غـير صورة يعرفها موسى عليه السلام كما جاء جبريل فى صورة أعرابى، وكما وردت

الملائكة على إبراهيم ولوط فى صورة شباب فلم يعرفهم إبراهيم ولا لوط أولاً وكذلك موسى لعله لم يعرفه لذلك ولطمه ففقأ عينه لأنه دخل داره بغير إذنه وهذا موافق لشريعتنا فى جواز فقء عين من نظر إليك فى دارك بغير إذن.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان حدثنا حماد حدثنا ثابت وسليمان التيمى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لما أُسرى بى مررت بموسى وهو قائم يصلى فى قبره عند الكثيب الأحمر» رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به.

وقال السدى عن أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة قالوا: ثم إن الله تعالى أوحى إلى موسى إنى متوفٍ هارون فأت به جبل كذا وكذا فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل فإذا هم بشجرة لم تُرَشجرةٌ مثلُها، وإذا هم ببيت مبنى، وإذا هم بسرير عليه فرش، وإذا فيه ريح طيبة، فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه فقال يا موسى: إنى أحب أن أنام على هذا السرير، قال له موسى: فنم عليه. قال: إنى أخاف أن يأتى رب هذا البيت فيغضب علىَّ، قال له: لا ترهب. أنا أكفيك رَبَّ هذا البيت فنم. قال يا موسى: بل نم معى فإن جاء رب هذا البيت غضب علىَّ وعليك جميعًا. فلما ناما أخذ هارون الموتُ فلما وجد حسه قال: يا موسى خدعتنى، فلما قُبض رُفع ذلك البيت وذهبت تلك الشجرة ورُفع السرير به إلى السماء فلما رجع موسى إلى قومه وليس معه هارون قالوا: إن موسى قتل هارون وحسده على حب بنى إسرائيل له، وكان هارون أكف عنهم وألين لهم من موسى، وكان فى موسى بعض الغلظة عليهم فلما بلغه ذلك قال لهم: ويحكم كان أخى أفترونى أقتله؟ فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ثم دعا الله فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض أ هـ.

ذكر نبوة يوشع وقيامه بأعباء بنى إسرائيل بعد موسى وهارون عليهما السلام

هو الخليل يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم عليهم السلام، وأهل الكتاب يقولون: يوشع ابن عم هود.

وهو متفق على نبوته عند أهل الكتاب، فإن طائفة منهم وهم السامرة لايقرون بنبوة أحد بعد موسى إلا يوشع بن نون؛ لأنه مصرح به فى التوراة، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم من ربهم فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

ولقد ذكروا فى السفر الثالث: أن الله أمر موسى وهارون أن يَعُدَّا بنى إسرائيل على أسباطهم، وأن يجعلا على كل سبط من الاثنى عشر أميراً وهو النقيب، وما ذاك إلا ليتأهبوا للقتال، قتال الجبارين عند الخروج من التيه، وكان هذا عند اقتراب انقضاء الأربعين سنة. ولهذا قال بعضهم: إنما فقأ موسى عليه السلام عين ملك الموت؛ لأنه لم يعرفه فى صورته تلك، ولأنه كان قد أُمر بأمر كان يرتجى وقوعه فى زمانه، ولم يكن فى قدر الله أن يقع ذلك فى زمانه، بل فى زمان فتاه يوشع بن نون عليه السلام.

والمقصود أن الله تعالىٰ أمر موسى عليه السلام أن يكتب أسماء المقاتلة من بنى إسرائيل ممن يحمل السلاح ويقاتل ممن بلغ عشرين سنة فصاعدا، وأن يجعل على كل سبط نقيباً منهم.

وليس منهم «بنولاوى»، فقد أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن لايعدهم معهم؛ لأنهم موكلون بحمل قبة الشهادة وضربها وخزنها ونصبها وحملها إذا ارتحلوا، وهم سبط موسى وهارون عليهم السلام، وكانوا اثنين

وعشرين ألفاً، من ابن شهر فما فوق ذلك، وهم فى أنفسهم قبائل من كل قبيلة طائفة من قبة الزمان يحرسونها، ويحفظونها ويقومون بمصالحها ونصبها وحملها، وهم كلهم حولها، ينزلون ويرتحلون أمامها ويمنتها وشمالها ووراءها.

فكان «بنولاوى» الموكلون بحفظ قبة الزمان يسيرون فى وسط بنى إسرائيل وهم القلب، ورأس الميمنة «بنو روبيل»، ورأس الميسرة «بنو دان»، «وبنو نفتالى» يكونون ساقة. وقرر موسى عليه السلام - بأمر الله تعالى له - الكهانة فى بنى هارون. كما كانت لأبيهم من قبلهم.

والمقصود: أن بنى إسرائيل لم يبق منهم أحد ممن كان نكل عن دخول مدينة الجبارين الذين قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. قاله الثورى عن أبى سعيد عن عكرمة عن ابن عباس، وقاله قتادة وعكرمة، ورواه السدى عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة حتى قال ابن عباس وغيره من علماء السلف والخلف: ومات موسى وهارون قبله كلاهما فى التيه جميعاً.

فالذى عليه الجمهور أن هارون توفى بالتيه قبل موسى أخيه بنحو من سنتين، وبعده موسى فى التيه أيضاً كما قدمنا، وأنه سأل ربه أن يقرِّبه إلى بيت المقدس فأجيب إلى ذلك.

فكان الذى خرج بهم من التيه، وقصد بهم بيت المقدس، هو يوشع بن نون عليه السلام.

فذكر أهل الكتاب وغيرهم من أهل التاريخ، أنه قطع ببنى إسرائيل نهر الأردن وانتهى إلى أريحا، وكانت من أحصن المدائن سوراً، وأعلاها قصوراً وأكثرها أهلاً، فحاصرها ستة أشهر، ثم إنهم أحاطوا بها يوماً وضربوا بالقرون - يعنى الأبواق - وكبروا تكبيرة رجل واحد، فتفسخ سورها وسقط مرة واحدة، فدخلوها وأخذوا ماوجدوا فيها من الغنائم،

وقتلوا اثنى عشر ألفاً من الرجال والنساء وحاربوا ملوكاً كثيرة.

ويقال: إن يوشع ظهر على أحد وثلاثين ملكاً من ملوك الشام.

وذكروا أنه انتهت محاصرته إلى يوم الجمعة بعد العصر، فلما غربت الشمس أو كادت تغرب، ويدخل عليهم السبت الذى حُرِّم عليهم العمل فيه قال لها: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علىَّ، فحبسها الله عليه حتى تمكن من فتح البلد، وأمر القمر فوقف عند الطلوع، وهذا يقتضى أن هذه الليلة كانت الرابعة عشرة من الشهر الأول، وهو قصة الشمس المذكورة فى الحديث الذى سأذكره. وأما قصة القمر فمن عند أهل الكتاب، ولاينافى الحديث بل فيه زيادة تستفاد فلا تُصدَّق ولا تكذَّب، ولكن ذِكرهم أن هذا فى فتح أريحا فيه نظر، والأشبه والله أعلم - أن هذا كان فى فتح بيت المقدس الذى هوالمقصود الأعظم وفتح أريحا كان وسيلة إليه. والله أعلم.

قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا أبو بكر عن هشام، عن ابن سيرين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس لم تُحبس لبشر إلا ليوشع ليالى سار إلى بيت المقدس». انفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخارى. وفيه دلالة على أن الذى فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام، لا موسى عليه السلام، وأن حبس الشمس كان فى فتح بيت المقدس لا أريحا كما قلنا. وفيه أن هذا كان من خصائص يوشع عليه السلام. فيدل على ضعف الحديث الذى رويناه. أن الشمس رجعت حتى صلى على بن أبى طالب صلاة العصر بعد ما فاتته بسبب نوم النبى ﷺ على ركبته، فسأل رسول الله ﷺ أن يردها عليه حتى يصلى العصر فرجعت. وقد صححه أحمد بن أبى صالح المصرى ولكنه ليس فى شىء من الصحاح ولا الحسان، وهو مما تتوافر الدواعى على نقله، وتفردت بنقله امرأة من أهل البيت مجهولة لايُعرف حالها.

والله أعلم.

والمقصود أنه لما دخل يوشع عليه السلام بهم باب المدينة أمروا أن يدخلوها سجداً أى ركَّعاً متواضعين شاكرين لله عز وجل على ما مَنَّ به عليهم من الفتح العظيم الذي كان الله وعدهم إياه، وأن يقولوا حال دخولهم «حطة» أى حُطَّ عنا خطايانا التى سلفت من نُكولنا الذى تقدم منا.

وأما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا ما أمروا به قولاً وفعلاً، فدخلوا الباب يزحفون على أستاهم وهم يقولون: حبة فى شعرة، وفى رواية: «حنطة فى شعرة».

وحاصله: أنهم بدلوا ما أمروا به واستهزءوا به كما قال تعالى حاكياً عنهم فى سورة البقرة، (وهى مدنية) مخاطباً لهم: ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾

[البقرة: ٥٨-٥٩]

وقال الثورى عن الأعمش عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿ **وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا** ﴾ قال: ركعاً من باب صغير. رواه الحاكم وابن جرير، وابن أبى حاتم.

قال البخارى: حدثنا محمد، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن ابن المبارك، عن معمر، عن همام بن منبه، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «قيل لبنى إسرائيل: ﴿ **وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ** ﴾ فبدلوا فدخلوا يزحفون على أستاهم وقالوا: «حبة فى شعرة». وكذا رواه النسائى من حديث ابن المبارك ببعضه، ورواه عن محمد بن إسماعيل بن

إبراهيم عن ابن مهدى به موقوفاً.

وقد ذكر الله تعالى أنه عاقبهم على هذه المخالفة بإرسال الرجز الذى أنزله عليهم، وهو الطاعون.

ولما استقرت يد بنى إسرائيل على بيت المقدس استمروا فيه وبين أظهرهم نبى الله يوشع عليه السلام يحكم بينهم بكتاب الله التوراة حتى قبضه الله إليه، وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة، فكانت مدة حياته بعد موسى عليه السلام سبعاً وعشرين سنة.

ذكر جماعة من أنبياء بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام

قال ابن جرير فى تاريخه: لاخلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمتنا وغيرهم أن القائم بأمور بنى إسرائيل بعد يوشع: كالب ابن يوقنا يعنى أحد أصحاب موسى عليه السلام وهو زوج أخته مريم، وهو أحد الرجلين اللذين ممن يخافون الله، وهما يوشع، وكالب، وهما القائلان لبنى إسرائيل حين نكلوا عن الجهاد: ﴿ **ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [المائدة: ٢٣] قال ابن جرير: ثم من بعده كان القائم بأمور بنى إسرائيل «حزقيل بن بوذى» وهو الذى دعا الله فأحيا الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت.

قصة حزقيل

قال الله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه: إن كالب بن يوقنا لما قبضه الله إليه بعد يوشع خلف فى بنى إسرائيل حزقيل بن بوذى، وهو ابن العجوز، وهو الذى دعا للقوم الذين ذكرهم الله فى كتابه فيما بلغنا ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾.

قال ابن إسحاق: فَرُّوا من الوباء فنزلوا بصعيد مكان فسيح من الأرض فقال لهم الله: موتوا، فماتوا جميعا، فحظروا لهم حظيرة «سورا» دون السباع، فمضت عليهم دهور طويلة فمرَّ بهم حزقيل عليه السلام فوقف عليهم متفكراً، فقيل له: أتحب أن يبعثهم الله وأنت تنظر؟ فقال نعم: فأمر أن يدعو تلك العظام أن تكتسى لحماً وأن يتصل العصب بعضه ببعض فناداهم عن أمر الله له بذلك، فقام القوم أجمعون وكبَّروا تكبيرة رجل واحد.

وعن أناس من الصحابة فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ قالوا: كانت قرية يقال لها «داوردان» قِبَل «واسط». وقع بها الطاعون، فهرب عامة أهلها فنزلوا ناحية منها فهلك من بقى فى القرية وسلم الآخرون فلم يمت منهم كثير، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين فقال الذين بقوا: أصحابنا هؤلاء كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا بقينا ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن معهم فوقع فى قابل، فهربوا وهم بضعة وثلاثون ألفاً حتى نزلوا ذلك المكان وهو «واد أفيح» فناداهم ملك من أسفل الوادى وآخر من أعلاه أن موتوا. فماتوا حتى إذا هلكوا وبقيت أجسادهم مرَّ بهم نبى يقال له «حزقيل» فلما رآهم وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم ويلوى شدقيه وأصابعه، فأوحى الله إليه: تريد أن أريك كيف أحييهم؟ قال: نعم، وإنما كان تفكره أنه تعجب من قدرة الله عليهم، فقيل له: ناد. فنادى: يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تجتمعى. فجعلت العظام يطير بعضها إلى بعض، حتى كانت أجساداً من عظام، ثم أوحى الله إليه أن ناد يا أيتها العظام: إن

الله يأمرك أن تكتسى لحماً، فاكتست لحماً ودماً فى ثيابها التى ماتت فيها. ثم قيل له: ناد فنادى: أيتها الأجساد إن الله يأمرك أن تقومى فقاموا.

قال أسباط: فزعم منصور عن مجاهد أنهم قالوا حين أُحيوا: «سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت» فرجعوا إلى قومهم أحياء يعرفون أنهم كانوا موتى، سحنة الموت على وجوههم لايلبسون ثوباً إلا عاد رسماً حتى ماتوا لآجالهم التى كُتبت لهم.

وقال ابن جرير عن عطاء: هذا مثل. يعنى أنه سِيق مثلاً مبيِّناً أنه لن يغنى حذر من قدر. وقول الجمهور أقوى أن هذا وقع.

قال محمد بن إسحاق: ولم يذكر لنا مدة لبث حزقيل فى بنى إسرائيل ثم إن الله تعالى قبضه إليه، فلما قُبض نسى بنو إسرائيل عهد الله إليهم، وعظمت فيهم الأحداث وعبدوا الأوثان، وكان فى جملة ما يعبدونه من الأصنام صنم يقال له «بعل» فبعث الله تعالى إليهم إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران، وإليك قصته.

قصة إلياس عليه السلام

قال الله تعـالى بعد قصـة موسى وهارون من سورة الصـافات: ﴿ **وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الصافات: ١٢٣-١٣٢].

قال علمـاء النسب: هو إلياس النشبى، ويقـال: ابن ياسين بن فنحاص ابن العيـزار بن هارون، وقيل: إلياس بن العازر بن العـيزار بن هارون بن عمران.

قالوا: وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربى دمشق، فدعاهم إلى الله عز وجل وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه «بعلا». وقيل: كانت امرأة اسمها «بعل» والله أعلم.

والأول أصح ولهذا قـال لهم: ﴿ **أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ** ﴾ فكذبوه وخـالفوه وأرادوا قتله. فيقال: إنه هرب منهم واختفى عنهم.

وعن هشام بن عـمار قـال: وسمعت من يذكـر عن كعب الأحـبار أنه قال: إن إلياس اختفى من ملك قـومه فى الغار الذى تحت الدم عشر سنين حتى أهلك الله الملك وولى غيره، فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام فأسلم وأسلم من قومـه خلق عظيم غير عشـرة آلاف منهم فأمر بهم فـقتلوا عن آخرهم.

وروى أبى الدنيا بسنده عن بعض مشيخـة دمشق قال: أقام إلياس عليه السلام هارباً من قومه فى كهف جـبل عشرين ليلة - أو قال: أربعين ليلة - تأتيه الغربان برزقه.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أى للعذاب، إمـا فى الدنيا والآخرة، أو فى الآخرة. والأول أظهر على ما ذكره المفسرون والمؤرخون.

وقوله: ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أى إلا من آمن منهم.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ أى أبقينـا بعده ذكراً حـسناً له فى العالمين فلا يُذكر إلا بخير، ولهذا قال: ﴿سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ أى سلام على إلياس. والعرب تلحق النون فى أسماء كثيـرة وتبدلها من غيرها كما قالوا: إسماعيل، وإسماعين. وإسرائيل، وإسرائين، وإلياس، وإلياسين.

قصة اليسع عليه السلام

قد ذكره الله تعالى مع الأنبياء فى سورة الأنعام فى قوله: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٦].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٨].

قال ابن إسحاق: حدثنا بشر أبو حذيفة، أنبأنا سعيد عن قتادة عن الحسن قال: كان بعد إلياس «اليسع» عليهما السلام، فمكث ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله تعالى مستمسكاً بمنهاج إلياس وشريعته حتى قبضه الله عز وجل إليه ثم خلف فيهم الخلوف وعظمت فيهم الأحداث، والخطايا وكثرت الجبابرة وقتلوا الأنبياء، وكان فيهم ملك عنيد طاغ.

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى تاريخه: اليَسع وهو الأسباط بن على بن شوتلم بن أفراثيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام، ويقال: هو ابن عم إلياس النبى عليهما السلام، ويقال: كان مستخفيا معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك، ثم ذهب معه إليهما فلما رُفِعَ إلياس خلفه اليسع فى قومه ونبأه الله بعده. ذكر ذلك عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه.

الأحداث الخطيرة فى بنى

إسرائيل بعد اليسع عليه السلام

قال ابن جـرير وغيره: مـرج أمر بنى إسـرائيل وعظمت منهم الخطوب والخطايا وقتلوا مَن قتلوا من الأنبياء. وسلَّط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً جـبارين يظلمـونهم ويسـفكون دماءهم، وسلَّـط الله عليهم الأعـداء من غيرهم أيضا، وكانوا إذا قاتلوا أحـداً من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذي تقدم ذكره. فكانوا يُنْصَـرُونَ ببركته، وبما جعل اللـه فيه من السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون.

فلما كانوا فى بعض حروبهم مع أهل غزة وعـسقلان غلبوهم وقهروهم على أخذه فـانتزعـوه من أيديهم، فلما علم بذلك ملك بنـى إسرائيل فى ذلك الزمان مالت عنقه فمات كمداً على فقد ذلك التابوت.

وبقى بنوا إسرائيل كالغـنم بلا راع حتى بعث الله فيهم نبيـاً من الأنبياء يقال له شمويل، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً ليقاتلوا معه الأعداء، فكان من أمرهم ما قاله ابن جرير: إنه كـان من وفاة يوشع بن نون عليه السلام إلى أن بعث الله عز وجل «شمويل بن بالى» أربعمائة وستون سنة.

ذو الكفل عليه السلام

وهو الذى زعم قوم أنه ابن أيوب عليه السلام.

قال الله تعالى بعد قصة أيوب: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥-٨٦]

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ﴾

[ص: ٤٨].

فالظاهر من ذكره فى القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبى عليه من ربه الصلاة والسلام، وهذا هو المشهور.

وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبياً وإنما كان رجـلاً صالحاً وحكماً مقسطاً عادلاً وتوقف ابن جرير فى ذلك.

وروى ابن جرير، وابن أبى نجيح عن مجـاهد أنه لم يكن نبياً وإنما كان رجلاً صالحاً قـد تكفل لبنى قومه أن يكفيهم أمـرهم ويقضى بينهم بالعدل فسمى ذا الكفل وروى ابن جـرير، وابن أبى حاتم من طريق داود بن أبى هند عن مجاهد أنه قال: لما كبر اليـسع قال: لو أنى استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم فى حياتى حتى أنظر كـيف يعمل فجمع الناس فقال: من يتكفل لى بثلاث أستخلفه: يـصوم النهار، ويقوم الليل، ولايغضب. قال: فقام رجل تزدريه العين فقال: أنـا. فقال: أنت تصوم النهار، وتقوم الليل، ولاتغضب؟ قال: نعم. فردهم ذلك اليوم، وقال مثلها اليوم الآخر فسكت الناس وقام ذلك الرجل وقال: أنا. فاستخلفه. قال: فجعل إبليس يقول للشياطين: عليكم بفلان، فأعـياهم ذلك. فقال: دعونى وإياه، فأتاه فى صورة شيخ كـبير فقيـر، وأتاه حين أخذ مضجعـه للقائلة وكان لاينام

الليل والنهار إلا تلك النومة، فدق الباب فقال: من هذا؟ قال: شيخ كبير مظلوم. قال: فقام ففتح الباب فجعل يقص عليه. فقال: إن بينى وبين قومى خصومة وإنهم ظلمونى وفعلوا بى وفعلوا حتى حضر الرواح وذهبت القائلة، وقال له: إذا رحتُ فأتنى آخذْ لك بحقك، فانطلق وراح فكان فى مجلسه فجعل ينظر هل يرى الشيخ؟ فلم يره، فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس وينتظره فلا يراه. فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه أتاه فدق الباب، فقال: من هذا؟ فقال: الشيخ الكبير المظلوم ففتح له فقال: ألم أقل لك إذا قعدت فأتنى؟ فقال: إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا: نحن نعطيك حقك، وإذا قمت جحدونى. قال: فانطلق فإذا رحت فائتنى. قال: ففاتته القائلة، فراح فجعل ينظر فلا يراه، وشق عليه النعاس، فقال لبعض أهله: لاتَدَعُن أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام فإنى قد شق علىَّ النوم. فلما كانت تلك الساعة. جاء فقال له الرجل: وراءك وراءك. فقال: إنى قد أتيته أمس فذكرت له أمرى. فقال: لا والله. لقد أمرنا ألا ندع أحداً يقربه، فلما أعياه نظر فرأى كوة فى البيت فتسوَّر منها فإذا هو فى البيت وإذا هو يدق الباب من داخل. قال: فاستيقظ الرجل، فقال يافلان: ألم آمرك؟ قال: أما من قِبَلِى والله لم تؤت فانظر من أين أُتيت. قال: فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه وإذا الرجل معه فى البيت فعرفه فقال: أعَدُوُّ الله؟ قال: نعم. أعييتنى فى كل شىء ففعلت ما ترى لأغضبنك فسماه الله (ذا الكفل) لأنه تكفل بأمر فَوَفَّى به.

وقد روى ابن أبى حاتم أيضا عن ابن عباس قريبا من هذا السياق.

وهكذا روى عن عبد الله بن الحارث، ومحمد بن قيس، وابن حجيرة الأكبر وغيرهم من السلف نحو هذا.

قصة شمويل عليه السلام

هو شمويل، ويقال: أشمويل بن بالى بن علقمة وهو من ورثة هارون. حكى السدى بإسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة والثعلبى وغيرهم أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان على بنى إسرائيل وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وسَبَوْا من أبنائهم جمعاً كثيراً وانقطعت النبوة من سبط «لاوى» ولم يبق فيهم إلا امرأة حبلى، فجعلت تدعو الله عز وجل أن يرزقها ولداً ذكراً فولدت غلاماً فسمته أشمويل ومعناه بالعبرانية إسماعيل أى سمع الله دعائى، فلما ترعرع بعثته إلى المسجد وأسلمته لرجل صالح فيه يكون عنده ليتعلم من خيره وعبادته، فكان عنده فلما بلغ أشده بينما هو ذات ليلة نائم إذا صوت يأتيه من ناحية المسجد فانتبه مذعوراً فظنه الشيخ يدعوه فسأله: أدعوتنى؟ فكره أن يفزعه فقال: نعم. نم. فنام. ثم ناداه الثانية فكذلك ثم الثالثة فإذا جبريل عليه السلام يدعوه فجاءه فقال: إن ربك قد بعثك إلى قومك، فكان من أمره معهم ما قص الله فى كتابه. قال الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: ٢٤٦].

قال أكثر المفسرين: كان نبى هؤلاء القوم المذكورين فى هذه القصة هو «شمويل».

والخلاصة: أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحروب وقهرهم الأعداء سألوا نبى الله فى ذلك الزمان، وطلبوا منه أن ينصِّب لهم ملكاً يكونون تحت

طاعته ليقاتلوا الأعداء من ورائه ومعه وبين يديه، فقال لهم: ﴿ **هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا** ﴾ أى نحن موتورون فحقيق لنا أن نقاتل عن أبنائنا المقهورين والمستضعفين المأسورين فى قبضتهم.

قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴾ كما ذكر فى آخر القصة أنه لم يجاوز النهر مع الملك إلا القليل، والباقون رجعوا ونكلوا عن القتال.

﴿ **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا** ﴾.

قال الثعلبى: وهو طالوت بن قيش بن أفيل بن صارو بن تحورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

قال عكرمة والسدى: كان سَقَّاء. وقال وهب بن منبه: كان دبَّاغاً. وقيل غير ذلك فالله أعلم. ولهذا: ﴿ **قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ** ﴾ وقد ذكروا أن النبوة كانت فى سبط «لاوى» وأن الملك كان فى سبط «يهوذا» فلما كان هذا من سبط بنيامين نفروا منه وطعنوا فى إمارته عليهم وقالوا: ﴿ **نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ** ﴾. وذكروا أنه فقير لاسعة من المال معه، فكيف يكون مثل هذا ملكاً.

﴿ **قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ** ﴾.

قيل: كان الله تعالى قد أوحى إلى شمويل أن أى واحد من بنى إسرائيل كان طوله على طول هذه العصا، وإذا حضر عندك يفور الدهن الذى فى هذا القرن فهو ملكهم، (والقرن عبارة عن عظم ينبت فى رؤوس بعض الحيوانات كان عند شمويل) فجعلوا يدخلون ويقيسون أنفسهم بتلك العصا فلم يكن أحد منهم على طولها سوى طالوت، ولما حضر عند

شمويل فار ذلك القرن بدهن القـدس، فدهنه منه وعينه ملكاً عليهم وقال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾. والظاهر من القياس أنه كان أجملهم وأعلمهم بعد نبيهم عليه السلام.

﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ (فله الحكم وله الخلق والأمر) وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)﴾ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨]. وهذا أيضـاً من بركـة ولاية هذا الرجل الصـالح ويمنه عليهـم أن يرد الله عليهم التـابوت الذى كـان سُلب منهم وقهرهم الأعداء عليه، وقد كانوا يُنصرون على أعدائهم بسببه ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قـيل: طَسْتٌ من ذهب كان يُغسل فيه صـدور الأنبياء، وقيل: السكينة مثل الريح الخـجوج (أى الدائمة الهـبوب). وقيل: صورتهـا مثل الهرة. إذا صرخت فى حال الحرب. أيقن بنوا إسرائيل بالنصر ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ قيل: كان فيـه رضاض (كسر) الألواح وشىء من المنِّ الذى كان نزل عليهم بالتيه. وقيل: كان فيه التوراة أيضاً ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ﴾ أى تأتيكم به الملائكة يحملونه وأنتم ترون ذلك عياناً ليكون آية لله عليكم، وحجة باهرة على صدق ما أقوله لكم وعلى صحة ولاية هذا الملك الصالح عليكم ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.
وقيل: إنه لما غلب العمالقة على هذا التابوت وكان فيه ما ذكر من السكينة والبقية المبـاركة أيضاً، فلما استقر فى أيديهـم وضعوه تحت صنم لهم كان بأرضهم فلما أصـبحوا إذا التابوت على رأس الصنم، فوضعـوه تحته فلما كان اليوم الثانى إذا التابوت فوق الصنم، فلما تكرر هذا علموا أن هذا أمر من الله تعالى فأخـرجوه من بلدهم وجعلوه فى قرية من قـراهم فأخذهم داء فى رقابهم، فلما طال عليهم هذا جعلوه فى عجلة وربطوها فى بقرتين وأرسلوهما. فيقال: إن الملائكة ساقتهما حتى جاءوا بهما ملأ بنى إسرائيل

وهم ينظرون كما أخبرهم نبيهم بذلك فالله أعلم على أى صفة جاءت به الملائكة. وإن كان الأول قد ذكره كثير من المفسرين أو أكثرهم.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

قال ابن عباس وكثير من المفسرين: هذا النهر هو نهر الأردن وهو المسمى بالشريعة فكان من أمر طالوت وجنوده عند هذا النهر عن أمر نبى الله له عن أمر الله له اختباراً وامتحاناً.

فالله تعالى أراد أن يختبرهم ليبين لهم من الذى يستحق أن ينصره الله تعالى، فأوحى الله إلى نبيهم أن يأمر طالوت أن يقول لهم: إن من شرب من هذا النهر فلا يصحبنى فى هذه الغزوة إلا أن يكون أخذ غرفة فى يده **﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾**.

قال السدى: كان الجيش ثمانين ألفاً فشرب منه ستة وسبعون ألفاً فبقى معه أربعة آلاف. كذا قال.

وقد روى البخارى فى صحيحه من حديث إسرائيل وزهير والثورى عن أبى إسحاق عن البراء بن عازب قال: كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوز معه إلا بضعة عشر وثلثمائة مؤمن. وقول السدى أن عدة الجيش كانوا ثمانين ألفاً فيه نظر لأن أرض بيت المقدس لاتحتمل أن يجتمع فيها جيش مقاتلة يبلغون ثمانين ألفاً والله أعلم.

قال الله تعالى: **﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾** أى استقلوا أنفسهم واستضعفوها عن مقاومة أعدائهم بالنسبة إلى قلتهم وكثرة عدد عدوهم، **﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾**.

يعنى ثبتهم الشجعان منهم والفرسان، أهل الإيمان والإيقان، الصابرون على الجلاد والطعان.

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾.

طلبوا من الله أن يُفرغ عليهم الصبر: أى يغمرهم به من فوقهم فتستقر قلوبهم ولا تقلق، وأن يثبت أقدامهم فى مجال الحرب ومعترك الأبطال. وحومة الوغى والدعاء إلى النزال، فسألوا الله التثبيت الظاهر والباطن، وأن ينزل عليهم النصر على أعدائهم وأعدائه، من الكافرين الجاحدين بآياته وآلائه، فأجابهم العظيم القدير السميع البصير إلى ما سألوا، وأنالهم ما رغبوا، ولهذا قال: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى بحول الله وقوته لا بحولهم، وبقوة الله ونصره لابقوتهم وعَدَدهم، مع كثرة أعدائهم وكمال عددهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾. فيه دلالة على شجاعة داود عليه السلام، وأنه قتل جالوت قتلاً أذلَّ الله تعالى به جنده وكسر جيشه، ولا أعظم من غزوة يُقتل فيها قائد الجيش فتُغنم بسبب ذلك الأموال الجزيلة، ويؤسر الأبطال والشجعان والأقران، وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان، ويظهر الدين الحق على الباطل وأوليائه.

وقد ذكر السدى فيما يرويه أن داود عليه السلام كان أصغر أولاد أبيه، وكانوا ثلاثة عشر ذكراً، وكان سمع طالوت ملك بنى إسرائيل وهو يحرض بنى إسرائيل على قتل جالوت وجنوده ويقول: مَن قتل جالوت زَوَّجته بابنتى وأشركته فى ملكى، وكان داود عليه السلام يرمى بالقذافة

(وهو المقلاع) رمياً عظيماً فبينما هو سائر مع بنى إسرائيل إذ ناداه حجر أن خذنى فإنَّ بى تقتل جالوت، فأخذه، ثم حجر آخر كذلك، ثم آخر كذلك فأخذ الثلاثة فى مخلاته، فلما تواجه الصفان برز جالوت ودعا إلى نفسه فتقدم إليه داود فقال له: ارجع فإنى أكره قتلك، فقال: لكنى أحب قتلك، وأخذ تلك الأحجار الثلاثة فوضعها فى القذافة ثم أدارها فصارت الثلاثة حجراً واحداً، ثم رمى بها جالوت ففلق رأسه، وفرَّ جيشه منهزماً، فوفَّى له طالوت بما وعده، فزوجه ابنته وأجرى حكمه فى ملكه، وعظم داود عليه السلام عند بنى إسرائيل، وأحبُّوه ومالوا إليه أكثر من طالوت، فذكروا أن طالوت حسده، وأراد قتله، واحتال على ذلك فلم يصل إليه، وجعل العلماء ينهون طالوت عن قتل داود فتسلط عليهم فقتلهم، حتى لم يُبق منهم إلا القليل. ثم حصل له توبة وندم وأقلع عما سلف منه وجعل يكثر من البكاء ويخرج إلى الجبانة «الصحراء» فيبكى حتى يبل الثرى بدموعه فنودى ذات يوم من الجبانة أن يا طالوت قتلتنا ونحن أحياء، وآذيتنا ونحن أموات، فازداد لذلك بكاؤه وخوفه واشتد وجله، ثم جعل يسأل عن عالم يسأله عن أمره، وهل له من توبة؟ فقيل له: وهل أبقيت عالماً؟! حتى دُلَّ على امرأة من العابدات، فأخذته فذهبت به إلى قبر يوشع عليه السلام قالوا: فدعت الله سبحانه فقام يوشع من قبره، فقال: أقامت القيامة؟ فقالت: لا، ولكن هذا طالوت يسألك هل له من توبة؟ فقال: نعم. ينخلع من الملك، ويذهب فيقاتل فى سبيل الله حتى يُقتل. ثم عاد ميتاً، فترك الملك لداود عليه السلام، وذهب ومعه ثلاثة عشر من أولاده فقاتلوا فى سبيل الله حتى قُتلوا. قالوا: فذلك قوله: ﴿**وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ**﴾ هكذا ذكره ابن جرير فى تاريخه من طريق السدى بإسناده. وفى بعض هذا نظر ونكارة. والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: النبى الذى بعث فأخبر طالوت بتوبته هو اليسع بن أخطوب. حكاه ابن جرير أيضاً.

وذكر الثعلبى أنها أتت به إلى قبر شمويل فعاتبه على ما صنع بعده من الأمور وهذا أنسب. ولعله إنما رآه فى النوم لا أنه قام من القـبر حيًا، فإن هذا إنما يكون معجزة وتلك المرأة لم تكن نبية. والله أعلم.

وقال ابن جرير: وزعم أهل التوراة أن مدة ملك طالوت إلى أن قُتل مع أولاده أربعون سنة. والله أعلم.

قصة داود عليه السلام

هو داود بن أبشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عويناذب ابن أرم بن حصرون بن فرص بن يهوذا بن يـعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عبد الله ونبيه وخليفته فى أرض بيت المقدس.

قال محـمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهـب بن منبه: كان داود عليه السـلام قصيـراً أزرق العينين قليل الشـعر طاهر القلب ونقـيه. وجمع الله له بين الملك والنبوة، بين خير الدنيا والآخرة وكان الملك يكون فى سبط والنبوة فى آخر فاجتمعا فى داود هذا.

وقد ذكـر ابن جـرير فى تاريخه أن جـالوت لما بارز طالوت فقـال له: اخرج إلىَّ وأخرج إليك، فندب طالوت الناس فانتدب داود فقتل جالوت.

قال وهب بن منبه: فمـال الناس إلى داود حتى لم يكن لطالوت ذِكر، وخلعوا طالوت وولوا عليهم داود، وقيل: إن ذلك عن أمـر شمويل حتى قال بعـضهم: إنه ولاه قبل الوقـعة، وهذا غيـر معقـول؛ لأنه يناقض ما سبق، قـال ابن جرير: والذى عليـه الجمـهور أنه إنما وُلِّىَ ذلك بعـد قتل جالوت.

وروى ابن عساكر عن سعيد بن عـبد العزيز: أن قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم وأن النهر الذى هناك هو المذكور فى الآية. والله أعلم.

قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [سبأ: ١٠-١١].

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٧٩-٨٠]. وذلك أن داود أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليُحَصِّنَ المقاتلة من الأعداء، وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها. وكان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده ولايحتاج إلى نار ولا مطرقة، وكان يعمل كل يوم درعاً يبيعها بستة آلاف درهم.

وقد ثبت فى الحديث أن أطيب ما أكل الرجل من عمل يده، وأن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده.

وقال تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ (القوة) إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾

[ص: ١٧-٢٠].

قال ابن عباس ومجاهد: الأيد: القوة فى الطاعة. يعنى ذا قوة فى العبادة والعمل الصالح.

وقال قتادة: أُعطى قوة فى العبادة وفقها فى الإسلام، فكان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ كما قال: ﴿يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ أى سبِّحى معه. قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد فى تفسير هذه الآية ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ أى عند آخر النهار وأوله، وذلك أنه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يُعْطَه أحد، بحيث إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير فى الهواء، يُرَجِّع بترجيعه، ويسبِّح بتسبيحه وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبَّح بكرة

وعشيًا صلوات الله وسلامه عليه.

وقال الأوزاعى: حدثنى عبد الله بن عامر قال: أُعطى داود عليه السلام من حُسْن الصوت ما لم يُعْطَ أحد قط، حتى إن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشاً وجوعاً.

وقال وهب بن منبه: كان لايسمعه أحد إلا حجل كهيئة الرقص، وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله فيعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعاً.

وقد كان داود عليه السلام مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابه: «الزبور»، كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن همام عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «خُفِّفَ على داود القراءة فكان يأمر بدابته فَتُسْرَجَ فكان يقرأ القرآن من قبل أن تُسْرج دابته، وكان لايأكل إلا من عمل يديه».

وكذلك رواه البخارى منفرداً به عن عبد الله بن محمد، عن عبد الرزاق به ولفظه: «خُفِّف على داود القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه، وكان لايأكل إلا من عمل يديه».

والمراد بالقرآن هاهنا الزبور الذى أنزله الله عليه وأوحاه إليه.

وهذا أمر سريع مع التدبر والترنم والتغنى به على وجه التخشع صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ(١) وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ (٢) وَفَصْلَ الْخِطَابِ(٣)﴾.

---

(١) قويناه.

(٢) النبوة.

(٣) الإصابة فى الحكم بين الخصمين.

روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس أن رجلين تداعيا إلى داود عليه السلام فى بقرة ادعى أحدهما على الآخر أنه اغتصبها منه. فأنكر المدعى عليه، فأرجأ أمرهما إلى الليل، فلما كان الليل أوحى الله إليه أن يقتل المدعى، فلما أصبح قال له داود: إن الله قد أوحى إلىَّ أن أقتلك، فأنا قاتلك لا محالة فما خبرك فيما ادعيته على هذا؟ قال: والله يا نبى الله إنى لَمُحِقٌ فيما ادعيت عليه، ولكنى كنت اغتلت أباه قبل هذا. فأمر به داود فقُتِل. فعظم أمر داود فى بنى إسرائيل جدًا، وخضعوا له خضوعاً عظيماً.

وقال وهب بن منبه: لما كثر الشر وشهادات الزور فى بنى إسرائيل أُعْطِيَ داود سلسلة لفصل القضاء، فكانت ممدودة من السماء إلى صخرة بيت المقدس، وكانت من ذهب فإذا تشاجر رجلان فى حَقٍّ فأيهما كان مُحِقًا نالها والآخر لايصل إليها. فلم تزل كذلك حتى أودع رجل رجلاً لؤلؤة فجحدها منه وأخذ عكازاً وأودعها فيه، فلما حضر عند الصخرة تناولها المدعى فلما قيل للآخر: خذها بيدك عمد إلى العكاز فأعطاه المدعى وفيه تلك اللؤلؤة، وقال: اللهم إنك تعلم أننى دفعتها إليه، ثم تناول السلسلة فنالها. فأشكل أمرهما على بنى إسرائيل. ثم رُفعت سريعاً من بينهم. ذكره بمعناه غير واحد من المفسرين.

قصة الخصمين مع داود عليه السلام

قال تعالى: ﴿ **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا**

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾

[ص: ٢١-٢٥].

وخلاصة هذه القصة: أن داود عليه السلام كان يخصص بعض وقته لتصريف شئون الملك، وللقضاء بين الناس، ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل الزبور تسبيحاً لله فى المحراب، وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس، وفى ذات يوم فوجىء بشخصين يتسوَّران المحراب الذى يتعبد فيه، ففزع منهما، وأضمر فى نفسه أن يبطش بهما. فبادرا يطمئنانه أنهما خصمان اختلفا فى أمر بينهما، وبدأ أحدهما فعرض خصومته - كما قصها القرآن الكريم - فى آياته البينات.

والقضية كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلماً صارخاً مثيراً لايحتمل التأويل ومن ثَمَّ اندفع داود عليه السلام يقضى على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً، ولم يطلب إليه بياناً، ولم يسمع له حجة، ولكنه مضى يحكم بقوله: ﴿**قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ**﴾ إلى آخر الآيات. فعاتبه الله تعالى على ذلك ونبَّهه إلى ضرورة تثبت القاضى من حكمه وسماعه للخصم الآخر.

قال البيهقى: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو بكر بن بالويه، حدثنا محمد بن يونس القرشى، حدثنا روح بن عبادة، حدثنى عبد الله بن لاحق عن ابن شهاب قال: قال داود عليه السلام: «الحمد لله كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله. فأوحى الله تعالى إليه: إنك أتعبت الحفظة ياداود».

ورواه أبو بكر بن أبى الدنيا عن على بن الجعد عن الثورى مثله.

وقال عبد الله بن المبارك فى كتاب «الزهد»: أنبأنا سفيان الثورى عن رجل عن وهب بن منبه قال: إن فى حكمة آل داود: حق على العاقل أن لايغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويَصْدُقُونَه عن نفسه، وساعة يخلى بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات وإجمام للقلوب، وحقٌ على العاقل، أن يعرف زمانه ويحفظ لسانه ويقبل على شأنه، وحق على العاقل أن لايظعن إلا فى إحدى ثلاث: زاد لمعاده، ومرمة لمعاشه، ولذة فى غير محرم.

وقد أورد الحافظ ابن عساكر فى ترجمة داود عليه السلام أشياء كثيرة مليحة منها قوله: كن لليتيم كالأب الرحيم. واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد. وعن داود عليه السلام أنه قال: مثل الخطيب الأحمق فى نادى القوم كمثل المغنِّى عند رأس الميت».

ذكر مدة حياته وكيفية وفاته

قد تقدم فى ذكر الأحاديث الواردة فى خلق آدم عليه السلام أن الله تعالى لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام ورأى فيهم رجلاً يُزْهِر فقال: أي رب: من هذا؟ قال: هذا ابنك داود. قال: أى رب. كم عمره؟ قال: ستون عاماً قال: أى رب. زده فى عمره. قال: لا. إلا أن أزيده من عمرك، وكان عمر آدم عليه السلام ألف عام فزاده أربعين عاماً، فلما انقضى عمر آدم عليه السلام جاءه ملك الموت فقال: بقى من عمرى أربعون سنة ونسى آدم ما كان وهبه لولده داود، فأتمها الله تعالى لآدم ألف سنة ولداود مائة سنة. رواه أحمد عن ابن عباس والترمذى وصححه.

وكانت مدة ملكه أربعين سنة، وهذا قد يقبل نقله، لأنه ليس عندنا ما ينافيه ولا ما يقتضيه.

وأما وفاته عليه السلام فقال الإمام أحمد فى مسنده: حدثنا قبيصة حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن بن محمد بن عمرو بن أبى عمرو، عن المطلب عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلق الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع. قال: فخرج ذات يوم وغُلِّقت الدار فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن فى البيت: من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة؟ والله لَتُفْضَحَنَّ بداود. فجاء داود فإذا الرجل قائم فى وسط الدار فقال له داود: من أنت؟ فقال: أنا الذى لا أهاب الملوك ولا أمنع من الحجَّاب. فقال داود: أنت والله إذاً ملك الموت، مرحباً بأمر الله. ثم مكث حتى قُبضت روحه فلما غُسِّل وكُفِّن وفُرِغ من شأنه طلعت عليه الشمس، فقال سليمان للطير: أظلى على داود، فأظلته الطير حتى أظلمت عليه الأرض، فقال سليمان للطير: اقبضى جناحاً. قال أبو هريرة: فطفق رسول الله ﷺ يرينا كيف فعلت الطير، وقبض رسول الله ﷺ بيده، وغلبت عليه يومئذ المضرحية». انفرد بإخراجه أحمد وإسناده جيد قوى. ورجاله ثقات. ابن كثير.

ومعنى قوله: «وغلبت عليه يومئذ المضرحية» أى وغلبت على التظليل عليه المضرحية وهى الصقور الطوال الأجنحة، واحدها مضرحى قال الجوهرى: هو الصقر الطويل الجناح.

وقال السدى عن أبى مالك، وعن سعيد بن جبير قال: مات داود عليه السلام يوم السبت فجأة.

وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن قال: مات داود عليه السلام وهو ابن مائة سنة ومات يوم الأربعاء فجأة.

وقال أبو السكن الهجرى: مات إبراهيم الخليل فجأة، وداود فجأة، وابنه سليمان فجأة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين» رواه ابن عساكر.

وروى عن بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل من محرابه فقال له: دعنى أنزل أو أصعد، فقال: يا نبى الله، نَفِدت السنون، والشهور، والآثار، والأرزاق. قال: فخرَّ ساجداً على مِرقاة له من تلك المراقى فقبضه وهو ساجد.

وقال إسحاق بن بشر: أنبأنا وافر بن سليمان عن أبى سليمان الفلسطينى عن وهب بن منبه قال: إن الناس حضروا جنازة داود عليه السلام فجلسوا فى الشمس فى يوم صائف قال: وكان قد شيع جنازته يومئذ أربعون ألف راهب عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس ولم يمت فى بنى إسرائيل بعد موسى وهارون أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعاً عليه منهم على داود عليه السلام. قال: فآذاهم الحر فنادوا سليمان عليه السلام أن يعمل لهم وقاية لما أصابهم من الحر، فخرج سليمان فنادى الطير فأجابت، فأمرها أن تظلل الناس، فتراص بعضها إلى بعض من كل وجه، حتى استمسكت الريح فكاد الناس أن يهلكوا غمًا فصاحوا إلى سليمان عليه السلام من الغم، فخرج سليمان فنادى الطير أن أظلى الناس من ناحية الشمس وتنحى عن ناحية الريح ففعلت فكان الناس فى ظل تهب عليهم الريح فكان ذلك أول ما رأوه من ملك سليمان.

قصة سليمان بن داود عليهما السلام

قال الحافظ ابن عساكر: هو سليمان بن داود بن إيشا بن عويد بن عابر ابن سلمون بن نخشون بن عمينا اداب بن أرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام.

قال الله تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ [النمل: ١٦]. أى ورثه فى النبوة والملك وليس المراد ورثه فى المال، لأنه قد كان له بنون غيره فما كان لِيُخَصَّ بالمال دونهم، ولأنه قد ثبت فى الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «لانورث ما تركنا فهو صدقة». وفى لفظ: «نحن معاشر الأنبياء لانورث» فأخبرالصادق المصدوق أن الأنبياء لاتورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج لايُخَص بها أقرباؤهم، لأن الدنيا أهون على الورثة وأحقر عندهم من ذلك كما هى عند المرسلين الذين اصطفاهم الله وأرسلهم وفضَّلهم.

وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يعنى أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبِّر للناس عن مقاصدها وإرادتها.

﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾أى من كل ما يحتاج الملك إليه من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات والعلوم والفهوم.

وقال تعالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ

يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧].

يخبر تعالى عن عبده ونبيه سليمان بن داود عليهما السلام أنه ركب يوماً في جيشه جميعه من الجن والإنس والطير، فالجن والإنس يسيرون معه، والطير معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره، وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة رؤساء يردُّون أول الجيش على آخره. فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ولايتأخر عنه **﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾** فأمرت وحذَّرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور.

وفى هذا السياق دليل على أنه كان فى موكبه راكباً فى خيوله وفرسانه، لا كما زعم بعضهم من أنه كان إذ ذاك على البساط لأنه لو كان كذلك لم ينل النمل منه شيء ولا وطء، لأن البساط كان عليه جميع ما يحتاجون إليه من الجيوش والخيول والجمال والأثقال والخيام والأنعام، والطيرُ من فوق ذلك كله.

والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة أمتها من القول السديد والرأى الرشيد، وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله تعالى عليه دون غيره.

ولهذا قال: **﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾** [النمل: ١٩] فطلب من الله تعالى أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من المزية على غيره، وأن ييسر عليه العمل الصالح، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين، وقد استجاب الله تعالى له.

والمراد بوالديه: داود عليه السلام وأمه، وكانت من العابدات الصالحات كما قال سنيد بن داود، عن يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن

جابر عن النبى ﷺ قال: قالت أم سليمان بن داود: يابنى لاتكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيراً يوم القيامة. رواه ابن ماجه عن أربعة من مشايخه عنه بنحوه.

وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى أن سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون فرأى نملة قائمة رافعة إحدى قوائمها تستسقى فقال لأصحابه: ارجعوا فقد سُقيتم إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها.

وذكر الله تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد، وذلك أن الطيور كان على كل جنس منها مقدَّمون يقومون بما يُطلب منهم ويحضرون عنده بالنوبة كما هى عادة الجنود مع الملوك، وكانت وظيفة الهدهد على ما ذكره ابن عباس وغيره أنهم كانوا إذا احتاجوا الماء فى القفار فى حال الأسفار يجيء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء، وكان فيه من القوة التى أودعها الله تعالى فيه أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض، فإذا دلهم عليه أمر سليمان الشياطين فحفروا عنه وأخرجوه واستعملوه لحاجتهم، فلما تطلبه سليمان ذات يوم ليدله على الماء فقده ولم يجده فى موضعه من محل خدمته فقال ﴿**مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ**﴾ أى هل عرض لى ما يمنعنى من رؤيته أم قد غاب عنى بدون إذنى ﴿**لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ** (حجة واضحة)﴾ [النمل: ٢١].

قال الله تعالى: ﴿**فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ**﴾ [النمل: ٢٢-٢٣] فذكر ما كان عليه ملوك سبأ فى بلاد اليمن من المملكة العظيمة وكان قد آل فى ذلك الزمان إلى امرأة منهم ابنة ملكهم لم يخلف غيرها فملّكوها عليهم.

وذكر الثعلبى وغيره أن قومها ملّكوا عليهم بعد أبيها رجلاً فعم به

الفساد، فأرسلت إليه تخطبه فتزوجها فلما دخلت عليه سقته خمراً ثم حزت رأسه ونصبته على بابها، فأقبل الناس عليها وملكوها عليهم وهى بلقيس بنت السيرح وهو الهدهاد. وقيل: شراحيل بن ذى جدن، وكان أبوها من أكابر الملوك، وكان قد تأبى أن يتزوج من أهل اليمن، فيقال: إنه تزوج بامرأة من الجن اسمها «ريحانة بنت السكن»، فولدت له هذه المرأة واسمها تلقمة، ويقال لها «بلقيس».

وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى مما من شأنه أن تؤتاه الملوك، ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ وهو سرير مملكتها، وكان مزخرفاً بأنواع الجواهر واللآلئ والذهب والحلى الباهر.

ثم ذكر كفرهم بالله تعالى وعبادتهم الشمس من دون الله وإضلال الشيطان لهم وصده إياهم عن عبادة الله تعالى وحده لاشريك له الذى يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات.

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أى له العرش العظيم الذى لا أعظم منه فى المخلوقات.

فعند ذلك بعث سليمان عليه السلام كتابه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله، والخضوع لملكه وسلطانه قائلاً لهم: ﴿أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أى سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة.

ذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن الهدهد حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهى فى خلوة لها ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها، فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها و﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ ثم قرأت عليهم عنوانه أولاً ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ﴾ ثم قرأته ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ثم شاورتهم فى أمرها وما قد حلَّ بها وتأدبت معهم

وخاطبتهم وهم يسمعون ﴿**قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ**(٣٢) **قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ**﴾ [النمل: ٣٢ - ٣٣] فبذلوا لها السمع والطاعة وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة وفوضوا إليها فى ذلك الأمر لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم. فكان رأيها أتم وأسدّ من رأيهم، وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لايغالَب ولايمانَع ولايخالَف ولا يخادَع ﴿**قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾ [النمل: ٣٤] أى إن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلا إلىَّ ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة إلا علىَّ.

﴿**وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ**﴾ أرادت أن تصانع عن نفسها، وأهل مملكتها بهدية عظيمة تليق بمثله ترسلها إليه، وتنظر هل يقبلها أم لا؟ قال قتادة: ما كان أعقلها فى إسلامها وشركها، وقال ابن عباس: قالت لقومها: إن قَبِل الهدية فهو ملك يريد الدنيا فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبى صادق فاتبعوه. ولهذا لما جاء سليمان قال: ﴿**أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ**﴾ ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذى قدم عليه والناس حاضرون يسمعون: ﴿**ارْجِعْ إِلَيْهِمْ** (أى بالهدايا) **فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾.

فلما بلغهم ذلك عن نبى الله لم يكن لهم بد من السمع والطاعة، فبادروا إلى إجابته فى تلك الساعة، وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين، فلما سمع بقدومهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن هو مسخر من الجان ما قصه الله عنه فى القرآن ﴿**قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾ [النمل: ٣٨].

ولما طلب سليمان من الجن أن يُحضروا له عرش بلقيس وهو سرير مملكتها التى تجلس عليه وقت حكمها، قبل قدومها عليه ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ يعنى قبل أن ينفض مجلس حكمك، وكان فيما قال: من أول النهار إلى قريب من الزوال يتصدى لمهمات بنى إسرائيل ومالهم من الأشغال ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ أى وإنى لذو قدرة على إحضاره إليك وأمانة على ما فيه من الجواهر النفيسة لديك ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ المشهور أنه آصف بن برخيا وهو ابن خالة سليمان. وقيل: هو رجل من مؤمنى الجان كان فيما يقال يحفظ الإسم الأعظم، وقيل: رجل من بنى إسرائيل من علمائهم.

قال السهيلى: وقيل: إنه جبريل ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ معناه قبل أن تبعث رسولاً إلى أقصى ما ينتهى إليه طرفك من الأرض ثم يعود إليك. وقيل: قبل أن يصل إليك أبعد من تراه من الناس وقيل: قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته. وهذا أقرب ما قيل. فأمره سليمان أن يأتى به، فلما أحضره ورأى سليمان عرش بلقيس مستقراً عنده فى هذه المدة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس قال: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي[1] أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

ثم أمر سليمان عليه السلام أن يغيِّر حُلِىّ هذا العرش وينكِّر لها ليختبر فهمها وعقلها ولهذا قال: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ وهذا من فطنتها وغزارة فهمها لأنها استبعدت أن يكون عرشها لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن، ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصنع الغريب العجيب وكان سليمان قد أمر ببناء قصر عال من زجاج وعمل فى ممره ماء، وجعل عليه سقفاً من

---

(١) يختبرنى.

زجاج وجعل فيه السمك وغيره من دواب الماء، وأُمرت بدخول الصرح وسليمان عليه السلام على سريره فيه﴿ **فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [النمل: ٤٤].

وقد قيل: إن الجن أرادوا أن يبشِّعوا منظرها عند سليمان وأن تبدى عن ساقيها ليرى ما عليهما من الشعر فينفره ذلك منها، وخشوا أن يتزوجها لأن أمها من الجان فتتسلط عليهم معه، وفيه نظر.

وقد ذكر الثعلبى وغيره: أن سليمان عليه السلام لما تزوجها أقرها على مملكة اليمن وردَّها إليه، وكان يزورها فى كل شهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام ثم يعود على البساط، وأمر الجان فبنوا له ثلاثة قصور باليمن: غمدان، وسالحين، وبيتون. فالله أعلم.

وقد روى ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه أن سليمان عليه السلام لم يتزوجها بل زوجها بملك همدان وأقرها على ملك اليمن، وسخر زوبعة ملك اليمن فبنى لها القصور الثلاثة التى ذكرناها باليمن. والأول أشهر وأظهر. والله أعلم.

وذكر الله تعالى أنه وهب لداود سليمان عليهما السلام ثم أثنى الله تعالى عليه فقال: ﴿ **وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ [ص: ٣٠] أى رجَّاع مطيع لله تعالى.

ثم ذكر تعالى ما كان من أمره فى الخيل ﴿ **الصَّافِنَاتُ** ﴾ وهى التى تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة. ﴿ **الْجِيَادُ** ﴾ وهى المضمرة السراع.
﴿ **فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ** ﴾ [ص: ٣٢] يعنى الشمس وقيل: الخيل على ما سنذكره من القولين:
﴿ **رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ** ﴾ [ص: ٣٣] قيل: مسح

عراقيبها وأعناقها بالسيوف، أى أمر بذبحها وقطع أرجلها ثم تصدق بلحمها لأنها شغلته عن الصلاة. وقيل: مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها على القول الآخر.

والذى عليه أكثر السلف الأول، فقالوا: اشتغل بعرض تلك الخيول حتى مضى وقت العصر وغربت الشمس. روى هذا عن على بن أبى طالب وغيره. والذى يقطع به أنه لم يترك الصلاة عمداً من غير عذر اللهم إلا أن يقال: إنه كان سائغاً فى شريعتهم فأخر الصلاة لأجل أسباب الجهاد وعرض الخيل من ذلك.

وأما من قال: الضمير فى قوله: ﴿**حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ**﴾ عائد على الخيل وأنه لم تفته وقت صلاة. وأن المراد بقوله: ﴿**رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ**﴾ يعنى مسح العرق عن عراقيبها وأعناقها فهذا القول اختاره ابن جرير ورواه الوالبى عن ابن عباس فى مسح العرق.

ووجَّه هذا القول ابن جرير بأنه ما كان ليعذب الحيوان بالعرقبة ويهلك مالاً بلا سبب ولا ذنب لها.

وهذا الذى قاله فيه نظر؛ لأنه قد يكون هذا سائغاً فى ملتهم.

قال بعض العلماء: لما ترك الخيل لله تعالى عوضه الله عنها بما هو خير له منها وهو الريح التى كانت غدوها شهر ورواحها شهر.

امتحان الله تعالى لسليمان عليه السلام

قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ**﴾ [ص: ٣٤ - ٤٠].

قال ابن كثير فى تفسيره: ذكر ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهما من المفسرين هاهنا آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف، وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات وفى كثير منها نكارة شديدة (لأنه لايتفق مع جلال النبوة وعصمة الأنبياء).

ومضمون ما ذكروه أن سليمان عليه السلام غاب عن سريره أربعين يوماً ثم عاد إليه.

واختار الفخر الرازى أن الفتنة المذكورة فى الآية الكريمة يقصد بها فتنته فى جسده، حيث إن سليمان عليه السلام ابتلى بمرض شديد نحل منه وضعف، حتى صار لشدة المرض كأنه جسد ملقى على كرسى، قال: والعرب تقول فى الضعيف: إنه لحم على وضم، وجسم بلا روح، ثم أناب أى رجع إلى حالة الصحة.

ولما عاد أُمِر ببناء بيت المقدس فبناه بناء محكماً. وقد قدمنا أنه جدده، وأن أول من جعله مسجداً إسرائيل عليه السلام، كما ذكرنا ذلك عند قول أبى ذر. قلت يارسول الله: أى مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أى؟ قال: «مسجد بيت المقدس» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة».

ومعلوم أن بين إبراهيم الخليل الذى بنى المسجد الحرام وبين سليمان بن داود عليهم السلام أزيد من ألف سنة. دع أربعين سنة.

وكان سؤاله الملك الذى لاينبغى لأحد من بعده بعد إكماله بيت المقدس قال الإمام أحمد والنسائى وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمى، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خلالاً ثلاثة، فأعطاه اثنتين ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة:

سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه، وسأله ملكاً لاينبغى لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لايريد إلا الصلاة فى هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه - فنحن نرجو أن يكون الله تعالى أعطانا إياها» فأما الحكم الذى يوافق حكم الله تعالى فقد أثنى الله تعالى عليه وعلى أبيه فى قوله تعالى: ﴿ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ [الأنبياء: ٧٨ - ٧٩].

وقد ذكر شريح القاضى وغير واحد من السلف: أن هؤلاء القوم كان لهم كَرْم فنفشت فيه غنم قوم آخرين، أى رعته بالليل فأكلت شجره بالكلية، فتحاكموا إلى داود عليه السلام، فحكم لأصحاب الكرم بقيمته، فلما خرجوا على سليمان عليه السلام قال: بم حكم لكم نبى الله؟ قالوا: بكذا وكذا، فقال: أما لو كنت أنا لما حكمت إلابتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجاً ودَراًّ (لبناً) حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردوه إلى ما كان عليه. ثم يتسلمون غنمهم، فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به.

وقريب من هذا ما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى الزناد عن الأعرج، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما فتنازعتا فى الآخر فقالت الكبرى: إنما ذهب بابنك، وقالت الصغرى: بل إنما ذهب بابنك. فتحاكمتا إلى داود عليه السلام فحكم به للكبرى، فخرجتا على سليمان عليه السلام فقال: ائتونى بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه، فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها. فقضى به لها».

بساط سليمان عليه السلام

لما ترك سليمان عليه السلام الخيل ابتغاء وجه الله عوَّضه الله تعالى منها الريح التى هى أسرع سيراً وأقوى وأعظم ولا كلفة عليه ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ أراد: وكان ذلك البساط مركباً من أخشاب بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه سليمان عليه السلام من الدور المبنية والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجان، وغير ذلك من الحيوانات والطيور إذا أراد سفراً أو تنزها أو قتال ملك أو أعداء من أى بلاد الله تعالى شاء، فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريح فدخلت تحته فرفعته فإذا استقل بين السماء والأرض أمر الرُّخَاء فسارت به. فإن أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعته فى أى مكان شاء بحيث إنه كان يرتحل فى أول النهار من بيت المقدس فتغدو به الريح فتضعه بأصطخر مسيرة شهر فيقيم هناك إلى آخر النهار ثم يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس كما قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

وقال الحسن البصرى: كان يغدو من دمشق فينزل بأصطخر فيتغدى بها ويذهب رائحا منها فيبيت بكابل وبين دمشق واصطخر مسيرة شهر، وبين اصطخر وكابل مسيرة شهر.

قلت: قد ذكر المتكلمون على العمران والبلدان أن اصطخر بنتها الجان لسليمان عليه السلام وكان فيها قرار مملكة الترك قديما، وكذلك غيرها من بلدان شتى كتدمر، وبيت المقدس، وباب جيرون، وباب البريد اللذان بدمشق على أحد الأقوال.

تسخير الجن والشياطين

لسليمان عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [سبأ: ١٢] أى وسخر الله تعالى له من الجن عُمَّالاً يعملون له ما يشاء لايفترون ولايخرجون عن طاعته ومن خرج منهم عن الأمر عذَّبه ونكل به.

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ ﴾ وهى الأماكن الحسنة وصدور المجالس.

﴿ وَتَمَاثِيلَ ﴾ وهى الصور فى الجدران، وكان هذا سائغاً فى شريعتهم وملتهم.

﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ ﴾ كالحياض، فالجواب جمع جابية وهى الحوض الذى يجبى فيه الماء.

﴿ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾: حواملها منها فهى ثابتة لاتزول عن أماكنها.

ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق من إنسان وحيوان قال تعالى: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾

[سبأ: ١٣].

وقال تعالى: ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴾ [ص: ٣٧-٣٨]. يعنى أن منهم من قد سخره فى البناء ومنهم من يأمره بالغوص فى الماء لاستخراج ما هنالك من الجواهر واللآلىء وغير ذلك مما لايوجد إلا هنالك.

وقوله: ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴾ أى قد عصوا فقيدوا مقرنين اثنين

اثنين فى الأصفاد وهى القيود، وهذا كله من جملة ما هيأه الله تعالى وسخره من الأشياء التى هى من تمام الملك الذى لاينبغى لأحد من بعده، ولم يكن أيضاً لمن كان قبله.

نساء سليمان عليه السلام

ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة، سبعمائة بمهور، وثلاثمائة سرارى. وقيل بالعكس ثلاثمائة حرائر، وسبعمائة من الإماء، وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمراً عظيماً جداً.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر، عن ابن طاوس عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة بمائة امرأة تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل فى سبيل الله، قال: ونسى أن يقول: إن شاء الله، فأطاف بهن، قال: فلم تلد منهم امرأة إلا واحدة نصف إنسان». فقال رسول الله ﷺ: «لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً لحاجته» وهكذا أخرجاه فى الصحيحين من حديث عبد الرزاق به مثله.

وقد كان له عليه السلام من أمور الملك واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها ما لم يكن لأحد قبله، ولايعطيه الله أحداً بعده كما قال: ﴿ **وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ** ﴾ [النمل: ١٦].

ذكر وفاته وكم كانت مدة ملكه وحياته

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

قال السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك، وعن أبى صالح عن ابن عباس، وعن أناس من الصحابة: كان سليمان عليه السلام يتجرد للعبادة فى بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين، وأقل من ذلك وأكثر يدخل إليه طعامه وشرابه، وكان بدء أمر الموت أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت فى بيت المقدس شجرة فيأتيها فيسألها ما اسمك؟ فتقول الشجرة: اسمى كذا وكذا، فإن كانت لغرس غرسها، وإن كانت نبتت دواء قالت: نبت دواء لكذا وكذا فيجعلها كذلك حتى نبتت شجرة يقال لها: الخروبة فسألها ما اسمك؟ قالت: أنا الخروبة. فقال: ولأى شىء نبت؟ فقالت: نبت لخراب هذا المسجد، فقال سليمان: ما كان الله ليخربه وأنا حَىٌّ أنتِ التى على وجهكِ هلاكى وخراب بيت المقدس، فنزعها وغرسها فى حائط له. ثم دخل المحراب فقام يصلى متكئاً على عصاه فمات ولم تعلم به الشياطين، وهم فى ذلك يعملون له يخافون أن يخرج فيعاقبهم، وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب، وكان المحراب له كُوى بين يديه وخلفه فكان الشيطان الذى يريد أن يخلع يقول: ألست جَلْداً إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر، فدخل شيطان من أولئك فمر ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان وهو فى المحراب إلا احترق ولم يسمع صوت سليمان ثم رجع فلم يسمع ثم رجع فوقف فى البيت ولم يحترق ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميتاً فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ففتحوا عنه فأخرجوه ووجدوا منسأته، وهى العصا بلسان الحبشة قد أكلتها الأَرَضة ولم يعلموا منذ كم مات، فوضعوا

الأرضة على العصا فأكلت منها يوماً وليلة. ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة، فمكثوا يدأبون (يجدون ويتعبون) له من بعد موته حولاً كاملاً، فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبون، ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان عليه السلام ولم يلبثوا فى العذاب سنة يعملون له. وذلك قول الله عز وجل: ﴿**مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ**﴾.

قال إسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق عن الزهرى وغيره: أن سليمان عليه السلام عاش اثنتين وخمسين سنة وكان ملكه أربعين سنة، وقال إسحاق: أنبأنا أبو روق عن عكرمة عن ابن عباس أن ملكه كان عشرين سنة.

وقال ابن جرير: فكان جميع عمر سليمان بن داود عليهما السلام نيفاً وخمسين سنة.

وفي سنة أربع من ملكه ابتدأ ببناء بيت المقدس فيما ذكر. ثم ملك بعد ابنه «رحبعام» مدة سبع عشرة سنة فيما ذكره ابن جرير. وقال: ثم تفرقت بعده مملكة بنى إسرائيل.

يونس عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

[يونس: ٩٨].

وقال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [القلم: ٤٨-٥٠].

قال أهل التفسير: بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل نِينَوى من أرض الموصل فدعاهم إلى الله عز وجل فكذبوه وأصروا على كفرهم وعنادهم، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث.

قال ابن مسعود، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وغير واحدمن السلف والخلف: فلما خرج من بين ظهرانيهم وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله فى قلوبهم التوبة والإنابة وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجوا (تضرعوا) إلى الله عز وجل وصرخوا وتضرعوا إليه وتمسكنوا لديه، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات، وجأرت الأنعام والدواب والمواشى، فرغت الإبل وفُصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملانها، وكانت ساعة عظيمة هائلة فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذى كان قد اتصل بهم بسببه، ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ﴾ أى هلاّ

وجدت فـيما سلف من القـرون قرية آمنت بكمالهـا فدل على أنه لم يقع ذلك بل كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤]. وقوله: ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى آمنوا بكمالهم.

وقد اختلف المفسرون هل ينفعهم هذا الإيمان فى الدار الآخرة فينقذهم من العذاب الأخروى كما أنقذهم من العذاب الدنيوى؟ على قولين:

الأظهر من السياق. نعم، والله أعلم. كـما قال تعالى: ﴿لَمَّا آمَنُوا﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٧-١٤٨].

وهذا المتـاع إلى حين لاينـفى أن يكون مـعـه غـيـره من رفع العـذاب الأخروى، وقـد كانوا مـائة ألف لا محـالة. واختلفوا فى الـزيادة. فعن مكحول: عشرة آلاف.

وروى الترمـذى، وابن جرير، وابن أبى حـاتم من حديث زهيـر عمن سمع أبا العالـية حدثنى أُبَىّ بن كعب أنه سأل رسـول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾. قال: يزيدون عشرين ألفاً فلولا هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلاً فى هذا الباب.

وعن ابن عباس: كانوا مـائة ألف وثلاثين ألفاً. وعنه: وبضعة وثلاثين ألفا. وعنه: وبضعة وأربعين ألفا.

وقال سعيد بن جبير: كانوا مائة ألف وسبعين ألفاً.

والمقصود أنه عليه السلام لما ذهب مُغَاضـباً بسبب قومه ركب سفينة فى البـحر فلجَّتَ (خـاضت) بهم واضطربت ومـاجت بهم وثقلت بما فـيهـا وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون. قالوا: فاشتوروا فيما بينهم على أن يقترعـوا فمن وقعت عليه القـرعة ألقوه من السفـينة ليتخففـوا منه. فلما

اقترعوا وقعت القرعة على نبى الله يونس عليه السلام فلم يسمحوا به، فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضاً، فشمَّر ليخلع ثيابه ويُلقى بنفسه فَأَبَوْا عليه ذلك. ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضاً لما يريده الله به من الأمر العظيم.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (المغلوبين) (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٢]. وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة ألقى بنفسه فى البحر وبعث الله عز وجل حوتاً عظيماً من البحر فالتقمه، وأمره الله تعالى أن لايأكل له لحماً ولايهشم له عظماً، فأخذه فطاف به البحار كلها. وقيل: إنه ابتلع ذلك الحوت حوت أكبر منه. ولما استقر فى جوف الحوت حسب أنه قد مات فحرَّك جوارحه فتحركت فإذا هو حى فخر لله ساجداً، وقال: يارب اتخذت لك مسجداً لم يعبدك أحد فى مثله.

وقد اختلفوا فى مقدار لبثه فى بطنه. فقال مجالد عن الشعبى: التقمه ضحى ولفظه عشية. وقال قتادة: مكث فيه ثلاثاً. وقال جعفر الصادق: سبعة أيام. وقال سعيد بن أبى الحسن وأبو مالك: مكث فى جوفه أربعين يوما. والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه.

﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] قال ابن مسعود، وابن عباس، وعمرو بن ميمون، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب، والحسن، وقتادة، والضحاك: ظلمة الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل.

وقال سالم بن أبى الجعد: ابتلع الحوت حوت آخر، فصارت ظلمة الحوتين مع ظلمة البحر.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤]. قيل معناه: لولا أنه سبَّح الله هنالك

وقال ما قال من التهليل والتسبيح والاعتراف لله بالخضوع والتوبة إليه للبث هنالك إلى يوم القيامة ولَبُعِثَ من جوف ذلك الحوت. وقيل معناه: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ﴾ من قبل أخذ الحوت ﴿مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ أى المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيراً. واختاره ابن جرير.

وروى ابن جرير فى تفسيره والبزار فى مسنده من حديث محمد بن إسحاق عمن حدثه عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حبس يونس فى بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذ ولا تخدش لحماً ولا تكسر عظماً، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حِسا فقال فى نفسه: ماهذا، فأوحى الله إليه وهو فى بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر. قال: فسبَّح وهو فى بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا: «يا ربنا إنا نسمع صوتاً بأرض غريبة» قال: «ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر. قالوا: العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم. قال: فشفعوا له عند ذلك. فأمر الحوت فقذفه فى الساحل كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ هذا لفظ ابن جرير إسناداً ومتناً.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ أى ألقيناه ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ وهو المكان القفر الذى ليس فيه شىء من الأشجار بل هو عار منها ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أى ضعيف البدن. قال ابن مسعود: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش.

وقال ابن عباس والسدى، وابن زيد: كهيئة الصبى حين يولد ليس عليه شىء ﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ هو القرع المسمى بالدُّبَّاء.

قال بعض العلماء فى إنبات القرع عليه حِكَمٌ جَمَّة: منها: أن ورقه فى غاية النعومة وكثير وظليل ولايقربه ذباب ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره نيئاً ومطبوخاً وبقشره وببزره أيضاً. وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ

وغيـر ذلك، وسخَّـر الله تعالى له أروية كـانت ترضعه لبنـها وترعى فى البرِّية وتأتيه بـكرة وعشيا. وهذا من رحمـة الله به ونعمته عليـه وإحسانه إليه.

روى ابن جريـر بسنده عن سعـد بن مالك وهو ابن أبى وقـاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الذى إذا دُعِى به أجاب وإذا سئل به أعطى دعـوة يونس بن متى. قـال: فـقلت يارسول الله: هى ليـونس خاصة أم لجمـاعة المسلمين؟ قال: هى ليونس خاصة وللـمؤمنين عامة إذا دعوا بها. ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾

[الأنبياء: ٨٧ - ٨٨].

قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

قال الله تعالى فى كتابه العزيز: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم: ١ - ٦].

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى كتابه التاريخ المشهور الحافل: زكريا بن برخيا، ويقال: زكريا بن دان، ويقال: زكريا بن لدن بن مسلم ابن صدوق.

ويقال فيه زكريا بالمد وبالقصر، ويقال: زكرى أيضاً.

والمقصود: أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يقص على الناس خبر زكريا عليه السلام وما كان من أمره حين وهبه الله ولداً على الكبر وكانت امرأته عاقراً وقد أَسَنَّتْ أيضاً حتى لاييأس أحد من فضل الله تعالى ورحمته فقال تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾. قال قتادة عند تفسيرها: إن الله يعلم القلب النقى، ويسمع الصوت الخفى. وقال بعض السلف: قام من الليل فنادى ربه مناداة أَسَرَّها عمن كان حاضراً عنده مُخَافَتَةً فقال: يارب. يارب. يارب فقال الله تعالى: «لبيك. لبيك. لبيك». ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ (ضعف) الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾. بأن غلب سوادَ الشعر بياضُه، وصرت فى أشد الحاجة إلى من يساعدنى.

﴿ وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾. أى ما عوَّدتنى فيما أسألك إلا الإجابة، وكان الباعث له على هذه المسألة أنه لما كفل مريم بنت عمران بن ماثان،

وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة فى غير أوانها وهذه من كرامات الأولياء، فرجا من الرازق للشىء فى غير أوانه أن يكرمه وأن يرزقه ولداً وإن كان قد طعن فى سنه ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨]، وقال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ[1] مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ . كأنه خاف من تصرف عصبته من بعده فى بنى إسرائيل بما لايوافق شرع الله وطاعته فسأل وجود ولد من صلبه يكون براً تقيا مرضيا. ولهذا قال: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٤ يَرِثُنِي﴾ . أى فى النبوة والحكم فى بنى إسرائيل ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ . يعنى كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء فاجعله مثلهم فى الكرامة التى أكرمتهم بها من النبوة والوحى وليس المراد هاهنا وراثة المال كما زعم ذلك من زعمه من الشيعة ووافقهم ابن جرير هاهنا، وحكاه عن أبى صالح من السلف. فجاءته الملائكة قائلة: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾[مريم: ٧].

كما قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾

[آل عمران: ٣٩]

فلما بُشِّر بالولد وتحقق البشارة شرع يستعلم على وجه التعجب عن وجود الولد والحالة هذه ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٨]. أى كيف يوجد ولد من شيخ كبير؟ قيل: كان عمره إذ ذاك سبعاً وسبعين سنة. والأشبه والله أعلم أنه كان أسَنَّ من ذلك ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ يعنى وقد كانت امرأتى فى حال شبيبتها عاقراً لاتلد. والله أعلم. فقال له الملك الذى يوحى إليه بأمر ربه

---

(١) أقربائى.

﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم:٩] أى سهل يسير عليه ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ أى أوجدتك بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، أفلا أوجد منك ولداً وإن كنت شيخاً؟.

وقال تعالى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠] ومعنى إصلاح زوجته: أنها كانت لاتحيض فحاضت. وقيل: كان فى لسانها شيء. أى بذاءة.

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ﴾ أى علامة على الوقت الذى تحمل فيه منى امرأتى بهذا الولد المبشَّر به. ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ يقول: علامة ذلك أن يعتريك سكوت لاتنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزاً وأنت فى ذلك سَوِيّ الخلق صحيح المزاج معتدل البنية، وأُمِر بكثرة الذكر فى هذه الحال بالقلب واستحضار ذلك بفؤاده بالعشى والإبكار، فلما بُشِّر بهذه البشارة خرج مسروراً بها على قومه من محرابه ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم:١١]. والوحى هاهنا هو الأمر الخفى إما كتابة أو إشارة. قال مجاهد وعكرمة ووهب والسدى وقتادة: اعتقل لسانه من غير مرض. وقال ابن زيد: كان يقرأ ويسبح ولكن لايستطيع كلام أحد.

ولادة يحيى عليه السلام

قال تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] يخبر تعالى عن وجود الولد وفق البشارة الإلهية لأبيه زكريا عليه السلام وأن الله تعالى علمه الكتاب والحكمة وهوصغير فى حال صباه.

قال عبد الله بن المبارك: قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب. فقال: ما لِلّعِبِ خُلِقْنَا. قال: وذلك قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ وأما قوله:

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ فعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك

حنانا: أى رحمة من عندنا رحمنا بها زكريا فوهبنا له هذا الولد.

وعن عكرمة «وحنانا» أى محبة عليه. ويحتمل أن يكون ذلك صفة لتحنن يحيى عليه السلام على الناس ولاسيما على أبويه وهو محبتهما والشفقة عليهما وبره بهما. وأما الزكاة فهى طهارة الخُلق وسلامته من النقائص والرذائل، والتقوى طاعة الله تعالى بامتثال أوامره وترك زواجره.

ثم ذكر تعالى بره بوالديه وطاعته لهما أمراً ونهياً وترك عقوقهما قولاً وفعلاً فقال:

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤]. ثم قال تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾

[مريم: ١٥].

هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان فإنه ينتقل فى كل منها من عالم إلى عالم آخر فيفقد الأول بعد ما كان ألفه وعرفه، ويصير إلى الآخر ولايدرى ما بين يديه، ولهذا يستهل صارخاً إذا خرج من بين

الأحشاء، وفارق لينها وضمها، وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمها، وكذلك إذا فارق هذه الدار، وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار، وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور، وانتظر هناك النفخة فى الصور ليوم البعث والنشور فمن مسرور ومحبور، ومن محزون ومثبور، وما بين جبير وكسير، وفريق فى الجنة وفريق فى السعير.

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم سلَّم الله تعالى على يحيى عليه السلام فى كل موطن منها. قال سعيد بن أبى عَروبة عن قتادة أن الحسن قال: إن يحيى وعيسى التقيا فقال له عيسى: استغفر لى أنت خير منى فقال له الآخر: استغفر لى أنت خير منى فقال له عيسى: أنت خير منى سلَّمتُ على نفسى وسلَّم الله عليك فعُرِف والله فضلهما.

قال إسرائيل عن أبى حصين عن خيثمة قال: كان عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا ابنى خالة وكان عيسى يلبس الصوف، وكان يحيى يلبس الوبر ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ولاعبد ولا أمة، ولا مأوى يأويان إليه أينما جَنَّهُما الليل أَوَيَا فلما أرادا أن يتفرقا قال له يحيى: أوصنى قال: لاتغضب. قال: لا أستطيع إلا أن أغضب. قال: لاتَقْتَنِ مالاً. قال: أما هذه فعسى.

وقد اختلفت الرواية عن وهب بن منبه هل مات زكريا عليه السلام موتاً أو قُتِلَ قتلاً على روايتين.

فروى عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه أنه قال: هرب من قومه فدخل شجرة فجاءوا فوضعوا المنشار عليها، فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أَنَّ فأوحى الله تعالى إليه: لئن لم يسكن أنينك لأقلبن الأرض ومن عليها، فسكن أنينه حتى قطع باثنتين. وقد روى هذا

فى حديث مرفوع سنورده بعد إن شاء الله تعالى.

وروى إسحاق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب أنه قال: الذى انصدعت له الشجرة هو «شعيا» فأما زكريا فمات موتاً. والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عثمان أنبأنا أبو خلف موسى بن خلف، وكان يُعَدُّ من البدلاء. حدثنا يحيى بن أبى كثير عن زيد بن سلام عن جده ممطور عن الحارث الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى أوحى إلى يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن ويأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن فكأنه أبطأ بهن، فأتاه عيسى فقال: إن الله تعالى أمرك بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تخبرهم وإما أن أخبرهم، فقال: يا أخى لاتفعل فإنى أخاف إن سبقتنى بهن أن يُخْسَفَ بى، أو أُعَذَّب، قال: فجمع بنى إسرائيل ببيت المقدس حتى امتلأ المسجد، وقعدوا على الشرفات ثم خطبهم فقال: إن الله تعالى أوحى إلى بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمر بنى إسرائيل أن يعلموا بهن:

أولهن: لاتشركوا بالله شيئاً. فإن مَثل من أشرك الله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو وَرِق، ثم أسكنه داراً فقال: اعمل وارفع إلىَّ فجعل يعمل ويرفع إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك، فإن الله خلقكم ورزقكم فلا تشركوا به شيئاً، وإذا قمتم إلى الصلاة فلا تلتفتوا فإن الله تعالى يُقبل بوجهه إلى عبده ما لم يلتفت، وأمركم بالصيام، ومَثَلُ ذلك كمثل رجل فى عصابة معه صرة مسك، كلهم يحب أن يجد ريحها، وإن الصيام أطيب عند الله من ريح المسك. وأمركم بالصدقة ومَثَلُ ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه، وقربوه ليضربوا عنقه، فجعل يقول: هل لكم أن أفدى نفسى منكم، وجعل يعطى القليل والكثير حتى فدى نفسه.

وأمركم بذكر الله كثيراً. ومثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً فى أثره حتى أتى حصناً حصيناً فأحرز نفسه «حَصَّنَهـا» فيه، وكذلك العبد لاينجو من الشيطان إلا بذكر الله تعالى» الحديث رواه الترمذى، والنسائى ببعضه، وابن خزيمة فى صحيحه واللفظ له، وابن حبان فى صحيحه، والحاكم وقال: صحيح على شرط البخارى ومسلم. قال الترمذى: حديث حسن صحيح.

قال: وقال رسول الله ﷺ: «وأنا آمركم بخمس أمرنى الله تعالى بهن: بالجماعة، والسمع والطاعة، والهجرة، والجهاد فى سبيل الله، فإن من خرج عن الجماعة قِيدَ شبر فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من حِثَا جهنم. قالوا يا رسول الله: وإن صام وصلى؟ قال: وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، ادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل.

ثم روى الحافظ ابن عساكر من طريق عبد الله بن أبى جعفر الرازى عن أبيه عن الربيع بن أنس قال: ذكر لنا عن أصحاب رسول الله ﷺ فيما سمعوا من علماء بنى إسرائيل أن يحيى بن زكريا أرسل بخمس كلمات، وذكر نحو ما تقدم.

وقد ذكروا أن يحيى عليه السلام كان كثير الانفراد عن الناس إنما كان يأنس إلى البرارى ويأكل من ورق الأشجار، ويَرِد ماء الأنهار ويتغذى بالجراد فى بعض الأحيان ويقول: من أَنْعَمُ منك يايحيى؟.

وروى ابن عساكر أن أبويه خرجا فى تطلبه فوجداه عند بحيرة الأردن فلما اجتمعا به أبكاهما بكاء شديداً لما هو فيه من العبادة والخوف من الله تعالى.

وقال ابن وهب عن مالك عن حميد بن قيس عن مجاهد قال: كان طعام يحيى بن زكريا العُشب وإنه كان ليبكى من خشية الله تعالى حتى لو

كان القار على عينيه لخرقه.

وقال محمد بن يحيى الذهلى: حدثنا أبو صالح حدثنا الليث حدثنى عقيل عن ابن شهاب قال: جلست يوماً إلى أبى إدريس الخولانى وهو يقص فقال: ألا أخبركم بمن كان أطيب الناس طعاماً فلما رأى الناس قد نظروا إليه قال إن يحيى بن زكريا أطيب الناس طعاماً؟ إنما كان يأكل مع الوحش كراهة أن يخالط الناس فى معايشهم.

وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد قال: فَقَدَ زكريا عليه السلام ابنه يحيى ثلاثة أيام فخرج يلتمسه فى البرِّية فإذا هو قد احتفر قبراً وأقام فيه يبكى على نفسه فقال: يا بنى أنا أطلبك من ثلاثة أيام وأنت فى قبر قد احتفرته تبكى فيه فقال: يا أبت ألست أنت أخبرتنى أن بين الجنة والنار مفازة لاتقطع إلا بدموع البكائين فقال له: ابك يا بنى فبكيا جميعاً. وهكذا حكاه وهب بن منبه ومجاهد بنحوه.

وروى ابن عساكر عنه أنه قال: إن أهل الجنة لاينامون للذة ما هم فيه من النعيم فكذا ينبغى للصديقين أن لاينامـوا لما فى قلوبهم من نعيم المحبة لله عز وجل ثم قال: كم بين النعيمين وذكروا أنه كان كثير البكاء حتى أثَّر البكاء فى خديه من كثرة دموعه.

سبب قتل يحيى عليه السلام

ذكروا فى قتله أسباباً من أشهرها: أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لايحل له تزويجها فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك فبقى في نفسها منه. فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دَمَ يحيى عليه السلام فوهبه لها فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه فى طَشْت إلى عندها فيقال: إنها هلكت من فورها وساعتها.

وقيل: بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته فأبى عليها فلما يئست منه تحيلت فى أن استوهبته من الملك فتمنع عليها الملك ثم أجابها إلى ذلك فبعث مَن قَتَله وأحضر إليها رأسه ودمه فى طشت.

وقد اختلفوا فى مكان قتل يحيى بن زكريا عليهما السلام. هل كان فى المسجد الأقصى أم فى غيره؟ فقال الثورى عن الأعمش عن شمر بن عطية قال: قُتِل على الصخرة التى ببيت المقدس سبعون نبيًا منهم يحيى بن زكريا عليهما السلام. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال: قدم بختنصر دمشق فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلى فسأل عنه فأخبروه فَقَتَلَ على دمه سبعين ألفاً فسكن. وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب وهو يقتضى أنه قُتل بدمشق وأن قصة بختنصر كانت بعد المسيح عليه السلام كما قاله عطاء والحسن البصرى.

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد قال: رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق أُخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذى يلى المحراب مما يلى الشرق فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير، وفى رواية: كأنما قُتِل الساعة.

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى «المستقصى فى فضائل الأقصى» من طريق العباس بن صبح عن مروان عن سعيد بن عبد العزيز عن قاسم مولى معاوية قال: كان ملك هذه المدينة - يعنى دمشق - هداد بن هداد، وكان قد زوج ابنه بابنة أخيه أريل ملكة صيدا وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة قال: وكان قد حلف بطلاقها ثلاثاً. ثم إنه أراد مراجعتها فاستفتى يحيى بن زكريا فقال: لاتحل لك حتى تنكح زوجاً غيرك فحقدت عليه وطلبت من الملك رأس يحيى بن زكريا وذلك بإشارة أمها فأبى عليها ثم أجابها إلى ذلك وبعث إليه وهو

قائم يصلى بمسجد جيرون من أتاه برأسه فى صينية فجعل الرأس يقول له: لاتحل له لاتحل له حتى تنكح زوجاً غيره فأخذت المرأة الطبق فحملته على رأسها وأتت به أمها وهو يقول كذلك فلما تمثلت بين يدى أمها خُسِف بها إلى قدميها ثم إلى حِقويها (وسطها) وجعلت أمها تولول والجوارى يصرخن ويلطمن وجوههن ثم خسف بها إلى مَنْكِبَيها فأمرت أمها السياف أن يضرب عنقها لتتسلى برأسها ففعل فلفظت الأرض جثتها عند ذلك ووقعوا فى الذل والفناء. ولم يزل دم يحيى عليه السلام يفور حتى قدم بختنصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفاً.

وقال سعيد بن عبد العزيز: ولم يزل يفور (أى دم يحيى) حتى وقف عنده «أرميا» عليه السلام فقال: أيها الدم أفنيت بنى إسرائيل فاسكن بإذن الله فسكن فرفع السيف وهرب من هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس فتبعهم إليهَا بختنصر فقتل خلقاً كثيراً لايحصون كثرة، وسبى منهم ثم رجع عنهم. اهـ.

قصة عيسى بن مريم عليه السلام

قصة أمه مريم عليها السلام

قال الله تعالى فى سورة آل عمران التى أنزل صدرها وهو ثلاث وثمانون آية منها فى الرد على النصارى عليهم لعائن الله، الذين زعموا أن لله ولداً!! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وكان قد قَدِم وفد نجران منهم على رسول الله ﷺ، فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطل من التثليث فى الأقانيم ويدَّعون بزعمهم أن الله ثالث ثلاثة:

١ - الذات المقدسة.

٢ - عيسى.

٣ - مريم.

على اختلاف فرقهم، فأنزل الله صدر هذه السورة، وبيَّن فيها أن عيسى عبد من عباد الله، خلقه وصوره فى الرحم كما صور غيره من المخلوقات وأنه خلقه من غير أب كما خلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم، وقال له: كن فكان. سبحانه وتعالى. وبيَّن أصل ميلاد أمه مريم وكيف كان من أمرها. وكيف حملت بولدها عيسى، فقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦)**

فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٧].

يذكر تعالى أنه اصطفى آدم عليه السلام والخُلّص من ذريته المتبعين شرعه الملازمين طاعته، ثم خصص فقال: «**ونوحاً وآل إبراهيم**» فدخل فيهم بنو إسماعيل. ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم آل عمران، والمراد بعمران هذا والد مريم عليها السلام.

ولا خلاف أنها من سلالة داود عليه السلام، وكان أبوها عمران صاحب صلاة بنى إسرائيل فى زمانه، وكانت أمها هى «حنة بنت فاقود ابن قبيل» من العابدات، وكان زكريا نبى ذلك الزمان زوج أخت مريم «أشياع» فى قول الجمهور. وقيل زوج خالتها «أشياع».

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره أن أم مريم كانت لاتحبل، فرأت يوماً طائراً يزق فرخاً له، فاشتهت الولد، فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها محرراً أى عتيقاً من شواغل الدنيا، خالصاً لعبادة الله تعالى حبيساً فى بيت المقدس.

قالوا: فحاضت من فورها فلما طهرت واقعها بعلها فحملت بمريم عليها السلام.

﴿فلمَّا وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى﴾. أى فى خدمة بيت المقدس، وكانوا فى ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خداماً من أولادهم.

﴿وإني سميتها مريم﴾. استدل به على تسمية المولود يوم يولد، وكما ثبت فى الصحيحين عن أنس فى ذهابه بأخيه إلى رسول الله ﷺ فحنّك أخاه وسماه عبد الله.

وجاء فى حديث الحسن عن سمرة مرفوعاً: «كل غلام رهين بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويسمَّى ويُحْلَقُ رأسه» رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾. ذكر كثير من المفسرين أن أمها حين وضعتها لفتها فى خرقها ثم خرجت بها إلى المسجد فسلمتها إلى العُبَّاد الذين هم مقيمون به، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم، فتنازعوا فيها، والظاهر أنها إنما سلمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها فى صغرها، وهذا هو المعقول.

ثم لما دفعتها إليهم تنازعوا فى أيهم يكفلها، وكان زكريا نبيهم فى ذلك الزمان، وقد أراد أن يستبدَّ بها دونهم من أجل أن زوجته أختها أو خالتها على القولين، فنازعوه فى ذلك وطلبوا أن يقترعوا معهم، فساعدته المقادير فخرجت قرعته غالبة لهم، وذلك أن الخالة بمنزلة الأم.

قال الله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أى بسبب غلبته لهم فى القرعة كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾

[آل عمران: ٤٤].

قالوا: وذلك أن كلا منهم ألقى قلما معروفاً به، ثم حملوها ووضعوها فى موضع وأمروا غلاماً لم يبلغ الحِنْث فأخرج واحداً منها، فظهر أنه قلم زكريا عليه السلام، فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية، وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم فى النهر، فأيهم جرى قلمه على خلاف جرية الماء فهو الغالب، ففعلوا، فكان قلم زكريا عليه السلام هو الذى جرى على خلاف جرية الماء، وسارت أقلامهم مع الماء، ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة، فأيهم جرى قلمه مع الماء ويكون بقية الأقلام قد انعكس سيرها صُعُداً فهو

الغالب، ففعلوا، فكان زكريا عليه السلام هو الغالب لهم، فكفلها إذ كان أحق بها شرعاً وقَدَراً لوجوه عديدة.

من كرامات مريم عليها السلام

قال الله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

قال المفسرون: اتخذ لها زكريا مكاناً شريفاً من المسجد لايدخله سواها، فكانت تعبد الله تعالى فيه وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتها وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها، حتى صارت يُضرب بها المثل فى عبادتها فى بنى إسرائيل، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة، حتى إنه كان نبى الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقاً غريباً فى غير أوانه، فكان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء، وفاكهة الشتاء فى الصيف فيسألها ﴿أَنَّىٰ﴾ (من أين) ﴿لَكِ هَذَا﴾؟ فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أى رزق رزقنيه الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

فعند ذلك وهنالك طمع زكريا فى وجود ولد من صلبه وإن كان قد أَسَنَّ وكبر﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨]. قال بعضهم: كأنه قال: يامن يرزق مريم الثمر فى غير أوانه هب لى ولداً وإن كان فى غير أوانه، فكان من خبره وقضيته ما قدمنا ذكره في قِصته.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ

الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢-٤٦].

يذكر تعالى أن الملائكة بَشَّرَتْ مريم عليها السلام باصطفاء الله تعالى لها من بين سائر نساء عالمى زمانها، بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب وبُشِّرت بأن يكون نبيًا شريفاً ﴿**وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ**﴾ أى فى صغره يدعوهم إلى عبادة الله وحده لاشريك له، وكذلك فى حال كهولته، فدل على أنه يبلغ الكهولة ويدعو إلى الله تعالى فيها، وأُمِرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع؛ لتكون أهلاً لهذه الكرامة، ولتقوم بشكر هذه النعمة، فيقال: إنها كانت تقوم فى الصلاة حتى تفطرت قدماها رضى الله عنها ورحمها ورحم أمها وأباها.

فقول الملائكة: «﴿**يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ**﴾ أى اختارك واجتباك ﴿**وَطَهَّرَكِ**﴾ أى من الأخلاق الرذيلة وأعطاك الصفات الجميلة ﴿**وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾ يحتمل أن يكون المراد عالمى زمانها كقوله لموسى ﴿**قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ**﴾ [الأعراف: ١٤٤] وكقوله فى بنى إسرائيل: ﴿**وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [الدخان: ٣٢]. ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى، وأن محمداً ﷺ أفضل منهما، وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها، وأكثر عدداً؛ وأفضل علماً، وأزكى عملاً من بنى إسرائيل وغيرهم.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿**وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾. مرادا به العموم فتكون أفضل نساء الدنيا ممن كان قبلها أو وجد بعدها لأنها إن

كانت نبية على قول من يقول بنبوتها ونبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسى محتجًا بكلام الملائكة والوحى إلى أم موسى كما يزعم ذلك ابن حزم وغيره، فلا يمتنع على هذا أن تكون مريم أفضل من سارة وأم موسى لعموم قوله: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ إذ لم يعارضه غيره. والله أعلم.

وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الأشعرى وغيره من أهل السنة والجماعة من أن النبوة مختصة بالرجال، وليس فى النساء نبية فيكون أعلى مقامات مريم عليها السلام أنها صديقة، كما قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

فعلى هذا لايمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ممن كان قبلها وممن يكون بعدها. والله أعلم.

وقد جاء ذكرها مقروناً مع آسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ ورضى الله عنهن وأرضاهن.

فقد روى الإمام أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى من طرق عديدة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن جعفر عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «حسبك من نساء العالمين بأربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ».

ورواه الترمذى عن أبى بكر بن زنجويه، عن عبد الرزاق به وصححه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ.

وروى أبو يعلى الموصلى بسنده عن ابن عباس قال: خط رسول الله ﷺ فى الأرض أربع خطوط فقال: «أتدرون ماهذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون». ورواه النسائى من طرق عن داود بن أبى هند.

وروى أبو القاسم البغوى بسنده عن أبى سلمة عن عائشة أنها قالت لفاطمة: أرأيت حين أكببت على رسول الله ﷺ فبكيت ثم ضحكت؟ قالت: أخبرنى أنه ميت من وجعه هذا فبكيت، ثم أكببت عليه فأخبرنى أنى أسرع أهله لحوقاً به وأنى سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران فضحكت» وأصل هذا الحديث فى الصحيح. وهذا إسناد على شرط مسلم وفيه أنهما أفضل الأربع المذكورات.

وهكذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ماكان من مريم ابنة عمران» إسناد حسن وصححه الترمذى ولم يخرجوه.

والمقصود: أن هذا يدل على أن مريم وفاطمة أفضل هذه الأربع، ثم يحتمل الاستثناء أن تكون مريم أفضل من فاطمة ويحتمل أن يكونا على السواء فى الفضيلة.

فأما الحديث الذى رواه ابن مردويه من حديث شعبة عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت

خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

وهكذا الحديث الذى رواه الجماعة إلا أبا داود من طرق، عن شعبة، عن عمرو بن مرة، عن مرة الهمدانى، عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجل كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» فإنه حديث صحيح كما ترى اتفق الشيخان على إخراجه. ولفظه يقتضى حصر الكمال فى النساء فى مريم وآسية، ولعل المراد بذلك فى زمانها فإن كلا منهما كفلت نبيًّا فى حال صغره، فآسية كفلت موسى الكليم وآمنت به حين أرسل، وعذبت فى سبيل الله عذاباً شديداً، ومريم كفلت ولدها عيسى عبد الله ورسوله فلا ينفى كمال غيرها فى هذه الأمة كخديجة وفاطمة.

فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمس عشرة سنة وبعدها أزيد من عشر سنين، وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها رضى الله عنها.

وأما فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإنها خُصَّت بمزيد فضيلة على أخواتها لأنها أصيبت برسول الله ﷺ وبقية أخواتها مُتْنَ فى حياة النبى ﷺ.

وأما عائشة فإنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه ولم يتزوج بكراً غيرها، ولايُعرف فى سائر النساء فى هذه الأمة - بل ولا فى غيرها - أعلم منها ولا أفهم، وقد غار الله تعالى لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فأنزل الله براءتها من فوق سبع سموات، وقد عمَّرت بعد رسول الله ﷺ قريباً من خمسين سنة تُبَلِّغ عنه القرآن والسنة، وتُفْتِى المسلمين، وتصلح بين المختلفين، وهى أشرف أمهات المؤمنين حتى خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين فى قول طائفة من العلماء السابقين واللاحقين، والأحسن الوقف فيهما رضى الله عنهما، وما ذاك إلا لأن قوله ﷺ

«وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» يحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى المذكورات وغيرهن، ويحتمل أن يكون عامًّا بالنسبة إلى ما عدا المذكورات.

والمقصود هاهنا ذكر ما يتعلق بمريم بنت عمران عليها السلام؛ فإن الله اصطفاها وطهرها على نساء عالمى زمانها، ويجوز أن يكون تفضيلها على النساء مطلقاً كما قدمنا. وقد ورد فى حديث أنها تكون من أزواج النبى ﷺ فى الجنة هى وآسية بنت مزاحم.

وقال الزبير بن بكار: حدثنى محمد بن الحسن عن يعلى بن المغيرة عن أبى داود قال: دخل رسول الله ﷺ على خديجة وهى فى مرضها الذى توفيت فيه فقال لها: «بالكره منى ما أرى منك ياخديجة وقد يجعل الله فى الكره خيراً كثيراً، أما علمت أن الله قد زوجنى معك فى الجنة مريم بنت عمران، وكلثم أخت موسى، وآسية امرأة فرعون»؟ قالت: وقد فعل الله بك ذلك يارسول الله؟ قال: «نعم». قالت: بالرفاء والبنين.

حمل مريم بعيسى وولادته

قال الله تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا** ﴾ [مريم: ١٦-٢١].

تقدم أن مريم عليها السلام لما جعلتها أمها محررة تخدم بيت المقدس، وأنه كفلها زوج أختها أو خالتها نبى ذلك الزمان زكريا عليه السلام، وأنه اتخذ لها محراباً (وهو المكان الشريف) من المسجد لايدخله أحد عليها

سواه، وأنها لما بلغت اجتهدت فى العبادة فلم يكن فى ذلك الزمان نظيرها فى فنون العبادات، وظهر عليها من الأحوال ما غبطها به زكريا عليه السلام، وأنها خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله تعالى لها، وبأنه سيهب لها ولداً زكيا يكون نبيا كريماً طاهراً مكرماً مؤيداً بالمعجزات، فتعجبت من وجود ولد من غير والد؛ لأنها لا زوج لها؛ ولا هى ممن تتزوج؛ فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء؛ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، فاستكانت لذلك وأنابت وسلمت لأمر الله، وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها فإن الناس يتكلمون فيها بسببه؛ لأنهم لايعلمون حقيقة الأمر، وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبر ولا تعقل، وكانت إنما تخرج من المسجد فى زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لابد منها، من استقاء ماء أو تحصيل غذاء فبينما هى يوماً قد خرجت لبعض شئونها و﴿ انتَبَذَتْ ﴾ أى انفردت وحدها شرقى المسجد الأقصى، إذ بعث الله تعالى إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾، فلما رأته ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ قال أبوالعالية: عَلِمَتْ أن التقى ذو نهية وهذا يرد قول من زعم أنه كان فى بنى إسرائيل رجل فاسق مشهور بالفسق اسمه «تقى» فإن هذا قول باطل بلا دليل وهو من أسخف الأقوال ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أى خاطبها الملك قائلاً: إنما أنا رسول ربك لست ببشر ولكنى ملك بعثنى الله إليك ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أى ولست ذات زوج ولا أنا ممن يفعل الفاحشة.

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أى فأجابها الملك عن تعجبها من وجود ولد منها والحالة هذه قائلاً: ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ أى وعد أنه سيخلق منك غلاماً ولَسْتِ بذات بعل ولا ممن تبغين ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أى وهذا سهل عليه ويسير لديه فإنه على ما يشاء قدير.

﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أى ولنجعل خلقه والحالـة هذه دليلاً على كمال قدرتنا على أنواع الخلق فـإنه تعالى خلق آدم من غيـر ذكر ولا أنثى وخلق حواء من ذكـر بلا أنثى، وقوله ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أى نرحم به العـباد، بأن يدعوهم إلى الله تعالى فى صغره وكبـره: فى طفولته وكهولته بأن يفردوا الله بالعبـادة وحده لاشريك له، ويـنزهوه عن اتخاذ الصاحـبة والأولاد، والشركاء، والنظـراء، والأضداد، والأنداد. وقوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ يحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريـل عليه السلام معها يعنى أن هذا أمر قد قضاه الله وحتمه وقدره وقرره واختاره ابن جرير ولم يحك سواه.

ويحتمل أن يكون قوله ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ كناية عن نفخ جبريل فيها كما قـال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التـحريم: ١٢] فذكـر غيـر واحد من السلف أن جـبريل علـيه السلام نفخ جيب درعها، فنزلت النفخـة فى فرجها، فحملت من فورها، كمـا تحمل المرأة عند جـماع بعلها، ومَن قـال: إنه نفخ فى فمـها، أو أن الذى كان يخـاطبها هو الروح الذى ولج فـيها من فمـها فقوله خـلاف ما يُفهم من سياقـات هذه القصة فى محالِّها من القـرآن فإن هذا السياق يدل على أن الذى أُرسل إليها ملك من الملائكة، وهو جـبريل عليه السلام وأنه إنما نفخ فيها، ولم يواجه الملك الفرج بل نفخ فى جيبها فنزلت النفخة إلى فرجها فانسلكت فيه كما قال تعالى: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ فدل على أن النفـخة ولَجت فـيه لا فى فمـها كـما رُوى عن أُبَىّ بن كـعب، ولا فى صدرها كمـا رواه السدى بإسناده عن بعض الصحابة، ولهـذا قال تعالى: «فحملته» أى حـملت ولدها، «فانتبذت به مـكاناً قصياً» وذلك لأن مـريم عليها السـلام ضاقت به ذرعاً، وعلمت أن كثيـراً من الناس سيكون منهم كلام فى حقهـا، فذكر غير واحد من السـلف منهم وهب بن منبه أنها لما ظهرت عليهـا مخايل الحمل كان أول من فطن لـذلك رجل من عُبَّاد بنى

إسرائيل يقال له «يوسف بن يعقوب النجار» وكان ابن خالها، فجعل يتعجب من ذلك عجباً شديداً، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها، وهو مع ذلك يراها حبلى وليس لها زوج، فعرَّض لها ذات يوم فى الكلام فقال: يامريم: هل يكون زرع من غير بذر؟ قالت: نعم. فمن خلق الزرع الأول؟ ثم قال: فهل يكون شجر من غير ماء ولا مطر؟ قالت: نعم فمن خلق الشجر الأول؟ ثم قال: فهل يكون ولد من غير ذَكَر؟ قالت: نعم. إن الله تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، قال لها: فأخبرينى خبرك. فقالت: إن الله بشرنى ﴿**إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٦] ويروى مثل هذا عن زكريا عليه السلام أنه سألها فأجابته بمثل هذا.

وذكر السدى بإسناده عن الصحابة أن مريم دخلت يوماً على أختها (زوجة زكريا) فقالت لها أختها: أشعرت أنى حبلى؟ فقالت مريم: وشعرتُ أيضا أنى حبلى؟ فاعتنقتها وقالت لها أم يحيى: إنى أرى ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك (والمراد بالسجود هاهنا الخضوع والتعظيم)، كالسجود عند المواجهة للسلام، كما كان فى شرع مَن قبلنا، وكما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام.

وقال أبو القاسم: قال مالك: بلغنى أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة وكان حملهما معاً فبلغنى أن أم يحيى قالت لمريم: إنى أرى ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك قال مالك: أرى ذلك بتفضيل عيسى عليه السلام لأن الله تعالى جعله يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص» رواه ابن أبى حاتم.

وروى عن مجاهد قال: قالت مريم: كنت إذا خلوت حدثنى وكلمنى وإذا كنت بين الناس سبَّح فى بطنى.

ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن ووضعهن إذ لو كان خلاف ذلك لذكر.

وعن ابن عباس وعكرمة: أنها حملت به ثمانية أشهر. وعن ابن عباس: ما هو إلا أن حملت به فوضعته. قال بعضهم: حملت به تسع ساعات، واستأنسوا لذلك بقوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٢-٢٣] والصحيح أن تعقيب كل شيء بحسبه لقوله «فتصبح الأرض مخضرة» وكقوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]. ومعلوم أن بين كل حالين أربعين يوماً كما ثبت فى الحديث المتفق عليه.

قال محمد بن إسحاق: شاع واشتهر فى بنى إسرائيل أنها حامل فما دخل على آل بيت ما دخل على آل بيت زكريا. قال: واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذى كان يتعبد معها فى المسجد، وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم، ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ بعيداً عن أهلها.

وقوله: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أى فألجأها واضطرها الطلق إلى جذع النخلة وهو بنص الحديث الذى رواه النسائى بإسناد لا بأس به عن أنس مرفوعاً والبيهقى بإسناده وصححه عن شداد بن أوس مرفوعاً أيضاً «ببيت لحم» الذى بنى عليه بعض ملوك الروم فيما بعد ما سنذكره من أمر هذا البناء المشاهد الهائل.

﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]. وفيه دليل على جواز تمنى الموت عند الفتن وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها؛ بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات فى المسجد المنقطعات إليه

المعتكفات فيه ومن بيت النبوة والديانة فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال أو كانت ﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أو لم تخلق بالكلية. وقوله: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ وقرئ «مِنْ تَحتِها» على الخفض، وفى الذى ناداها قولان: أحدهما: أنه جبريل عليه السلام. قاله العوفى عن ابن عباس قال: ولم يتكلم عيسى إلا بحضرة القوم وهكذا قال سعيد بن جبير، وعمرو بن ميمون، والضحاك، والسدى، وقتادة.

وقال مجاهد، والحسن، وابن زيد، وسعيد بن جبير فى رواية: هو ابنها عيسى واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ السرى قيل: النهر. وإليه ذهب الجمهور، وجاء فيه حديث رواه الطبرانى لكنه ضعيف، واختاره ابن جرير وهو الصحيح.

وعن الحسن والربيع بن أنس وابن أسلم وغيرهم: أنه ابنها والصحيح الأول لقوله: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ فذكر الطعام والشراب ولهذا قال: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ ثم قيل: كان جذع النخلة يابساً، وقيل: كانت نخلة مثمرة. فالله أعلم.

ويحتمل أنها كانت نخلة لكنها لم تكن مثمرة إذ ذاك لأن ميلاده كان فى زمن الشتاء وليس ذاك وقت ثمر، وقد يُفهم ذلك من قوله تعالى على سبيل الامتنان ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ قال عمرو بن ميمون: ليس شىء أجودَ للنفساء من التمر والرطب ثم تلا هذه الآية.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ وهذا من تمام كلام الذى ناداها من تحتها قال: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: ٢٦]. أى فإن رأيت أحداً من الناس «فقولى إنّى نَذَرتُ لِلرَّحْمنِ صَوْمًا» أى صمتاً، وكان من صومهم فى

شريعتهم ترك الكلام والطعام. قال قتادة، والسدى، وابن أسلم. ويدل على ذلك قوله: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ فأما فى شريعتنا فيكره للصائم صمت يوم إلى الليل.

وقوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٧-٢٨]

ذكر كثير من السلف ممن ينقل عن أهل الكتاب أنهم لما افتقدوها من بين أظهرهم ذهبوا فى طلبها فمروا على مَحلتها والأنوار حولها، فلما واجهوها وجدوا معها ولدها فقالوا لها: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أى أمراً عظيما منكراً.

وفى هذا الذى قالوه نظر، مع أنه كلام ينقض أوله آخره وذلك لأن ظاهر سياق القرآن الكريم العظيم يدل على أنها حملته بنفسها وأتت به قومها وهى تحمله. قال ابن عباس: وذلك بعدما تعلت من نفاسها بعد أربعين يوما.

والمقصود: أنهم لما رأوها تحمل معها ولدها: ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ والفرية: هى الفَعلة المنكرة العظيمة من الفِعال والمقال. ثم قالوا لها: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ قيل: شبهوها بعابد من عباد زمانها كانت تساميه فى العبادة، وكان اسمه هارون. قاله سعيد بن جبير.

وقيل: أرادوا بهارون أخا موسى. شبهوها به فى العبادة وقالوا: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ أى لستِ من بيتٍ هذا شيمتهم ولاسجيتهم لا أمك ولا أبوك، فاتهموها بالفاحشة العظمى ورموها بالداهية الدهياء.

وذكر ابن جرير فى تاريخه أنهم اتهموا بها زكريا وأرادوا قتله ففرَّ منهم فلحقوه وقد انشقت له الشجرة فدخلها وأمسك إبليس بطرف ردائه فنشروه

فيها كما قدمناه.

ومن المنافقين: من اتهمها بابن خالها يوسف بن يعقوب النجار.

﴿**فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ**﴾ أى خاطبُوه وكَلِّموه فإن جوابكم عنده. فعندها﴿**قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا؟**﴾ أى كيف تحيلينا فى الجواب على طفل صغير لايعقل الخطاب، وهو مع ذلك رضيع فى مهده ولايميز بين محض وزبده، وما ذلك منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء، والنقص والازدراء إذ لاتردين علينا قولا، بل تحيلين فى الجواب على من كان فى المهد صبياً. فعندها ﴿**قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا**﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٣].

وهذا أول كلام تفوَّه به عيسى بن مريم، فكان أول ما تكلم به أن قال «**إنى عبد الله**» فاعترف لربه تعالى بالعبودية، وأن الله ربه، فنزَّه جناب الله عن قول الظالمين فى زعمهم أنه ابن الله، بل هو عبده ورسوله وابن أمته، ثم برأَّ أمه مما نسبه إليها الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله: ﴿**آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا**﴾ فإن الله لايعطى النبوة من هو كما زعموا لعنهم الله وقبحهم، كما قال تعالى: ﴿**وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ١٦٥] وذلك أن طائفة من اليهود فى ذلك الزمان قالوا: إنها حملت به من زنا فى زمن الحيض، فبرأها الله من ذلك وأخبر عنها أنها صديقة واتخذ ولدها نبياً مرسلاً أحد أولى العزم الخمسة الكبار ولهذا قال ﴿**وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ**﴾ وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لاشريك له ونزه جنابه عن النقص والعيب، من اتخاذ الولد والصاحبة ﴿**وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا**﴾ وهذه وظيفة العبيد فى القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة، والإحسان إلى الخليقة بالزكاة، وهى

تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة وتطهير الأموال بالعطية للمحاويج على اختلاف الأصناف، وقرَى الأضياف، والنفقات على الزوجات والأرقاء والقرابات، وسائر وجوه الطاعات، وأنواع القربات.

ثم قال: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾. أى وجعلنى براً بوالدتى، وذلك أنه تأكد حقها عليه لتمحض جهتها إذ لا والد له سواها، فسبحان من خلق الخليقة وبرأها، وأعطى كل نفس هداها. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أى لست بفظ ولا غليظ، ولايصدر منى قول ولافعل ينافى أمر الله وطاعته. ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

وهذه المواطن الثلاثة التى تقدم الكلام عليها فى قصة يحيى عليه السلام ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

[مريم: ٣٤-٣٥].

ولهذا لما قدم وفد نجران وكانوا ستين راكباً يرجع أمرهم إلى أربعة عشر منهم، ويؤول أمر الجميع إلى ثلاثة هم أشرافهم وساداتهم وهم: العاقب والسيد، وأبو حارثة بن علقمة، فجعلوا يناظرون فى أمر المسيح عليه السلام، فأنزل الله تعالى صدر سورة آل عمران فى ذلك، وبيَّن أمر المسيح وابتداء خلقه وخلق أمه من قبله، وأمَرَ رسولَه أن يباهلهم إن لم يستجيبوا له ويتبعوه، فلما رأوا الحقيقة واضحة وامتنعوا عن المباهلة وعدلوا إلى المسالمة والموادعة وقال قائلهم: وهو العاقب عبد المسيح: يامعشر النصارى لقد علمتم أنه ما لاَعَنَ قوم نبيًا قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم وإنها للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلْفَ دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فطلبوا ذلك من رسول الله ﷺ وسألوه أن يضرب عليهم جزية وأن يبعث معهم رجلاً أميناً، فبعث معهم أباعبيدة بن الجراح.

قال الله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ

﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧]. أى فاختلف أهل ذلك الزمان ومَن بعدهم فيه، فمن قائل من اليهود: إنه ولد زانية، واستمروا على كفرهم وعنادهم.

وقابلهم آخرون فى الكفر فقالوا: هو الله.

وقال آخرون: هو ابن الله.

وقال المؤمنون: هو عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وهؤلاء هم الناجون المثابون والمؤيدون المنصورون ومَن خالفهم فى شىء من هذه القيود فهم الكافرون الضالون الجاهلون، وقد توعدهم العلى العظيم الحكيم العليم بقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

نشأة عيسى عليه السلام وتطور حياته

قد تقدم أنه وُلِدَ ببيت لحم قريباً من بيت المقدس.

وزعم وهب بن منبه أنه ولد بمصر، وأن مريم سافرت هى ويوسف بن يعقوب النجار، وهذا لايصح، والحديث الذى تقدم ذكره دليل على أن مولده كان ببيت لحم كما ذكرنا وما عارضه فباطل.

وذكر وهب بن منبه أنه لما ولد خرت الأصنام يومئذ فى مشارق الأرض ومغاربها. وأن الشياطين حارت فى سبب ذلك حتى كشف لهم إبليس الكبير أمر عيسى فوجدوه فى حجر أمه والملائكة محدقة به، وأنه ظهر نجم عظيم فى السماء وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا: هذا لمولد عظيم فى الأرض، فبعث رسله ومعهم ذهب، ومُر، ولبان هدية إلى عيسى. فلما قدموا الشام سألهم ملكها عما أقدمهم فذكروا له ذلك، فسأل عن ذلك الوقت فإذا قد ولد فيه عيسى بن مريم ببيت المقدس واشتهر أمره بسبب كلامه فى المهد، فأرسلهم إليه بما معهم

وأرسل معهم من يعـرِّفه ليتوصل إلى قتله إذا انصـرفوا عنه، فلما وصلوا إلى مريم بالهدايا ورجعوا قيل لهـا: إن رسل ملك الشام إنما جاءوا ليقتلوا ولدك. فاحتـملته فذهبت به إلى مصـر، فأقامت به حتى بلغ عـمره اثنتى عشرة سنة، وظهرت عليه كرامات ومعجزات فى حال صغره.

فذكر منها أن الدهقان الذى نزلوا عنده افتقد مالاً من داره، وكانت داره لايسكنها إلا الفقراء والضعـفاء والمحاويج، فلم يدر من أخذه، وعز ذلك على مريم عـليها السـلام، وشق على الناس وعلى رب المنزل، وأعـياهم أمرها، فلمـا رأى عيـسى عليه السلام ذلك عـمد إلى رجل أعـمى وآخر مُقْـعَد من جملة من هو منـقطع إليه. فقـال للأعمى: احمل هذا المقـعد وانهض به. فـقال: إنى لا أستـطيع ذلك. فقال: بـلى، كما فـعلت أنت وهو حين أخذتما هذا المال من تلك الكوة من الدار. فلما قال ذلك صدقاه فيما قال وأتيا بالمال فعظم عيسى فى أعين الناس وهو صغير جداً.

ومن ذلك أن ابن الدهقان عمل ضيافة للناس بسبب ظهور أولاده، فلما اجتـمع الناس وأطعمهم ثم أراد أن يسـقيهم شـراباً - يعنى خمراً - كـما كانوا يصنعون فى ذلك الزمان لم يجد فى جراره شيئاً فشق ذلك عليه فلما رأى عيسى ذلك منه قام فجعل يمر على تلك الجرار ويُمِرُّ يده على أفواهها فلا يفعل بجـرة منها ذلك إلا امتلأت شـراباً من خيار الشراب، فـتعجب الناس من ذلك جداً وعظمـوه، وعرضوا عليه وعلى أمـه مالاً جزيلاً فلم يقبلاه، وارتحلا قاصدين بيت المقدس. والله أعلم.

وقال إسـحاق بن بشر: أنبـأنا عثمـان بن ساج وغيـره، عن موسى بن وردان، عن أبى نضرة عن أبى سعيـد، وعن مكحول عن أبى هريرة قال: إن عيسى بن مريم أول مـا أطلق الله لسانه بعد الكلام الذى تكلم به وهو طفل فمجَّد الله تمجيداً لم تسـمع الآذان بمثله لم يدع شمساً ولا قمراً ولا جبلاً ولا نهراً ولا عيناً إلا ذكره فى تمجيده.

وقال إسحاق بن بشر: عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس إن عيسى بن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلاً حتى بلغ ما يبلغ الغلمان. ثم أنطقه الله تعالى بعد ذلك بالحكمة والبيان فَأكْثَرَ اليهود فيه وفي أمه من القول، وكانوا يسمونه ابن البغية وذلك قوله تعالى: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾[النساء: ١٥٦].

قال فلما بلغ سبع سنين أسلمته أمه فى الكتَّاب، فجعل لايعلمه المعلم شيئاً إلا بدره إليه، فعلمه أباجاد، فقال عيسى ما أبو جاد؟ فقال المعلم: لا أدرى. فقال عيسى: كيف تعلمنى ما لاتدرى. فقال المعلم: إذاً فعلمنى. فقال له عيسى: فقم من مجلسك. فقام فجلس عيسى مجلسه فقال سلنى؟ فقال المعلم: فما أبو جاد؟ فقال عيسى: الألف: آلاء الله، والباء: بهاء الله، والجيم: بهجة الله وجماله، فعجب المعلم من ذلك فكان أول من فسر أبا جاد (أى الحروف الأبجدية وعددها تسعة وعشرون حرفاً منها تتكون الكلمات) وقال إسحاق بن بشر عن جويبر، ومقاتل عن الضحاك، عن ابن عباس قال: وكان عيسى يرى العجائب فى صباه إلهاماً من الله ففشا ذلك فى اليهود وترعرع عيسى فهمَّت به بنوا إسرائيل فخافت أمه عليه، فأوحى الله إلى أمه أن تنطلق به إلى أرض مصر، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٥٠]. وقد اختلف السلف والمفسرون فى المراد بهذه الربوة التى ذكر الله من صفاتها أنها ذات قرار ومعين، وهذه صفة غريبة الشكل، وهى أنها ربوة وهو المكان المرتفع من الأرض الذى أعلاه مستو يُقَرُّ عليه وارتفاعه متسع، ومع علوه فيه عيون الماء المعين وهو الجارى السارح على وجه الأرض، فقيل: المراد المكان الذى وَلَدَت فيه المسيح وهو نخلة بيت المقدس، ولهذا قال: ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم: ٢٤] وهو النهر الصغير فى قول جمهور السلف.

وعن ابن عباس بإسناد جيد أنها أنهار دمشق، وقيل ذلك بمصر كما زعمه من زعمه من أهل الكتاب ومن تلقاه عنهم، وقيل: هى الرملة. والله أعلم.

وقال إسحاق بن بشر: قال لنا إدريس عن جده وهب بن منبه: إن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمره الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت «إيليا» قال: فقدم عليه يوسف ابن خال أمه فحملهما على حمار حتى جاء بهما إلى «إيليا» وأقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل وعلمه التوراة، وأعطاه إحياء الموتى وإبراء الأسقام والعلم بالغيوب مما يدخرون فى بيوتهم، وتحدث الناس بقدومه، وفزعوا لِمَا كان يأتى به من العجائب فجعلوا يعجبون منه فدعاهم إلى الله تعالى ففشا فيهم أمره.

بيان نزول الكتب الأربعة ومواقيتها

قال أبو زرعة الدمشقى: حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى معاوية بن صالح عمن حدثه قال: أُنزلت التوراة على موسى عليه السلام فى ست ليال خلوْن من شهر رمضان، ونزل الزبور على داود عليه السلام فى اثنتى عشرة ليلة خَلَتْ من شهر رمضان، وذلك بعد التوراة بأربعمائة سنة واثنتين وثمانين سنة، وأُنزل الإنجيل على عيسى بن مريم عليه السلام فى ثمان عشرة ليلة خلت من شهر رمضان بعد الزبور بألف عام وخمسين عاماً، وأُنزل الفرقان على محمد ﷺ فى أربع وعشرين من شهر رمضان.

وقد ذكرنا فى التفسير عند قوله تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ**﴾ [البقرة: ١٨٥]. الأحاديث الواردة فى ذلك، وقيل: إن الإنجيل أُنزل على عيسى بن مريم عليه السلام فى ثمان عشرة ليلة خلت من شهر رمضان.

وذكر ابن جرير فى تاريخه أنه أُنزل عليه وهو ابن ثلاثين سنة، ومكث حتى رفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى.

بعثة عيسى ومعجزاته

روى أبو حذيفة إسحاق بن بشر بأسانيده عن كعب الأحبار ووهب بن منبه وابن عباس وسلمان الفارسى دخل حديث بعضهم فى بعض قالوا: لما بُعث عيسى بن مريم وجاءهم بالبينات جعل المنافقون والكافرون من بنى إسرائيل يعجبون منه ويستهزئون به ويقولون: ما أكل فلان البارحة وما ادخر فى منزله؟ فيخبرهم فيزداد المؤمنون إيماناً والكافرون والمنافقون شكاً وكفراناً، وكان عيسى عليه السلام مع ذلك ليس له منزل يأوى إليه إنما يسيح فى الأرض ليس له قرار ولا موضع يُعرف به.

وكان أول من أحيا من الموتى أنه مرَّ ذات يوم على امرأة قاعدة عند قبر وهى تبكى، فقال لها: مالك أيتها المرأة، فقالت: ماتت ابنة لى لم يكن لى ولد غيرها وإنى عاهدت ربى أن لا أبرح من موضعى هذا حتى أذوق ما ذاقت من الموت أو يُحْيِيهَا الله فأنظر إليها، فقال لها عيسى: أرأيت إن نظرت إليها أراجعة أنت؟ قالت: نعم. قالوا: فصلى ركعتين ثم جاء فجلس عند القبر فنادى: يافلانة قومى بإذن الرحمن فاخرجى قال: فتحرك القبر. ثم نادى الثانية، فانصدع القبر بإذن الله. ثم نادى الثالثة، فخرجت وهى تنفض رأسها من التراب، فقال لها عيسى: ما أبطأ بك عنى؟ فقالت: لما جاءتنى الصيحة الأولى بعث الله لى ملكاً فَرَكَّبَ خَلْقِى، ثم جاءتنى الصيحة الثانية فرجع إلىَّ روحى، ثم جاءتنى الصيحة الثالثة فخفت أنها صيحة القيامة فشاب رأسى وحاجباى وأشفار عينى من مخافة القيامة، ثم أقبلَتْ على أمها فقالت: يا أماه ما حملك على أن أذوق كَرْبَ الموت مرتين؟ يا أماه: اصبرى واحتسبى فلا حاجة لى فى الدنيا. ياروح الله وكلمته: سل ربى أن يردَّنى إلى الآخرة وأن يهوِّن علىَّ كَرْب الموت، فدعا ربه فقبضها إليه واستوت عليها الأرض فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه غضباً.

وجاء فى ذكر قصة نوح أن بنى إسرائيل سألوه أن يحيى لهم سام بن

نوح فدعا الله عز وجل وصلى لله فأحياه الله تعالى لهم فحدثهم عن السفينة وأمرها ثم دعا فعاد تراباً.

وقد روى السدى عن أبى صالح، وأبى مالك عن ابن عباس فى خبر ذكره وفيه: أن ملكاً من ملوك بنى إسرائيل مات وحُمل على سريره فجاء عيسى عليه السلام فدعا الله عز وجل فأحياه الله تعالى فرأى الناس أمراً هائلا ومنظراً عجيباً. قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾

[المائدة: ١١٠-١١١]

يذكره تعالى بنعمته عليه وإحسانه إليه فى خلقه إياه من غير أب، بل من أم بلا ذكر، وجعله له آية للناس ودلالة على كمال قدرته تعالى، ثم إرساله بعد هذا كله ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ فى اصطفائها واختيارها لهذه النعمة العظيمة وإقامة البرهان على براءتها مما نسبها إليه الجاهلون ولهذا قال: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل بإلقاء روحه إلى أمه، ووجوده معه فى حال رسالته، ومدافعته عنه ضد من كفر به.

﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾ أى تدعو الناس إلى الله فى حال صغرك فى مهدك وفى كهولتك.

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أى الخط والفهم نص عليه بعض السلف، «والتوراة والإنجيل».

وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أى تصوره وتشكله من الطين على هيئة الطير بناء على أمر الله تعالى له بذلك ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ أى بأمرى. يؤكد تعالى بذكر الإذن له فى ذلك لرفع التوهم.

وقوله: ﴿وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ﴾ قال بعض السلف: وهو الذى يولد أعمى ولاسبيل لأحد من الحكماء إلى مداواته. ﴿وَالأَبْرَصَ﴾ وهو الذى لاطب فيه بل قد مرض بالبرص وصار داؤه عضالاً.

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ أى من قبورهم أحياء بإذنى.

وقوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. وذلك حين أرادوا صَلْبَه فرفعه الله تعالى إليه وأنقذه من بين أظهرهم صيانة لجنابه الكريم عن الأذى وسلامة له من الردى.

وقوله ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾. قيل: المراد بهذا الوحى وحى إلهام أى أرشدهم الله إليه ودلهم عليه كما قال ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨]، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

وقيل: المراد وحى بواسطة الرسول، وتوفيق فى قلوبهم لقبول الحق ولهذا استجابوا قائلين ﴿آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾. وهذا من جملة نعم الله على عبده ورسوله عيسى بن مريم أن جعل له أنصاراً وأعوانا ينصرونه ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لاشريك له، كما قال تعالى لعبده محمد ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

[الأنفال: ٦٢-٦٣].

وقال تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١) فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٨-٥٤].

كانت معجزة كل نبى فى زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان، فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته ما يناسب أهل زمانه وكانوا سحرة أذكياء، فبُعث بآيات بهرت الأبصار وخضعت لها الرقاب، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهى إليه وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل الذى لايمكن صدوره إلا عمن أيده الله وأجرى الخارق على يديه تصديقاً له، أسلموا سراعاً ولم يتلعثموا. وهكذا عيسى بن مريم بُعث فى زمن الطبائعية الحكماء، فأُرسل بمعجزات لايستطيعونها ولايهتدون إليها، وأنَّى لحكيم إبراء الأكمه الذى هو أسوأ حالاً من الأعمى والأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره؟ هذا مما يعلم كل أحد أنه معجزة دالة على صدق من قامت به وعلى قدرة من أرسله.

وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين بُعث فى زمن الفصحاء البلغاء، فأنزل الله تعالى عليه القرآن العظيم الذى ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] فلفظه معجز تحدى به

الإنس أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة وقطع عليهم بأنهم لايقدرون لا فى الحال ولا فى الاستقبال حيث قال: ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٤]. وما ذاك إلا لأنه كلام الخالق عز وجل، والله تعالى لا يشبهه شيء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله.

والمقصود أن عيسى عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم. فوفق الله من بينهم طائفة صالحة فكانوا له أنصاراً وأعواناً قاموا بمتابعته ونصرته ومناصحته، وذلك حين همَّ به بنو إسرائيل ووشَوْا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان، فعزموا على قَتْله وَصَلْبه فأنقذه الله منهم ورفعه إليه من بين أظهرهم، وألقى شبهه على أحد أصحابه فأخذوه وقتلوه وصلبوه وهم يعتقدونه عيسى، وهم فى ذلك غالطون، وللحق مكابرون، وسلَّم لهم كثير من النصارى ما ادعوه، وكلا الفريقين فى ذلك على ضلال مبين.

قال تعالى: ﴿ **وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ٥٤].

قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ [الصف: ٦-٨].

إلى أن قال بعد ذلك: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ** ﴾ [الصف: ١٤].

فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بنى إسرائيل وقد قام فيهم خطيباً فبشرهم بخاتم الأنبياء الآتى بعده ونوَّه باسمه وذكر لهم صفته ليعرفوه ويتابعوه إذا شاهدوه إقامة للحجة عليهم، وإحساناً من الله تعالى إليهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يارسول الله أخبرنا عن نفسك. قال: «دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى، ورأت أمى حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام».

وقد روى عن العرباض بن سارية وأبى أمامة عن النبى ﷺ نحو هذا وفيه: «دعوة أبى إبراهيم وبُشْرى عيسي، وذلك أن إبراهيم لما بنى الكعبة قال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] الآية.

ولما انتهت النبوة فى بنى إسرائيل إلى عيسى عليه السلام قام فيهم خطيباً فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم، وأنها بعده فى النبى العربى الأمى خاتم النبيين على الإطلاق «أحمد» وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الذى هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦] يحتمل عود الضمير إلى عيسى عليه السلام، ويحتمل عوده إلى محمد ﷺ.

ثم حرَّض تعالى عباده المؤمنين على نصرة الإسلام وأهله ونصرة نبيه ومؤازرته ومعاونته على إقامة الدين ونشر الدعوة فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ**﴾. أى من يساعدنى فى الدعوة إلى الله ﴿**قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ**﴾. وكان ذلك فى قرية يقال لها «الناصرة» فسموا بذلك النصارى.

قال تعالى: ﴿**فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ**﴾. يعنى لما دعا عيسى بنى إسرائيل وغيرهم إلى الله تعالى، منهم من آمن ومنهم من كفر، وكان ممن آمن به أهل أنطاكية بكمالهم فيما ذكره غير واحد من أهل السِّيَر والتواريخ والتفسير. بعث إليهم رسلاً ثلاثة أحدهم: شمعون الصفا، فآمنوا واستجابوا وليس هؤلاء هم المذكورين فى سورة «ياسين» لما تقدم تقريره فى قصة أصحاب القرية، وكَفَرَ آخرون من بنى إسرائيل وهم جمهور اليهود فأيَّد الله من آمن به على من كفر فيما بعد وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم كما قال تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾[آل عمران: ٥٥]. فكل من كان إليه أقرب كان غالباً لمن دونه، ولما كان قول المسلمين فيه هو الحق الذى لاشك فيه من أنه عبد الله ورسوله كانوا ظاهرين على النصارى الذين غَلَوْا فيه وأطروه، وأنزلوه فوق ما أنزله الله.

ولما كان النصارى أقرب فى الجملة مما ذهب إليه اليهود فيه عليهم لعائن الله، كان النصارى قاهرين لليهود فى أزمان الفترة إلى زمن الإسلام وأهله.

ذكر خبر المائدة

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾

[المائدة: ١١٢-١١٥].

ومضمون ذلك: أن عيسى عليه السلام أمر الحواريين بصيام ثلاثين يوماً، فلما أتموها سألوا عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم أن الله قد تقبل صيامهم وأجابهم إلى طِلْبَتِهِمْ، وتكون لهم عيداً يفطرون عليها يوم فطرهم، وتكون كافية لأولهم وآخرهم، لغنيهم وفقيرهم. فوعظهم عيسى عليه السلام فى ذلك وخاف عليهم أن لايقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها، فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل. فلما لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مصلاه ولبس مِسحاً من شَعْر، وصفَّ بين قدميه، وأطرق رأسه وأسبل عينيه بالبكاء، وتضرع إلى الله تعالى فى الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى ما طلبوا.

فأنزل الله تعالى المائدة من السماء والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين وجعلت تدنوا قليلاً قليلاً، وكلما دنت سأل عيسى عليه السلام ربه عز وجل أن يجعلها رحمة لانقمة، وأن يجعلها بركة وسلامة، فلم

تزل تدنو حتى استقرت بين يدى عيسى عليه السلام، وهى مغطاة بمنديل فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول: «بسم الله خير الرازقين» فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة، ويقال: وخَلّ، ويقال: ورمان وثمار. ولها رائحة عظيمة جدًا، قال الله كونى فكانت.

ثم أمرهم بالأكل منها. فقالوا: لانأكل حتى تأكل. فقال: إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها، فأبوا أن يأكلوا منها ابتداء، فأمر الفقراء والمحاويج والمرضى والزمنى وكانوا قريباً من ألف وثلثمائة فأكلوا منها فبرأ كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن، فندم الناس على ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك. ثم قيل: إنها كانت تنزل كل يوم مرة فيأكل الناس منها، يأكل آخرهم كما يأكل أولهم حتى قيل: إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف.

ثم كانت تنزل يوماً بعد يوم، كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يوماً بعد يوم. ثم أمر الله تعالى عيسى عليه السلام أن يقصرها على الفقراء أو المحاويج دون الأغنياء. فشق ذلك على كثير من الناس وتكلم منافقوهم فى ذلك. فرفعت بالكلية ومُسِخَ الذين تكلموا فى ذلك خنازير.

وقد روى ابن أبى حاتم وابن جرير جميعاً حدثنا الحسن بن قزعة الباهلى، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا سعيد بن أبى عَروبة، عن قتادة، عن خلاس، عن عمار بن ياسر، عن النبى ﷺ قال: «نزلت المائدة من السماء خبز ولحم، وأُمِروا أن لايخونوا ولايدَّخروا ولا يرفعوا لغد، فخانوا وادَّخروا ورفعوا، فَمُسِخُوا قردة وخنازير». ثم رواه ابن جرير عن بندار، عن ابن أبى عدى، عن سعيد، عن قتادة، عن خلاس، عن عمار موقوفاً. وهذا أصح. وكذا رواه من طريق سماك، عن رجل من بنى عجل، عن عمار موقوفاً، وهو الصواب. والله أعلم.

وخلاس عن عمار منقطع، فلو صح هذا الحديث مرفوعاً لكان فيصلاً

فى هذه القصة، فإن العلماء اختلفوا فى المائدة هل نزلت أم لا؟ فالجمهور أنها نزلت كـما دلت عليـه هذه الآثار وكما هو المفـهوم من ظاهر سـياق القرآن ولاسيما قوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ كما قرره ابن جرير. والله أعلم.

وقد روى ابن جـرير بإسناد صحيح إلى مجـاهد، وإلى الحسن بن أبى الحسن البصـرى أنهما قالا: لم تنزل وإنهم أبوا نـزولها حين قال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾. ولهذا قيل: إن النصارى لايعرفون خبر المائدة وليس مذكوراً فى كتابهم، مع أن خبرها مما تتوفر الدواعى على نقله. والله علم.

فصــل

قال أبو بكر بن أبى الدنيـا: حدثنا رجل سقط اسمه حـدثنا حجاج بن محمد، حـدثنا أبو هلال محمد بن سليمـان، عن بكر بن عبد الله المزنى قال: فقد الحواريون نبـيهم عيسى فقيل لهم: توجه نحو الـبحر، فانطلقوا يطلبونـه، فلما انتهـوا إلى البحـر إذا هو يمشى على الماء يرفعـه الموج مرة ويضعه أخرى، وعليه كساء مرتد بنصـفه ومؤتزر بنصفه حتى انتهى إليهم فقال له بعضـهم: قال أبو هلال: ظننت أنه من أفاضلهم: ألا أجيء إليك يانبى الله؟ قال: بلى، قال: فوضع إحدى رجليه على الماء ثم ذهب ليضع الأخرى فقال: أوه.. غرقت يانبى الله. فـقال: أرنى يدك ياقصير الإيمان لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعرة مشى على الماء.

ورواه أبو سعيد بن الأعرابى عن إبراهيـم بن أبى الجحيم، عن سليمان ابن حرب، عن أبى هلال بن بكر بنحوه.

ثم قال ابن أبى الدنيـا: حدثنا محـمد بن على بن الحسن بن سفـيان، حدثنا إبراهيم بن الأشعث، عن الـفضيل بن عياض قال: قـيل لعيسى بن مريم: ياعيسى.. بأى شيء تمشى على الماء؟ قال: بالإيمان واليقين. قالوا:

فإنا آمنا كما آمنت وأيقنا كـما أيقنت. قال: فامشوا إذاً. قال: فـمشوا معه فى الموج فغرقوا، فقال لهم عيسى: مالكم؟ فقالوا: خفنا الموج. قال: ألا خفتم رب الموج؟ قال: فأخرجـهم. ثم ضرب بيده إلى الأرض فقبض بها ثم بسطها. فى إحدى يديه ذهب وفى الأخرى مـدر - أو حصى - فقال: أيهما أحلى فى قلوبكم؟ قالوا: هذا الذهب. قال: فإنهما عندى سواء.

وقـدمنا فى قصـة يحيى بن زكـريا عن بعض السلف أن عـيسى عليـه السلام كان يلبس الشعر، ويأكل من ورق الشجر، ولا يأوى إلى منزل ولا أهل ولا مال، ولايدخر شيـئاً لغد. قال بعضهم: كـان يأكل من غزل أمه صلوات الله وسلامه عليه.

وروى ابن عساكر عن الشعبى أنه قـال: كان عيسى عليه السلام إذا ذُكِرَ عنده السـاعة صـاح ويقول: لاينبـغى لابن مريم أن يُذكـرَ عنده السـاعة ويسكت.

وعن عبد الملك بن سعيد بن أبجـر أن عيسى عليه السلام كان إذا سمع الموعظة صرخ صراخ الثكلى.

وقال عبد الرزاق: أنبـأنا معمر، حدثنا جعفر بن بلقـان أن عيسى كان يقـول: «اللهم إنى أصبـحت لا أسـتطيع دفع مـا أكره ولا أملك نفع مـا أرجو، وأصبح الأمـر بيد غيرى، وأصبحت مـرتهنا بعملى فلا فقيـر أفقر منى! اللهم لاتشمت بى عدوى، ولا تسؤ بى صديقى، ولا تجعل مصيبتى فى دينى، ولاتسلط علىَّ من لايرحمنى.

وعن الحسن قال: بينما عيسى يوماً نائم على حجر قد توسده وقد وجد لذة النوم إذ مرَّ به إبليس فـقال: ألست تزعم أنك لاتريد شيـئاً من عرض الدنيا؟ فهذا الحجر من عرض الدنيا. قال: فـقام عيسى فأخذ الحجر فرمى به إليه وقال: هذا لك مع الدنيا.

وقال عبد الله بن المبارك: عن سفـيان بن عيينة، عن خلف بن حوشب

قال: قال عيسى للحواريين: كـما ترك لكم الملوك الحكمة فكذلك فاتركوا لهم الدنيا.

وقال قـتادة: قـال عيسى عليـه السلام: سلونى فـإنى ليِّن القلب وإنى صغير عند نفسى.

وقال إسماعـيل بن عياش، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عـمر قال: قال عيسى للحـواريين: كلوا خبز الشعير واشـربوا الماء القَرَاح، واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين، بحقٍ ما أقـول لكم إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، وإن مرارة الدنيـا حلاوة الآخرة، وإن عـباد الله ليـسوا بالمتنعـمين بحق ما أقـول لكم: إن شـرَّكم عالم يؤثـر هواه على علمـه، يود أن الناس كلهم مثله.

وقـال أبو مصـعب عن مـالك: قال عـيـسى بن مـريم عليه السـلام: «لاتكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسوا قلوبكم فإن القلب القاسى بعيد من الله ولكن لاتعلمـون، ولاتنظروا فى ذنوب العباد كـأنكم أرباب، وانظروا فيها كأنكم عبيد، فإنما الناس رجلان: معافى ومبتلى فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية.

وقال الثورى: سمعت أبى يقول: عن إبراهيم التـيمى قال: قال عيسى لأصحابه: بحقٍ أقـول لكم: من طلب الفردوس فخبز الشـعير والنوم فى المزابل مع الكلاب كثير.

وقال مالك بن دينار: قال عيسى: إن أكل الشعير مع الرماد والنوم على المزابل مع الكلاب لقليل فى طلب الفردوس.

وقال عبد الله بن المبارك: أنبأنا سفيان، عن منصور، عن سالم بن أبى الجعـد قال: قال عيـسى: اعملوا لله تعالى ولا تعـملوا لبطونكم، انظروا إلى هذه الطير تغـدو وتروح لاتحرث ولا تحصد والله يرزقهـا، فإن قلتم: نحن أعظم بطوناً من الطير فانظروا إلى هذه الأباقـير من الوحوش والحمر

فإنها تغدو وتروح لاتحرث ولاتحصد والله يرزقها.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن رجل، عن عكرمة قال: قال عيسى: لاتطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير فإن الخنزير لايصنع باللؤلؤ شيئاً، ولا تعطوا الحكمة من لايريدها فإن الحكمة خير من اللؤلؤ ومن لايريدها شر من الخنزير!

وقال مكحول: التقى يحيى وعيسى عليهما السلام فصافحه عيسى وهو يضحك فقال له يحيى: يا ابن خالة: ما لى أراك ضاحكاً كأنك قد أمِنت؟ فقال له عيسى: ما لى أراك عابساً كأنك قد يئست فأوحى الله تعالى إليهما: إن أحبكما إلىَّ أبشكما بصاحبه.

رفع عيسى عليه السلام
إلى السماء

قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٤ - ٥٥].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٥ - ١٥٩].

فأخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء بعدما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به، وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وَشَوْا به إلى بعض الملوك الكفرة فى ذلك الزمان.

قال الحسن البصرى ومحمد بن إسحاق: كان اسمه داود بن نورا، فأمر بقتله وصلبه فحصروه فى دار بيت المقدس، وذلك عشية الجمعة ليلة السبت، فلما حان وقت دخولهم ألقى شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ورُفع عيسى عليه السلام من رَوْزَنَة (فتحة) من ذلك البيت إلى

السمـاء، وأهل البيت ينظرون، ودخل الشُّرط فوجـدوا ذلك الشاب الذى ألقى عليه شبهــه فأخذوه ظانين أنه عيسى، فصلبـوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له، وسلم لليهود عامــة النصارى الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صُلب وضلوا بسبب ذلك ضلالاً مبيناً كثيراً فاحشاً بعيداً.

وأخبر تعـالى بقوله: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ [النساء: ١٥٩] أى بعد نزوله إلى الأرض فى آخر الزمان قبل قيام الساعة، فإنه ينزل ويقتل الخنزير ويكسـرالصليب ويضع الجزية ولايقبل إلا الإسلام كما ورد فيه من الأحاديث الدالة على ذلك.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية، عن المنهال ابن عمرو، عن سعيد بن جبـير عن ابن عباس قال: لما أراد الله تعالى أن يرفع عيـسى إلى السماء خـرج على أصحـابه وفى البيت اثنا عشـر رجلا منهم من الحواريين، يعنى فـخرج عليهم من عين فى البـيت ورأسه يقطر ماء فقال: إن منكم من يكفر بى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى، ثم قال: أيكم يُلقَى عليه شبـهى فيُقتَل مكانى فيكون معى فى درجـتى؟ فقام شاب من أحدثهم سنًا فـقال له: اجلس. ثم أعاد عليـهم فقام الشاب. فـقال: أنا. فقـال: أنت هو ذاك. فألـقى عليه شـبه عيـسى عليه الـسلام، ورُفع عيسى من رَوْزَنَة فى البيت إلى السماء.

قال: وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشبه فقتلوه، ثم صلبوه، فكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به وافترقوا ثلاث فرق.

فـقالت طائفـة: كان الـله فينا مـاشاء ثـم صعـد إلى السمـاء وهؤلاء اليعقوبية.

وقالت فـرقة: كان فينا ابن الله مـا شاء ثم رفعــه الله إليه وهؤلاء هم النسطورية.

وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء المسلمون.

فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله تعالى محمداً ﷺ.

قال ابن عباس: وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم وهكذا ذكر غير واحد من السلف. وممن ذكر ذلك مطولاً محمد بن إسحاق بن يسار.

قال: وجعل عيسى عليه السلام يدعو الله عز وجل أن يؤخر أجله، يعنى ليبلغ الرسالة، ويكمل الدعوة، ويكثر الناس الدخول فى دين الله تعالى.

قيل: وكان عنده من الحواريين اثنا عشر رجلاً: بطرس، ويعقوب بن زبدا، ويحنس أخو يعقوب، وأندراوس، وفليبس، وابرثلما، ومتى، وتوماس، ويعقوب بن حلقيا، وتداوس، وفتاتيا، ويودس بن كريايوطا وهذا هو الذى دل اليهود على عيسى.

قال ابن إسحاق: وكان فيهم رجل آخر اسمه سرجس كتمته النصارى وهو الذى ألقى شبه المسيح عليه فصُلب عنه. قال: وبعض النصارى يزعم أن الذى صلب عن المسيح وألقى عليه شبهه هو «يودس بن كريايوطا».

وقال الضحاك عن ابن عباس: استخلف عيسى شمعون، وقتلت اليهود يودس الذى ألقى عليه الشبه.

وقال أحمد بن مروان: حدثنا محمد بن الجهم قال: سمعت الفراء يقول فى قوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾. قال: إن عيسى غاب عن خالته زماناً فأتاها فقام رأس الجالوت اليهودى فضرب على

عيسى حتى اجتمعوا على باب داره فكسروا الباب ودخل رأس جالوت ليأخذ عيسى فطمس الله عينيه عن عيسى ثم خرج إلى أصحابه فقال: لم أره. ومعه سيف مسلول. فقالوا: أنت عيسى وألقى الله شبه عيسى عليه فأخذوه فقتلوه وصلبوه، فقال جل ذكره: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القمى، عن هارون بن عنترة عن وهب بن منبه، قال: أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين فى بيت فأحاطوا بهم، فلما دخلوا عليهم صوّرهم الله كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم: سحرتمونا. لتبرزن إلينا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً. فقال عيسى لأصحابه: من يشترى منكم نفسه اليوم بالجنة؟ فقال رجل: أنا فخرج إليهم فقال: أنا عيسى. وقد صوَّره الله على صورة عيسى، فأخذوه وقتلوه وصلبوه فمن ثَمَّ شبه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى، فظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى ورفع الله عيسى من يومه ذلك.

وحكى الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن حبيب، فيما بلغه أن مريم سألت عن بيت الملك بعد ما صلب المصلوب بسبعة أيام، وهى تحسب أنه ابنها، أن ينزل جسده، فأجابها إلى ذلك ودفن هنالك، فقالت مريم لأم يحيى: ألا تذهبين نزور قبر المسيح؟ فذهبتا فلما دنتا من القبر قالت مريم لأم يحيى: ألا تستترين؟ قالت: وممن أستتر؟ فقالت: من هذا الرجل الذى هو عند القبر. فقالت أم يحيى: إنى لاأرى أحداً فرجت مريم أن يكون جبريل، وكانت قد بعد عهدها به، فاستوقفت أم يحيى وذهبت نحو القبر، فلما دنت من القبر قال لها جبريل - وعرفته -: يامريم.. أين تريدين؟ فقالت: أزور قبر المسيح فأسلِّم عليه، وأحدث عهداً به. فقال: يامريم.. إن هذا ليس المسيح، إن الله قد رفع المسيح، وطهَّره من

الذين كفروا. ولكن هذا الفتى الذى ألقى شبهه عليه وصُلِب وقُتِل مكانه، وعلامة ذلك أن أهله قد فقدوه، فلا يدرون ما فُعِل به فهم يبكون عليه، فإذا كان يوم كذا وكذا فأت غيضة كذا وكذا فإنك تلقين المسيح. قال: فرجعت إلى أختها وصعد جبريل فأخبرتها عن جبريل وما قال لها من أمر الغيضة فلما كان ذلك اليوم ذهبت فوجدت عيسى فى الغيضة، فلما رآها أسرع إليها، وأكبَّ عليها فقبَّل رأسها، وجعل يدعو لها كما كان يفعل، وقال: يا أمه. إن القوم لم يقتلونى ولكن الله رفعنى إليه وأذن لى فى لقائك، والموت يأتيك قريباً فاصبرى، واذكرى الله كثيراً ثم صعد عيسى فلم تلقه إلا تلك المرة حتى ماتت.

قال: وبلغنى أن مريم بقيت بعد عيسى خمس سنين وماتت ولها ثلاث وخمسون سنة رضى الله عنها وأرضاها.

وقال الحسن البصرى: كان عُمْر عيسى عليه السلام يوم رفع أربعاً وثلاثين سنة. وفى الحديث: «إن أهل الجنة يدخلونها جرداً مرداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين». وفى الحديث الآخر على ميلاد عيسى، وحُسْن يوسف، وكذا قال حماد بن سلمة عن على بن يزيد عن سعيد بن المسيَّب أنه قال: رُفِع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة.

ويروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أن عيسى عليه السلام رفع ليلة الثانى والعشرين من رمضان، وتلك الليلة فى مثلها توفى عَلِىٌّ بعد طعنه بخمسة أيام.

وقد روى الضحاك عن ابن عباس أن عيسى عليه السلام لما رُفِع إلى السماء جاءته سحابة فدنت منه حتى جلس عليها، وجاءته مريم عليها السلام فودعته وبكت ثم رُفِع وهى تنظر وألقى إليها عيسى عليه السلام برداً له وقال: هذا علامة ما بينى وبينك يوم القيامة وألقى عمامته على شمعون، وجعلت أمه تودعه بإصبعها تشير بها إليه حتى غاب عنها

(والظاهر أن حدوث هذا كان بعد اللقاء فى الغيضة كما سبق) وكانت تحبه حباً شديداً، لأنه توفر عليها حبه من جهتى الوالدين إذ لا أب له، وكانت لاتفارقه سفراً ولا حضراً وكانت كما قال بعض الشعراء.

وكنت أرى كالموت من بُعْدِ ساعة فكيف بِبَيْنٍ كـان موعـده الحشر

وذكر إسحاق بن بشر، عن مجاهد بن جـبير. أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل الذى شـبه لهم وهم يحـسبـونه المسيح وسلم لهم أكـثر النـصارى بجهلهم ذلك، تسلطوا على أصحابه بالقـتل والضرب والحبس فبلغ أمرهم إلى صاحب الروم وهو ملك دمشق فى ذلك الزمان فقيل له: إن اليهود قد تسلطوا على أصـحاب رجل كـان يذكر لهم أنه رسـول الله وكان يحـيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويفعل العجـائب فَعَدَوْا عليه فقتلوه وأهانوا أصحابـه وحبسوهم فـبعث فجىء بهم وفيـهم يحيى بن زكريا وشـمعون وجماعة، فسألهم عن أمر المسـيح، فأخبروه عنه فبايعهم فى دينهم وأعلى كلمتهم وظهـر الحق على اليهود وعلت كلمة النصـارى عليهم وبعث إلى المصلوب فوُضع عن جذعـه، وجىء بالجذع الذى صلب عليه ذلك الرجل فعظمه فمن ثَّمَ عظَّمت النصارى الصليب. ومن هاهنا دخل دين النصرانية فى الروم.

وفى هذا نظر من وجوه:

أحدها: أن يحـيى بن زكريا عليـه السلام نبى لايُقـر على أن المصلوب عيسى فإنه معصوم يعلم ما وقع على جهة الحقيقة.

الثانى: أن الروم لم يدخلوا فى دين المسيح إلا بعد ثلثمائة سنة من رفع المسيـح عيسى بـن مريم وذلك فى زمـان قسطنطين بن قـسطن بانى المدينة المنسوبة إليه على ما سنذكره.

الثالث: أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل ثم ألقـوه بخشبته جعلوا مكانه مطرحاً للقمامة والنجاسة وجيف الميتات والقاذورات، فلم يزل كذلك حتى

كان فى زمـان قسطنطين المذكور فـعمدت أمه «هيـلانة» الحرانية الفندقـانية فاستـخرجته مـن هنالك معتقـدة أنه المسيح، ووجدوا الخشـبة التى صلب عليهـا المصلوب، فذكروا أنـه ما مسهـا ذو عاهة إلا عـوفى. فالله أعلم. أكان هذا أم لا؟ وهل كان هذا لأن ذلك الرجل الذى بذل نفسه كان رجلاً صالحـاً، أو كان هـذا محنة وفـتنة لأمة النصـارى فى ذلك اليوم، حـتى عظموا تلك الخشبة وغـشوها بالذهب واللآلىء، ومن ثمَّ اتخذوا الصلبان وتبركـوا بشكلها وقبلوها، وأمرت أم المـلك هيلانة فأزيلت تلك القمـامة وبُنِى مكانها كنيسة هائلة مزخرفة بأنواع الزينة فهى هذه المشهورة اليوم ببلد بيت المقدس التى يقال لها القمامة باعتبار ما كان عندها، ويسمونها القيامة يعنون التى يقوم جـسد المسيح عليـه السلام منها. ثم أمـرت «هيلانة» بأن توضع قمامة البلد وكناسته وقـاذوراته على الصخرة التى هى قبلة اليهود، فلم تزل كـذلك حتى فـتح عمـر بن الخطاب بيت المقدس، فكنس عنـها القمامة بردائه، وطهرها من الأخباث والأنجاس، ولم يضع المسجد وراءها ولكن أمامها حيث صلى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء بالأنبياء وهو المسجد الأقصى.

صفة عيسى عليه السلام

وشمائله وفضائله

قال الله تعالى: ﴿**مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِـدِّيقَـةٌ كَـانَا يَأْكُـلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَـيْفَ نُبَـيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ**﴾ [المائدة: ٧٥].

قيل: سمى المسيح لمسـحه الأرض، وهو سياحته فـيها وفراره بدينه من الفتن فى ذلك الزمـان لشدة تكذيب اليـهود له وافـترائهم عليـه وعلى أمه عليهما السلام. وقيل: لأنه كان ممسوح القدمين.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧].

عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: «ليلة أُسْرِىَ بى لقيت موسى قال: فنعته فإذا رجل حسبته قال: مضطرب رَجِل الرأس كأنه من رجال شنوءة، قال: ولقيت عيسى فنعته النبى ﷺ فقال: ربعة أحمر كأنه خرج من ديماس (يعنى الحمام)، ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به. . . الحديث» وقد قدمنا قصتى إبراهيم وموسى عليهما السلام.

ثم قال: حدثنا محمد بن كثير، أنبأنا إسرائيل، عن عثمان بن المغيرة، عن مجاهد عن ابن عمر قال: قال النبى ﷺ: «رأيت عيسى وموسى وإبراهيم. فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر، وأما موسى فآدم جسيم سَبط كأنه من رجال الزُّطِّ» تفرد به البخارى.

قال البخارى: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب عن الزهرى، أخبرنى أبو سلمة أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا أولى الناس بابن مريم والأنبياء أولاد علات ليس بينى وبينه نبى» تفرد به البخارى من هذا الوجه. ورواه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى داود الحفرى عن الثورى عن أبى الزناد عن أبى سلمة عن أبى هريرة.

وقال أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان هو الثورى عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى عليه السلام والأنبياء إخوة أولاد علات وليس بينى وبين عيسى نبى» وهذا إسناد صحيح على شرطهما ولم يخرجوه من هذا الوجه. . . ابن كثير.

وقال أحمد: حدثنا يحيى عن ابن أبى عروبة، حدثنا قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «الأنبياء إخوة لعلات. ودينهم واحد، وأمهاتهم شتى، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه لم يكن بينى وبينه نبى فإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع إلى

الحمرة والبياض سَبْط كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل بين مخصرتين (عصوين) فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويعطل الملل حتى تهلك فى زمانه كلها غير الإسلام، ويُهلك الله فى زمانه المسيح الدجال الكذاب، وتقع الأمَنَة فى الأرض حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعاً، والنمور مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات لايضر بعضهم بعضاً، فيمكث ما شاء الله تعالى أن يمكث ثم يتوفى فيصلى عليه المسلمون ويدفنونه.

ثم رواه أحمد عن عفان عن همام عن قتادة عن عبد الرحمن عن أبى هريرة فذكر نحوه وقال: فيمكث أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون. ورواه أبو داود عن هدبة بن خالد عن همام بن يحيى به نحوه.

وقوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ [الزخرف: ٦١] وأنه ينزل على المنارة البيضاء بدمشق وقد أقيمت صلاة الصبح فيقول له إمام المسلمين: تقدم ياروح الله فصلِّ فيقول: لا بعضكم على بعض أمراء مكرمة الله فى هذه الأمة.

وفى رواية: فيقول له عيسى عليه السلام: إنما أقيمت الصلاة لك فيصلى خلفه ثم يركب ومعه المسلمون فى طلب المسيح الدجال فيلحقه عند باب «لد» فيقتله بيده الكريمة.

وقد بنيت المنارة الشرقية من أموال النصارى حين حرقوا التى هدمت وما حولها فينزل عليها عيسى بن مريم عليه السلام فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ولايقبل من أحد إلا الإسلام وإنه يحج من فج الروحاء حاجًا أو لثنتيهما ويقيم أربعين سنة ثم يموت فيدفن فيما قيل فى الحجرة النبوية عند رسول الله ﷺ وصاحبيه.

وقد ورد فى ذلك حديث ذكره ابن عساكر ولايصح إسناده.

وذكر ابن جرير عن محمد بن إسحاق أن عيسى عليه السلام قبل أن يُرفع وصَّى الحواريين بأن يدعوا الناس إلى عبادة الله تعالى وحده لاشريك له وعيَّن كل واحد منهم إلى طائفة من الناس فى إقليم من الأقاليم من المشرق، والشام، وبلاد المغرب فذكروا أنه أصبح كل إنسان منهم يتكلم بلغة الذين أرسله المسيح إليهم. وذكر غير واحد أن الإنجيل نقله عنه أربعة: لوقا، ومتى، ومَرْقُس، ويوحنا، وبين هذه الأناجيل الأربعة تفاوت كثير بالنسبة إلى كل نسخة ونسخة وزيادات كثيرة ونقص بالنسبة إلى الأخرى. وهؤلاء الأربعة منهم اثنان ممن أدرك المسيح ورآه وهما: متى، ويوحنا، ومنهم اثنان من أصحاب أصحابه وهما: مَرْقُس، ولوقا.

وقد اختلفوا فى نقل الأناجيل على أربعة أقاويل ما بين زيادة ونقصان، وتحريف وتبديل، ثم بعد المسيح بثلاثمائة سنة حدثت فيه الطامة العظمى والبلية الكبرى. اختلف البتاركة الأربعة، وجميع الأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين فى المسيح على أقوال متعددة لاتنحصر ولاتنضبط واجتمعوا وتحاكموا إلى الملك قسطنطين بانى القسطنطينية وهم المجمع الأول فصار الملك إلى قول أكثر فرقة اتفقت على قول من تلك المقالات فسموا «الملكية» ودحض من عداهم وأبعدهم وتفرقت الفرقة التابعة لعبد الله بن أريوس الذى ثبت على أن عيسى عبد من عباد الله تعالى ورسول من رسله فسكنوا البرارى والبوادى وبنوا الصوامع والديارات والقلايات وقنعوا بالعيش الزهيد ولم يخالطوا أولئك الملل والنحل، وبنت الملكية الكنائس الهائلة وعمدوا إلى ما كان من بناء اليونان فحولوا محاريبها إلى الشرق وقد كانت إلى الشمال إلى الجدى.

بناء بيت لحم والقمامة

بنى الملك قسطنطين بيت لحم على محل مولد المسيح عليه السلام، وبَنَتْ أمه «هيلانة» القمامة يعنى على قبر المصلوب وهم يسلمون لليهود أنه المسيح وقد كفر هؤلاء وهؤلاء، ووضعوا القوانين والأحكام ومنها مخالف للتوراة، وأحلوا أشياء هى حرام بنص التوراة، ومن ذلك لحم الخنزير، وصلوا إلى الشرق ولم يكن المسيح صلى إلا إلى صخرة بيت المقدس، وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى عليه السلام، ومحمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، صلى إليها بعد هجرته إلى المدينة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ثم حُوِّل إلى الكعبة التى بناها إبراهيم الخليل عليه السلام. وصوروا الكنائس (وضعوا فيها صورا) ولم تكن مصورة قبل ذلك، ووضعوا العقيدة التى يحفظها أطفالهم ونساؤهم ورجالهم والتى يسمونها بالأمانة. وهى فى الحقيقة أكبر الكفر والخيانة، وجميع الملكية والنسطورية أصحاب نسطورس أهل المجمع الثانى، واليعقوبية أصحاب يعقوب البراذعى أصحاب المجمع الثالث يعتقدون هذه العقيدة ويختلفون فى تفسيرها.

وهأناذا أحكيها وحاكى الكفر ليس بكافر لأبيِّن ما فيها من ركاكة الألفاظ وكثرة الكفر والخبال المفضى بصاحبه إلى النار.

فيقولون: نؤمن بإله واحد ضابط الكل خالق السموات والأرض كل مايُرى وكل ما لايُرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل الدهور نور من نور إله حق من إله حق مولود غير مخلوق مساو للأب فى الجوهر الذى كان به كل شيء. من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس ومن مريم

العذراء، وتأنس وصلب على عهد ملاطس النبطى وتألم وقُبِر وقام فى اليوم الثالث كما فى الكتب، وصعد إلى السماء وجلس على يمين الأب. إلى آخر هذا الهراء، نسأل الله تعالى السلامة من الزلل، والتوفيق لخالص التوحيد إلى آخر الأجل إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين والمرسلين. وعلى آله وصحبه أجمعين. اهـ من البداية والنهاية لابن كثير ملخصا.

الخـــاتمة

الحـمد لله رب العـالمين، وأشـهد أن لا إله إلا اللـه الرحمن الرحـيم وأشهد أن محمدا رسول الله والمبعوث رحمة للعالمين. وبعد

فقد انتهى بحـمد الله تعالى هذا الكتاب الخاص «بالصـفوة الممتازة من أنبياء الله ورسله» وقد توخـيت فيه السهولة واليسر، وذكـرت التاريخ كما جاء فى الكتاب والسنة والآثار ولم أحـاول أن أذكر العبر والمواعظ والحكم المأخوذة من كل قصة من قصص أنبياء الله ورسله. وذلك لأن ما جاء من ذلك فى القرآن الكريم والسنة النبوية والآثار المنقولـة عن الصحابة وغيرهم يكفى ويغنى، فعلى كل قارئ أن يأخذ من هذه العبر لنفسه ولغيره ما يفتح الله به عليه، وما يفيده ويفيد غيره به ولو أننى استطردت فى تبيان ما ذكر لاحتاج الكتاب إلى ضعف حجمه، ولخرج عن سهولته ويسره، ولصح أن يقول قـائل: إن الكتاب لم يسـتوف جمـيع مواعظه وحكمـه، أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل نافعاً مفيداً، إنه نعم المولى ونعم النصير.

المـــؤلـف

حسـن أيـوب



الفهرس



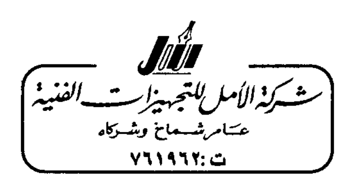
الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
القصص فى كتاب الله تعالى	٧
قصة آدم عليه السلام	١١
بداية القصة	١٢
خلق آدم	١٥
زوجة آدم	١٧
الشجرة المحرمة على آدم وزوجه	١٨
كيف أكلا من الشجرة؟	١٩
كيف أغواهما الشيطان؟	٢١
لم أخرج من الجنة؟	٢١
توبة آدم	٢٢
كم مكث آدم فى الجنة؟	٢٣
الخلاف فى جنة آدم	٢٣
استكبار إبليس وجزاؤه	٢٦
أولاد آدم عليه السلام	٢٧
قصة ابنى آدم قابيل وهابيل	٣٠
وفاة آدم عليه السلام	٣٣
قصة إدريس عليه السلام	٣٤
قصة نوح عليه السلام	٣٦
سبب عبادتهم الأصنام	٣٨

صنع السفينة وصفتها ٤٠
أوامر إلهية خاصة بنجاة الفئة الربانية ٤١
عمر نوح عليه السلام وموته وقبره ٤٦
قصة هود عليه السلام ٤٧
قصة صالح عليه السلام ٥٧
دور النساء فى هلاك هذه الأمة ٦١
مرور النبى ﷺ بوادى الحجر من أرض ثمود عام تبوك ٦٦
قصة إبراهيم الخليل عليه السلام ٦٧
نسب إبراهيم الخليل عليه السلام ٦٩
دعوته لأبيه ٧٠
موقف إبراهيم مع قومه ٧٢
مناظرة إبراهيم الخليل مع عتاة الكافرين ٧٦
هجرة الخليل عليه السلام إلى بلاد الشام ٧٩
هجرته عليه السلام إلى مصر ٨٠
ذكر مولد إسماعيل عليه السلام ٨٢
ذكر هجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى جبال فاران (مكة) ٨٣
إسماعيل وقصة ذبحه ٨٥
زيارات الخليل لابنه إسماعيل عليهما السلام ٨٧
بناء البيت العتيق ٨٨
ذكر مولد إسحاق عليه السلام ٩٠

إبراهيم الخليل وإحياء الموتى ٩٢
الأحداث الأخيرة فى حياة الخليل عليه السلام ٩٣
أولاد إبراهيم الخليل عليه السلام ٩٥
قصة لوط عليه السلام ٩٦
إسماعيل عليه السلام ١٠٣
قصص إسحاق بن إبراهيم وابنه يعقوب وأولادهما ١٠٥
قصة يوسف عليه السلام ١١١
قصة نبى الله أيوب عليه السلام ١٣٨
قصة شعيب عليه السلام ١٤٤
قصة موسى الكليم عليه الصلاة والتسليم ١٤٨
كيف وصل موسى وهارون إلى فرعون؟ ١٦٣
بعد هزيمة فرعون وشيعته ١٦٩
موقف شجاع من مؤمن ١٧٠
ذكر هلاك فرعون وجنوده ١٧٣
بداية الاستعداد للخروج من الأزمة ١٧٤
خروج بنى إسرائيل من مصر ١٧٥
كيفية هلاك فرعون ١٧٩
أمر بنى إسرائيل بعد هلاك فرعون ١٨٠
نكول بنى إسرائيل عن قتال الجبارين ١٨١
دخول بنى إسرائيل التيه وما فيه من الأمور العجيبة ١٨٣
سؤال الرؤية ١٨٨

قصة عبادتهم العجل ١٩٢
بنو إسرائيل يُجبرون على العمل بالتوراة ١٩٥
قصة بقرة بنى إسرائيل ١٩٦
موسى والخضر عليهما السلام ١٩٩
ذكر بناء قبة الزمان وأهميتها ٢٠٢
وفاة موسى وهارون عليهما السلام ٢٠٤
ذكر نبوة يوشع وقيامه بأعباء بنى إسرائيل بعد موسى وهارون
عليهما السلام ٢٠٦
ذكر جماعة من أنبياء بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام ... ٢١٠
قصة حزقيل ٢١٠
قصة إلياس عليه السلام ٢١٣
قصة اليسع عليه السلام ٢١٥
الأحداث الخطيرة فى بنى إسرائيل بعد اليسع عليه السلام ٢١٦
قصة ذو الكفل عليه السلام ٢١٧
قصة شمويل عليه السلام ٢١٩
قصة داود عليه السلام ٢٢٦
قصة الخصمين مع داود عليه السلام ٢٢٩
ذكر مدة حياته وكيفية وفاته ٢٣١
قصة سليمان بن داود عليهما السلام ٢٣٤
امتحان الله تعالى لسليمان عليه السلام ٢٤١
بساط سليمان عليه السلام ٢٤٤

تسخير الجن والشياطين لسليمان عليه السلام ٢٤٥
نساء سليمان عليه السلام ٢٤٦
ذكر وفاته وكم كانت مدة ملكه وحياته ٢٤٧
قصة يونس عليه السلام ٢٤٩
قصة زكريا ويحيى عليهما السلام ٢٥٤
ولادة يحيى عليه السلام ٢٥٧
بيان سبب قتل يحيى عليه السلام ٢٦١
قصة عيسى ابن مريم عليه السلام ٢٦٤
قصة أمه مريم عليها السلام ٢٦٤
من كرامات مريم عليها السلام ٢٦٧
حمل مريم بعيسى وولادته ٢٧٢
نشأة عيسى عليه السلام وتطور حياته ٢٨١
بيان نزول الكتب الأربعة ومواقيتها ٢٨٤
بعثة عيسى ومعجزاته ٢٨٥
ذكر خبر المائدة ٢٩٢
فصل ٢٩٤
رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ٢٩٨
صفة عيسى عليه السلام وشمائله وفضائله ٣٠٤
بناء بيت لحم والقمامة ٣٠٨
الخاتمة ٣١٠


شركة الأمل للتجهيزات الفنية
عامر شماخ وشركاه
ت:٧٦١٩٦٢





مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية

العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ - تليفاكس : ٣٦٣٣١٤ - ٣٦٢٣١٣

مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣